جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

مَنْهَجُ الدُّكتُورِ مُحمَّد حَمَاسَة فِي تَلَقِّي النَّصِّ الشِّعْرِي دِرَاسَةٌ فِي نَقْدِ النَّقْدِ

إعداد
د. كَمَال مُحَمَّد السَّيد مُحَمَّد عَبدِ البَر
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

(العدد الخامس والثلاثون)
(الإصدار الثاني .. أكتوبر)
(١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م)

علمية- محكمة- نصف سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

مَنْهَجُ الدُّكتُور مُحمَّد حَمَاسَة فِي تَلَقِّي النصِّ الشِّعْرِيِّ نَمَاذِجُ .. وَتَقْوِيمٌ

كَمَال محمَّد السَّيد محمَّد عَبد البَر

قسم الدراسات الأدبية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، جمهورية مصر العربية.

البريد الالكتروني: kmal.mohammed.987@gmail.com

الملخص:

حاولتُ فِي هَذهِ الدراسَةِ تَقديمَ نَموذجٍ مُستَفِيضٍ لأَهَمِّ إِشْكاليَّاتِ النقْدِ الأَدبِيِّ المعَاصِرِ؛ فَقَدْ يُشِيرُ بعضُ النقَّادِ إِلَى فَجوَةٍ هَائلَةٍ بينَ التنظِيرِ وَالتطبيقِ، فِي الخِطابِ النقدِيِّ، لكنَّهم قَدْ يَكتفُونَ فِي تَوضِيحِ بِمِثَالٍ جُزئيٍّ يَتناقَضُ فِيهِ بَعضُ النقَّادِ مَعَ أَحَدِ مَبادئِهم النظّرِيَّةِ، وَلَا يَتنَاوَلُونَ هَذهِ الإِشْكَاليةَ مِنْ خِلَالِ مَشروعٍ مُتكامِلٍ، وَذَلِكَ مَا حَاولَتْهُ هذهِ الدرَاسَةُ؛ وَقَدِ اتخَذْتُ مِنْ مَشرُوعِ د. حَماسَةَ النقْديِّ نَموذَجًا لِتوضيحِ تِلكَ الإِشكاليةِ؛ حَيثُ تَرَكَ د. حَماسَةُ مَشرُوعًا مُتكَامِلًا يَقُومُ عَلَى مَنهَجٍ وَاضِحٍ (نَحْوُ النصِّ)، وَيَجمَعُ بَينَ التنظِيرِ، وَالتَطبيقِ عَلَى نُصُوصٍ شِعريةٍ قَديمةٍ وحديثةٍ.

تَناولْتُ خِلالَ هَذه الدراسَةِ الْجَانبَ التطبيقِيَّ، فَأَشَرْتُ فِي المقدِّمَةِ إِلَى أَهَمِّ المبَادِئِ النظَرِيَّةِ التِي آمنَ بِهَا د. حَماسَةُ، وَقَد تَناولتُها فِي بَحْثٍ خَاصٍّ سَابِقٍ، وَبَيْنْتُ حَظَّها مِنَ الأَصَالَةِ وَالتقْلِيدِ، ثُمَّ عَرضْتُ فِي المبحَثِ الأَوَّلِ مَنْهَجَ الدكتُور حَمَاسَة فِي قِرَاءَةِ الظَّوَاهِرِ النحْوِيَّةِ، وَعرضتُ في المبحثِ الثانِي نَماذجَ مِنْ تَحليلِهِ قَصَائِدَ الشِّعْرِ العَربِيِّ، وَتَناولْتُ فِي المبْحَثِ الثَّالِثِ بَعْضَ قِرَاءَاتِهِ للدوَاوِينِ الشِّعريةِ، وَقَد خَلصتُ إِلَى نَتيجةٍ تُؤكِّدُ اتسَاعَ المسَافَةِ بينَ التنظير والتطبيق.

فَقَدْ أَحْسَنَ د. حَماسَةُ حِينَ آثَرَ المَدْخَلَ النَّحْوِيَّ إِلَى قِرَاءَةِ النصِّ الشِّعْرِيِّ؛ فَالنَّحْوُ أَهَمُّ مُكوِّنَاتِ المدْخَلِ اللغَوِيِّ الَّذِي يُلائِمُ النَّصَّ الأَدَبِيَّ بِوَصْفِهِ بِنَاءً لُغَوِيًّا. لَكِنَّهُ أَضَاعَ إِحْسَانَهُ حِينَ شَغَلَ نَفْسَهُ بِمَقُولَاتِ النقْدِ الجدِيدِ، أَوِ البِنيويَّةِ

أَوِ التَّولِيديَّةِ التّحوِيلِيَّةِ؛ كَاستِقْلَالِ النصِّ، وَالعلاقَاتِ الرأْسِيَّةِ وَالأُفقِيَّةِ، وَالبِنيتَيْنِ السَّطْحِيَّةِ وَالعَمِيقَةِ، ومِنْ ثَمَّ بَقِيَ المدْخَلُ النَّحْوِيُّ وَحَتْمِيتُهُ مُجرَّدَ رُؤْيَةٍ نَظَرِيةٍ، لَا تَجِدُ لَهَا سَنَدًا مِنْ جُهُودِ النَّاقِدِ التَّطْبِيقيَّةِ.

الكلمات المفتاحية: نحو النص، د. محمد حماسة، التنظير، التطبيق، قراءة الشعر، التلقِّي).

The approach of Dr. Muhammed Hamasah in receiving the poetic text models .. and evaluation

Kamal Muhammad Al-Sayyid Muhammed Abd Al-Barr
Faculty of Dar Al Uloom, Cairo University, Arab Republic of Egypt.
Email: kmal.mohammed.987@gmail.com

Abstract:

In this study, I tried to provide an extensive model of the most important problems of contemporary literary criticism; some critics may point to a huge gap between theorizing and application, in critical discourse, but they may be content to clarify a partial example in which some critics contradict one of their theoretical principles, and do not address this problem through an integrated project, and this is what this study tried; and it was taken from the project of Dr. Hamasa Dr. Hamasa left an integrated project based on a clear approach (towards the text), combining theorizing and applying to ancient and modern poetic texts.

During this study, I dealt with the applied aspect, referring in the introduction to the most important theoretical principles that Dr. Hamasa believed in, and I dealt with them in a previous special research, and showed her luck of originality and tradition, and then presented in the first section Dr. Hamasa's method in reading grammatical phenomena, and presented in the second section models of his analysis of poems of Arabic poetry, and dealt in the third section with some His readings of poetic volumes, and have come to a conclusion confirming the widening distance between theorizing and application.

Dr. Hamasa was enthusiastic when he chose the grammatical approach to reading the poetic text; grammar is the most important component of the

linguistic approach that fits the literary text as a linguistic construct. But he lost his benevolence when he preoccupied himself with the sayings of new, structural, or generative transformational criticism, such as the independence of the text, vertical and horizontal relationships, and the superficial and deep structures, and thus the grammatical approach and its inevitability remained a mere theoretical vision, for which there is no support from the critic's applied efforts.

Keywords: Text Grammar، Dr. Muhammad Hamasa، Endoscopy، Application، Reading، Poetry، Receiving.

مُقدِّمَةٌ

تَناوَلْتُ فِي بَحْثٍ سَالِفٍ الْجَانِبَ النظَرِيَّ لَدَى الدكتُورِ **مُحَمَّد حَمَاسَةَ**، وَقَدْ طَـالَ فِيـهِ الكَـلَامُ عَنْ (أُصُولِ التَّحْلِيلِ النَّصِّـيِّ) التِـي آمَنَ بِهَا الدُّكتُورُ **حَماسَـةُ**، وَاتَّخَـذَهَا أَدَوَاتٍ لِتَحْلِيـلِ الـنَّصِّ الشِّـعْرِيِّ، وَهِـيَ: (حَتْمِيَّـةُ المَـدْخَلِ النَّحْـوِيِّ – لِكُـلِّ نَـصٍّ مَدْخَلُـهُ – كُلِّيَّـةُ الـنصِّ وَوَحْدَتُـهُ – اسْـتِقْلَالُ الـنَّصِّ – العَلَاقَاتُ الرَّأسِيَّةُ وَالأُفُقِيَّـةُ – البِنْيَتَانِ السَّطْحِيَّةُ وَالعَمِيقَةُ)، وَكَانَتْ لِي مَآخِذُ عَلَـى هَـذِهِ الأُصُـولِ، وَمِنْهَـا: أَنَّ هَـذِهِ الأُصُـولَ مُسـتعَارَةٌ مُجتَلَبَـةٌ مِـنْ مَنَابِـتَ شَـتَّى؛ فَبَعْضُـهَا مَـأخُوذٌ مِـنْ النقْـدِ الجدِيـدِ، وَبَعضُـهَا مَـأخوذٌ مِـنَ البُنَويَّـةِ، وَبَعضُـهَا مُسـتَمَدٌّ مِـنَ أُسـلُوبيةِ سـبتزَر، وَبَعضُـهَا مَنسُـوبٌ إِلَـى التوْلِيديَّـةِ التحْوِيليَّـةِ، وَكُلُّهَـا مَنَابِـتُ غَرْبِيَّـةٌ لَا عَرَبِيَّـةٌ، تَتَأَكَّـدُ بِهَـا إِشْـكَالِيَّةُ التَّبعِيَّـةِ فِـي خِطَابِنَـا النَّقْـدِيِّ المعَاصِـرِ، كَمـا أَنَّ بَعْضَ هَـذِهِ الأُصـولِ (اسْـتِقْلَال الـنَّصِّ) نِسْـبِيٌّ، وَلَا يَصِـحُّ تَعمِيمُـهُ أَوِ اطِّـرَادُهُ، فَلَيْسَـتْ كُـلُّ النصُـوصِ سَـوَاءً فِـي اسْتِجَابَتِهَا لِهذَا الأَصْلِ. كَمَا أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** فَهِمَ بَعْضَ الأُصُولِ التِي تَبنَّاهَا (مِثْلَ: العَلَاقَاتِ الرَّأسِيَّة وَالأُفقِيَّةِ) فَهْمًا خَاصًّا يُخَالِفُ فِيهِ بَقِيَّةَ الدَّارِسِينَ(١).

عَلَى أَنَّ أَهَمَّ مَا أَخَذْتُهُ عَلَى الخِطَابِ النقْدِيِّ الذِي قَدَّمَهُ **د. حَمَاسَةُ**؛ أَنَّـهُ لَمْ يُوفَّقْ إِلَى تَنزِيلِ هَذِهِ الأُصُولِ وَالمبادِئِ التِي تَبنَّاهَا عَلَى النصُوصِ التِـي عُنِـيَ بِتَحْلِيلِهَـا وَقِرَاءَتِهَـا، وَقَـدْ ضَـرَبْنَا لِـذَلِكَ أَمْثِلَـةً قَلِيلَـةً، وَبَقِيَـتْ هَـذِهِ الإِشْكَالِيةُ (**اتِّسَاعَ المسَافَةِ بينَ التنظِيرِ وَالتطْبِيقِ**)، مُجَرَّدَ دَعْوَى دُونَ بَيِّنَةٍ، تَتَغَـيَّا هَـذِهِ الدرَاسَـةُ تَناولَهَـا؛ فَلَـمْ يَسـتَطِعِ البَحْـثُ السَّـالِفُ – لِطُولِـهِ، وَلِكَثْـرَةِ نَمَاذِجِ هَذِهِ الإِشْكَالِيَّةَ – تَنَاوُلَهَا تَنَاوُلًا مُفَصَّلًا؛ وَلَمَّا كَانَ الجهْدُ التَّطبِيقِيُّ لَدَى **د. حَمَاسَةَ** وَافِرًا؛ حَتَّى لَيتَعَذَّرُ تَناوُلُـهُ مَـعَ الجهْدِ النظَرِيِّ فِي بَحْثٍ وَاحِدٍ؛ فَقَدْ

---

(١) انظرْ بَحثِيَ السابِقَ بعنوَانِ (**أُصولُ التحْليلِ النصيِّ – قِرَاءةٌ فِي مُنجَزِ د. محمَّد حماسَة عَبدِ اللطِيفِ**)، مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد السابع والثلاثون، إصدار يونيو ٢٠٢٢م، ص ١٦٨٢، وما بعدها.

صِرْتُ لِذَلِكَ أَمَامَ خِيَارَيْنِ: إِمَّا أَنْ أَكْتَفِيَ بِتَقْوِيمِ رُؤْيَتِهِ النظَرِيَّةِ، فَتبقَى مَآخِذِي عَلَيهَا دُونَ بَيِّنَاتٍ كَافِيَةٍ، وَإِمَّا أَنْ أَخُصَّ جُهودَهُ التَّطبيقِيَّةَ بِبَحْثٍ مُسْتَقِلٍّ؛ وَذَلِكَ مَا مَالَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ؛ طَلَبًا لِاكتِمَالِ الصُّورَةِ، وَإِتْمَامِ الفِكْرَةِ، وَاسْتِقْصَاءِ التقْوِيمِ لِجَانِبَي التنْظِيرِ وَالتطْبِيقِ عَلَى سَوَاءٍ، وَمَدَى اتِّفَاقِهِمَا وَاخْتِلَافِهِمَا؛ وَمِنْ ثَمَّ وَعَدْتُ فِي نِهَايَةِ ذَلِكَ البَحْثِ السَّالِفِ بِدِرَاسَةٍ تُقَوِّمُ مَا أَنْجَزَهُ **د. حَمَاسَةُ** مِنْ دِرَاسَاتٍ تَطبيقِيَّةٍ، وَهَأَنَذَا أَفْعَلُ بِتَسْدِيدِ اللهِ وَتَوفِيقِهِ.

لَقَدْ تَرَكَ الدكتورُ **حَمَاسَةُ** تُرَاثًا تَطبيقِيًّا وَاسِعًا وَمُتنَوِّعًا، فَقَدْ قَرَأَ بعضَ قَصَائِدِ شِعْرِنَا القَدِيمِ، كَمَا قَرَأَ قَصَائِدَ وَدَوَاوِينَ حَدِيثَةً قِرَاءةً نَصِّيَّةً وَفْقَ مَنْهَجِ نَحْوِ النصِّ الَّذِي آمنَ بِهِ، وَاتَّخَذَهُ مَدْخَلًا إِلَى قِرَاءَةِ الشِّعْرِ العرَبِيِّ قَدِيمِهِ وَحَدِيثِهِ، وَلَا يَسَعُنَا أَنْ نَدرُسَ تِلْكَ الجهودَ – عَلَى سَعَتِهَا وَتَنَوعِهَا – دِرَاسَةً مفصَّلَةً، وَإِنَّما يَسَعُنَا أَنْ نُقسِّمَهَا، وَأَنْ نَجْتَزِئَ فِي دِرَاسَةِ كُلِّ قِسْمٍ بِنَماذِجَ دَالَّةٍ تُجَلِّي جَوْهَرَهُ، وَتُقَدِّمُ أهمَّ سِمَاتِ مَا أَنْجَزَهُ **د. حَمَاسَة** فِي كُلِّ قِسْمٍ عَلَى حِدَةٍ.

هَذَا، وَإِنَّ جُهُودَ أُستَاذِنَا الدُّكتُور **مُحمَّد حَماسَة** فِي قِرَاءَةِ القَصِيدَةِ العَرَبيَّةِ قَديمِهَا وَحَدِيثِهَا، وَتَحْليلِها نَصِّيًّا، لَا تَكَادُ تُجَاوِزُ أَقْسَامًا ثَلاثَةً: **أَوَّلُهَا** – قِرَاءَةُ الظَّوَاهِرِ النَّحْوِيَّةِ، و**ثَانِيهَا**– قِرَاءَةُ القَصَائِدِ، و**ثَالِثُها** – قِرَاءَةُ الدَّواوِينِ، وَلَا مَنَاصَ حِيَالَ ذَلِكَ الْجهْدِ التطْبِيقِيِّ الوَاسِعِ المتنَوِّعِ مِنَ الاكْتِفَاءِ بِبعْضِ الملَامِحِ العَامَّةِ الْخَاصَّةِ بِكُلِّ قِسْمٍ مِنْ أَقْسَامِهِ، مَعَ انْتِقَاءِ الأَمْثِلَةِ التِي تُؤَيِّدُ تِلْكَ الملَامِحَ فِي كُلِّ قِسْمٍ مِنْ هَذِهِ الأَقْسَامِ؛ أَيْ أَنَّنَا نُؤْثِرُ فِي هَذِهِ الدرَاسَةِ مَنْهَجَ الانْتِقَاءِ لَا الاسْتِقْصَاءِ.. وَلْنبْدَأْ بِالقِسْمِ الأَوَّلِ:

المَبْحَثُ الأَوَّلُ: قِرَاءَةُ الظَّوَاهِرِ النَّحْوِيَّةِ

يُمثِّلُ كِتابُ الدُّكتُور **مُحمَّد حَمَاسَة** (شِعْرُ صَلَاحِ عَبْدِ الصَّبُورِ: دِرَاسَةٌ نَصيَّةٌ) هَذَا القِسْمَ خَيْرَ تَمثِيلٍ وَأَدَقَّهُ، وَقَدْ صَدَرَ الكِتَابُ عَنْ الهيئَةِ المصْرِيَّةِ العَامَّةِ لِلكِتَابِ عَامَ ٢٠١٤م، وَهِيَ الطَّبعَةُ التِي اعتَمَدْتُ عَلَيْهَا. لَكِنِّي وَجَدْتُ لَهُ طَبْعَةً أُخْرَى سَابِقَةً بِعُنوَانِ (ظَوَاهِرُ نَحْوِيَّةٌ فِي الشِّعْرِ الْحُرِّ: دِرَاسَةٌ نَصِّيَّةٌ فِي شِعْرِ صَلَاحِ عَبدِ الصَّبُورِ)[1]، وَعُنوَانُ هَذِهِ الطبعَةِ أَدَقُّ فِي تَمثِيلِ هَذَا القِسْمِ مِنْ أَقْسَامِ كِتَابَاتِ **د. حَمَاسَةَ** التطْبِيقيَّةِ، وَأَدَقُّ كَذَلِكَ فِي تَمثِيلِ مُحْتَوَى الكِتَابِ نَفْسِهِ؛ ذَلِكَ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** لَمْ يَدْرُسْ شِعْرَ صَلَاح عَبْدِ الصَّبُورِ كُلَّهُ عَلَى نَحْوِ مَا يُوحِي عُنْوَانُ طَبعَةِ الهيئَةِ الْمِصْرِيَّةِ، وَإِنَّما دَرَسَ بَعْضَ الظوَاهِرِ النحْوِيَّةِ فِي شِعْرِهِ.

فَإِذَا تَجَاوَزْنَا عُنوَانَ الكِتَابِ وَطَبعَاتِهِ إِلَى مُحتوَاهُ أَلْفَيْنَاهُ وَاسِعًا مُتَنَوِّعًا تَضِيقُ بِهِ مِثْلُ هَذِهِ الدرَاسَةِ؛ إِلَّا أَنْ تُضَحِّيَ بِالقِسْمَيْنِ الآخَرَيْنِ؛ وَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ – كَمَا أَشَرْنَا آنِفًا – مِنَ اسْتِخْلَاصِ الْمَلَاحِظِ العَامَّةِ وَالسِّمَاتِ الْمَائِزَةِ لِكُلِّ قِسْمٍ، وَإِنَّ لَنَا لَمَلاحِظَ كَثِيرَةً جِدًّا عَلَى هَذَا الكِتَابِ، وَهَاكَ أَهَمَّهَا:

إِنَّ **<u>الْمَلْحَظَ الأَوَّلَ</u>** عَلَى ذَلِكَ الكِتَابِ هُوَ صِلَتُهُ بِأَوَّلِ دِرَاسَةٍ كَتَبَهَا **د. حَمَاسَةُ**، وَهِيَ دِرَاسَةُ الْمَاجِستِيرِ التِي طَبعَهَا بِعُنْوَانِ (لُغَةُ الشِّعْرِ: دِرَاسَةٌ فِي الضَّرُورَةِ الشِّعْرِيَّةِ)؛ حَيْثُ نَلْحَظُ أَنَّ بِذْرَةَ هَذَا الكِتَابِ قَدْ نَبتَتْ مَعَ تِلْكَ الدرَاسَةِ الأُولَى؛ فَقَدْ أَجْرَى **د. حَمَاسَةُ** دِرَاسَةً عَلَى دِيوَانِ (عُمْرٌ مِنَ الحبِّ) لِلشَّاعِرِ **صَلَاح عَبدِ الصَّبُور**، وَهَذَا الدِّيوَان قَصَائِدُ مُختَارَةٌ مِنَ دَوَاوِينِهِ الأُخْرَى (أَقُولُ لَكُم – النَّاسُ فِي بِلَادِي)، وَقَدْ وَجَدَ فِي ذَلِكَ الدِّيوَانِ اثْنَتَي عَشْرَةَ ظَاهِرَةً مِنَ الظَوَاهِرِ التِي سَمَّاهَا القدَمَاءُ (ضَرُورَةً شِعْرِيَّةً)، وَرَصَدَ هَذِهِ الظَّوَاهِرَ، مُستَدِلًّا

(١) صَدَرَتْ هَذِهِ الطبعَةُ عَنْ دَار غريب للطباعة والنشر والتوزيع عام ٢٠٠١م، بَلْ هُناكَ طَبعَةٌ أَسْبَقُ بِالعُنوَانِ ذَاتِهِ (**ظَوَاهِرُ نَحويَّةٌ فِي الشعْرِ الْحُرِّ: دِرَاسَةٌ نَصيَّةٌ فِي شِعْرِ صَلاح عَبدِ الصبُور**) صَدَرَتْ عَنْ مَكتبَةِ الخانْجِي عَامَ ١٩٩٠م.

لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا بِنمُوذَجٍ أَوْ أَكْثَرَ دُونَما تَحْلِيلٍ أَوْ تَأْوِيلٍ لِهَذِهِ النمَاذِجِ، فَلَمْ يَكُنِ التأْوِيلُ غَايتَهُ وَقْتَئِذٍ، وَإِنَّمَا كَانَتْ غَايَتُهُ أَنْ يُؤَكِّدَ أَنَّ ما سَمَّاهُ النحَاةُ والنُّقَّادُ القدمَاءُ مَحْظُورَاتٍ مَا زَالَ يَتجَدَّدُ فِي الشِّعْرِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا، وَأَنَّ الشِّعْرَ الْحُرَّ الَّذِي تَخَلَّصَ مِنْ إِسَارِ القَافِيَةِ بِالْمَفْهُومِ القَدِيمِ، وَتَحَرَّرَ مِنْ قُيُودِ الوَزْنِ التقْلِيدِيِّ، وَاعتَمَدَ عَلَى التفْعِيلَةِ وَحْدَةً لِلإِيقَاعِ الموسِيقِيِّ لَا عَلَى البَيْتِ، وَأَصْبَحَ البيْتُ فِيهِ مُرتَبِطًا بِالدَّفْقَةِ الشُّعُورِيَّةِ لَا بِعَدَدٍ مُعيَّنٍ مِنَ التفْعِيلَاتِ. هَذَا اللَّوْنُ الْجَدِيدُ مِنَ الشِّعْرِ تُوجَدُ فِيهِ هَذِهِ الظَّوَاهِرُ(١).

وَمُؤَدَّى ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الكِتَابَ يُمَثِّلُ إِضْمَامَةً أَوْ مُلْحَقًا لِكتَابِهِ (لُغةُ الشِّعْرِ: دِرَاسَةٌ فِي الضَّرُورَةِ الشِّعْرِيَّةِ)، حَيْثُ يُؤَكِّدُ **د. حَمَاسَةُ** بِهَذَا الكِتَابِ أَنَّ هَذِهِ الظّوَاهِرَ الَّتِي خَالَفَ فِيهَا الشُّعَرَاءُ قَوَاعِدَ اللغَةِ هِيَ (لُغَةُ الشِّعْرِ) كَمَا سَمَّاهَا **سِيبوَيْهِ** – وَقَدْ أَخَذَ **د. حَمَاسَةُ** عُنوَانَ كِتَابِهِ مِنهُ – وَلَيْسَتْ (ضَرُورةً) كَمَا سَمَّاهَا النحَاةُ قَدِيمًا، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الظَّوَاهِرَ لَيسَتْ وَقْفًا عَلَى صَلَاح عَبدِ الصبُورِ وَحْدَهُ، وَلَكِنَّهَا شَائِعَةٌ فِي مُعظَمِ مَا يُكتَبُ مِنَ الشِّعْرِ الْحُرِّ(٢)، وَإِذَا كَانَ **د. حَمَاسَةُ** فِي دِرَاسَتِهِ الأُولَى قَدِ اكتَفَى بِهَذَا الدِّيوَانِ الَّذِي ضَمَّ قَصَائِدَ مُختَارَةً مِنْ شِعْرِ صَلَاحِ عَبدِ الصبُورِ، وَكَانَتْ غَايتُهُ التمْثِيلَ لِلظَّوَاهِرِ فَحَسْبُ؛ فَإِنَّهُ قَدْ تَوَسَّعَ فِي هَذَا الكِتَابِ، فَدَرَسَ هَذِهِ الظوَاهِرَ فِي شِعْرِ صَلَاحِ عَبْدِ الصبُورِ كُلِّهِ، وَلَمْ يَكتَفِ بِالتمْثِيلِ، وَلَكِنَّهُ حَرَصَ عَلَى قِرَاءَةِ كُلِّ ظَاهِرَةٍ وَتَأْوِيلِهَا، بَلْ إِنَّهُ رُبَّمَا أَحْصَى نَمَاذِجَ مُخْتَلِفَةً لِلظَّاهِرَةِ، وَتَوَقَّفَ أَمَامَ كُلِّ نَمُوذَجٍ مُفَسِّرًا وَمُعَلِّلًا وَمُؤَوِّلًا.

بَلْ إِنَّ **د. حَمَاسَةَ** يَتَّخِذُ وُرُودَ هَذِهِ الظوَاهِرِ فِي شِعْرِ صَلَاحِ عِبدِ الصَّبُورِ – وَهُوَ مِنْ رَادَةِ شِعْرِ التفْعِيلَةِ – تُكَأَةً إِلَى اسْتِدْلَالٍ غَالِطٍ يَحتَاجُ إِلَى

(١) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **لغة الشعر: دراسة فِي الضرورة الشعرية:** ص ٣٦٥، وما بعدها.

(٢) انظر السابق: ص ٣٦٨.

تَصْحِيحِ؛ عَنَيْتُ قولَهُ: "**وَلَعَلَّ وُجُودَ الظَّوَاهِرِ اللغَوِيَّةِ التِي سُمِّيَتْ قَدِيمًا ضَرُورَةً شِعْرِيَّةً دَلِيلٌ عَلَى التِزَامِ الشِّعْرِ الْحُرِّ بِهَذِهِ القَوَاعِدِ العَرُوضِيَّةِ التِي أَوْجَدَتْ هَذِهِ الظَّوَاهِرَ اللغَوِيَّةَ فِي سَلَفِه مِنَ الشِّعْرِ القَدِيمِ**"(١).

وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ غَالِطٌ لِأَسْبَابٍ: **أَوَّلُهَا**– أَنَّ قَوَاعِدَ العَروضِ التِي أَنْتَجَتْ هَذِهِ الظَّوَاهِرَ كَانَتْ لَهَا صُورَةٌ خَاصَّةٌ أَوْ أَرْكَانٌ مُحَدَّدَةٌ، يُمْكِنُ إِيجَازُهَا فِي ثلاثَةٍ: بَحْرِ القَصِيدَةِ (أَوْ وَزْنِهَا)، وَعَدَدِ التفْعِيلَاتِ، ثُمَّ القَافِيَةِ الْمُوَحَّدَةِ، أَمَّا الشِّعْرُ الْحُرُّ فَلَمْ يَلْتَزِمْ مِنْ هَذِهِ الأَرْكَانِ إِلَّا بِالتَّفْعِيلةِ فَقَطْ؛ وَلِذَا سَمَّاهُ بَعضُ النقَّادِ (شِّعْرَ التَّفْعِيلةِ)(٢)، أَمَّا عَدَدُ التفْعِيلَاتِ، وَالقَافِيَةِ الْمُوَحَّدَةِ فَقَدْ تَخَلَّصَ مِنْهُمَا الشِّعْرُ الْحُرُّ، وَمِنْ ثَمَّ فَالقَوْلُ بِأَنَّ: الشِّعرَ الْحُرَّ قَدِ الْتَزَمَ بِالقوَاعِدِ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية**: ص ٣٠.

(٢) وَقَدْ كانَ **د. حَمَاسَـةُ** نَفْسُـهُ مِمَّـنْ آثَـرُوا مُصـطَلَحَ «شِـعْرِ التفْعِيلـةِ»؛ لأَنَّـهُ مصـطلَحٌ عَرُوضِـيٌّ بَحْتٌ، وَلِذَلِكَ يُسَمِّي الشِّعْرَ القديمَ «شِـعْرَ البَيْتِ»، يَقُولُ **د. حَمَاسَـةُ**: «وَإِذَا أَرَدْنَا تَسْمِيَةً دَقِيقَةً لِلشِّعْرِ الْحُرِّ؛ فَإِنَّـهُ يُمْكِنُنَا أَنْ نَخْتَارَ التَّسمِيَةَ التِي تُسَمِّيهِ «شِـعْرَ التفْعِيلـةِ»، فَهَـذِهِ التسْمِيَةُ قَـدْ تَكُـونُ قَرِيبَـةً جِـدًّا مِـنَ الصـوَابِ لِأَنَّهَـا تَصِـفُ نِظَامَـهُ العَرُوضِـيَّ وَصْفًا فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الدِّقَّةِ، وَذَلِكَ لأَنَّ تَسْمِيتَهُ بِالشِّعْرِ الْحُرِّ قَدْ أَسْـهَمَتْ فِي جَعْلِ بَعْضِ النَّاسِ يَظُنُّونَ أَنَّـهُ انْفَلَتَ مِنْ كُلِّ نِظَامٍ. وَفِي مُقَابِلِ هَذَا يُمكِنُ أَنْ يُطْلَقَ عَلَـى الشِّـعْرِ القَدِيمِ «شِـعْرُ البَيْـتِ» فَكَمَـا أَنَّ القَصِـيدَةَ الْحُـرَّةَ تَعتَمِـدُ عَلَـى «التفْعِيلـةِ» وَحْدَةً لِلقِيَاسِ، تَعتَمِدُ القَصِيدَةُ القَدِيمَةُ عَلَى البَيْتِ وَحْدَةً لِلقِيَاسِ أَيْضًا، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ بَيْتٍ فِي القَصِيدَةِ القَدِيمَةِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مُتَسَاوِيًا مَعَ الأَبْيَاتِ الأُخْرَى»، د. مُحمَّد حَماسَة عَبد اللطيفِ: **البِنَاءُ العروضي للقَصيدَةِ العربية**، ط١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٤٨.. عَلَى أَنَّ **د. حَمَاسَـةُ** قَدْ تَخَلَّى عَنِ هَذَا المصْطَلَحِ الذِي آثَرَهُ وَسَوَّغَهُ (شِـعْرُ التفْعِيلـةِ)، وَاسْتَخْدَمَ مُصْطَلَحَ (الشِّعْرُ الْحُرُّ) فِي دِرَاسَتِهِ هَذِي، حَتَّى اضْطَرَّنَا إِلَى مُجَارَاتِهِ فِي هَذَا الاسْتِخْدَامِ، وَإِنْ كُنَّا نُؤْثِرُ مُصطلَحَ (شِـعْرِ التفْعِيلَـةِ)، وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ مُصطَلَحَ (الشِّعْرِ الْحُرِّ) قَدْ فَرَضَ نَفْسَهُ عَلَى الخِطَابِ النَّقْدِيِّ، وَلَا مُشَاحَّةَ فِي الاصْطِلَاحِ.

العَروضِيَّةِ التِي أَوْجَدَتْ هَذِهِ الظَّوَاهِرَ اللُّغَوِيَّةَ فِي سَلَفِهِ مِنَ الشِّعْرِ القَدِيمِ– قَوْلٌ غَيْرُ دَقِيقٍ، بَلْ غَيْرُ صَحِيحٍ.

وَ**ثَانِيهَا** – أَنَّ الشِّعْرَ الْحُرَّ وَفْقًا لِلسَّبَبِ الآنِفِ يُمَثِّلُ انْحِرَافًا عَنِ الشِّعْرِ الْمَوْرُوثِ، وَلَا يَصِحُّ اتِّخَاذُ الانْحِرَافِ دَلِيلًا عَلَى الْتِزَامٍ، وَكَانَ أَوْلَى بِالدُّكتُورِ **حَمَاسَةَ** أَنْ يَعْجَبَ لِوُجُودِ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ فِي الشِّعْرِ الْحُرِّ، وَقَدْ تَخَلَّصَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ قَوَاعِدِ الشِّعْرِ البَيْتِيِّ، لَا أَنْ يَتَّخِذَ وُجُودَ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ دَلِيلًا عَلَى الالْتِزَامِ بِقَوَاعِدِ الشِّعْرِ البَيْتِيِّ.

وَثَالِثُهَا– أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** نَفْسَهُ قَدْ نَقَضَ هَذَا الاسْتِدْلَالَ فِي مُعالَجَتِهِ بَعْضَ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ المخَالِفَةِ لِقَوَاعِدِ النحْوِ وَالصَّرْفِ، وَتَحْدِيدًا فِي تَنَاوُلِهِ الظَّاهِرَةَ الأُولَى (الوَقْفُ عَلَى الاسْمِ الْمَنْصُوبِ الْمُنَوَّنِ بِالسُّكُونِ، وَذَلِكَ إِذْ يَقُولُ: "وَالوُقُوفُ عَلَى الْمُنَوَّنِ الْمَنْصُوبِ بِالسُّكُونِ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي آخِرِ البيْتِ، وَآخِرُ البَيْتِ هُوَ مَحَطُّ القَافِيَةِ. **وَقَدْ تَحَرَّرَ الشِّعْرُ الْحُرُّ مِنَ الالتِزَامِ بِالقَافِيَةِ**، وَمَعَ ذَلِكَ نَجِدُ الوُقُوفَ عَلَى الْمُنَوَّنِ الْمَنْصُوبِ يَخْدمُ عِدَّةَ أَغْرَاضٍ تَتعَلَّقُ بِالقَافِيَةِ، يُلْجَأُ إِلَيْهِ مِنْ أَجْلِ تَوَافُقِ القَوَافِي، كَمَا يَقُولُ فِي قَصِيدَةِ (أَحْلَامُ الفَارِسِ القدِيمِ):

قَدْ كُنْتُ فِيمَا فَاتَ مِنْ أَيَّامْ

يَا فِتْنَتِي مُحَارِبًا صُلْبًا وَفَارِسًا هُمَامْ

مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدُوسَ فِي فُؤَادِيَ الأَقْدَامْ

فَآثَرَ تَوَحُّدَ القَافِيَةِ فَسَكَّنَ كَلِمَةَ (هُمَام) حَتَّى تَتَوَافَقَ مَع مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا"[(١)].

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ٥٤

وَيَكْمُنُ التنَاقُضُ فِيمَا وُضِعَ تَحْتَهُ خَطٌّ مِنْ كَلَامِ **د. حَمَاسَة** فَلَا نَدْرِي أَتَحَرَّرَ الشِّعْرُ الْحُرُّ مِنَ القَافِيَةِ أَمِ التَزَمَ بِقَوَاعِدِ العَرُوضِ القَدِيمِ وَالقَافِيَةُ إِحْدَاهَا؟!

وَقَدْ يُنْكِرُ عَلَيَّ قَارِئِي قَولِيَ الآنِفَ، وَيَتَّهِمُنِي بِأَنَّنِي أَخْطَأْتُ فَهْمَ كَلَامِ **د. حَمَاسَةَ**؛ حَيْثُ التَزَمَ الشَّاعِرُ بِالقَافِيَةِ حَقًّا، وَوَقَفَ عَلَى المنَوَّنِ المنصُوبِ وَسَكَّنَهُ مِنْ أَجْلِ القَافِيَةِ، وَهَذَا حَقٌّ، لَكِنَّهُ يَعْنِي أَنَّ الشَّاعِرَ اضْطُرَّ إِلَى تَسكِينِ المنصُوبِ لِتتَوَحَّدَ القَافِيةُ، وَذَلِكَ يَتَنَاقَضُ مَعَ مَا انْتَهَى إِلَيهِ **د. حَمَاسَةُ** نَفْسُهُ مِنْ رَفْضِ مَفْهُومِ الضَّرُورَةِ الشِّعْرِيَّةِ فِي دِرَاسَتِهِ الأُولَى (لُغةُ الشِّعْرِ: دِرَاسَةٌ فِي الضَّرُورَةِ الشِّعْرِيَّةِ)، وَقَدْ أَشَرْتُ إِلَى ذَلِكَ فِي بَحْثِيَ السَّابِقِ[1].

وَزِدْ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** نَفْسَهُ قَدِ اسْتَدَلَّ بِمِثَالٍ آخَرَ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ دُونَ قَافِيَةٍ تَسْتَدْعِيهَا، فَقَالَ: "وَقَدْ يَسْتَخْدِمُ (أَي الشَّاعِرُ) الوَقْفَ عَلَى المنصُوبِ المنَوَّنِ بِالسُكُونِ حَيْثُ لَا قَافِيَةَ تَستَدْعِيهِ مُطْلَقًا، وَحَيْثُ كَانَ مِنَ الممْكِنِ لَهُ أَنْ يَتَجَاوَزَهُ إِلَى تَرْكِيبٍ آخَرَ لَا يَكُونُ مَعَهُ مُرتَكِبًا لِهَذِهِ المخَالَفَةِ اللغَوِيَّةِ، يَقُولُ فِي قَصِيدَةِ (سَأَقْتُلُكَ)":

الشَّمسُ فِي بِلَادِ الشَّمْسِ بَهجَة النظَرْ/ وَفَوْقَ مِعْطَف السَّحَابِ يَدْرُجُ القَمَرْ/ وَتَزْدَهِي النجُومُ كَالزَّهَرْ/ وَفِي بِلَادِ الشَّمْسِ تُورِقُ الْحَيَاه/سَنَابِلًا ذَهَبْ/ وَالشَّمْسُ وَاللُّجَيْنُ فِي صَبَا الأَصِيلِ يَنْسَحِبَانْ/ مَطَارِفًا مَا حَازَهَا فِي وَهْمِهِ فَنَّان.

فَلَيْسَ فِي هَذَا الْمَقْطَعِ قَافِيَةٌ بَائِيَّةٌ تَتَوَافَقُ مَعَ (**سَنَابِلًا ذَهَبْ**) وَكَانَ بِوُسْعِهِ أَنْ يَقُولَ (سَنَابِلَ الذَّهَبْ)، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ كَانَتْ تَتَوَافَقُ مِنْ حَيْثُ الصِّيغَةُ مَعَ (النظَرِ) وَ(القَمَرِ) وَ(الزَّهَرِ)، وَتُعْفِيهِ كَذَلِكَ مِنْ صَرْفِ الممْنُوعِ

(١) انظُرْ بَحثِيَ السَّابِقَ: (**أُصولُ التحْليلِ النصيِّ – قِرَاءةٌ فِي مُنجَزِ د. محمَّد حماسَة عَبدِ اللطِيفِ**)، ص ١٧٤٦.

مِنَ الصَّرْفِ (سَنَابِلًا). وَلَكِنَّ التبَعِيَّةَ بِالطَّبْعِ تَخْتَلِفُ هُنَا دِلَالِيًّا عَنِ الإِضَافَةِ؛ لِأَنَّ الإِضَافةَ تَجْعَلُ الْحَدِيثَ مُنْصَبًّا عَلَى الذَّهَبِ وَتَجْعَلُهُ سَنَابِلَ، أَمَّا التبَعِيَّةُ فَإِنَّهَا تَجْعَلُ الحدِيثَ مُنصَبًّا عَلَى السَّنَابِلِ وَتُلَوِّنُهَا بِلَوْنِ الذَّهَبِ فَتتَوَافَقُ مَعَ بِلَادِ الشَّمْسِ وَإِيرَاقِ الحيَاةِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ (تُورِقُ الحيَاةُ + السَّنَابِل)، (بِلَاد الشَّمْسِ + ذَهَبْ)"[١].

وَلَا رَيْبَ أَنَّ تَفْسِيرَ **د. حَمَاسَةَ** إِيثَارَ الشَّاعِرِ التبَعِيَّةَ عَلَى الإِضَافَةِ تَفْسِيرٌ عَسِيٌّ بِالتقْدِيرِ وَالإِعْجَابِ، لَكِنَّهُ يُؤَكِّدُ تَنَاقُضَ **د. حَمَاسَةَ**؛ إِذْ يُوحِي بِأَنَّ الشَّاعِرَ آثَرَ هَذِهِ المخَالَفَةَ لِغَايَةٍ دِلَالِيَّةٍ، وَلَيْسَ التِزَامًا بِالقَوَاعِدِ العَرُوضِيَّةِ التِي أَوْجَدَتْ هَذِهِ الظوَاهِرَ اللُّغَوِيَّةَ فِي سَلَفِهِ مِنَ الشِّعْرِ القَدِيمِ، كَمَا قَالَ **د. حَمَاسَةُ** مِنْ قَبْلُ، وَرُبَّمَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى اضْطِرَابِ الرُّؤْيَةِ لَدَى النَّاقِدِ، وَأَنَّهُ وَاقِعٌ فِي التنَاقُضِ لَا مَحَالَةَ حِينَ يَرُدُّ الظَّوَاهِرَ النَّحْوِيَّةِ إِلَى سَبَبٍ غَيْرِ دَقِيقٍ، بَلْ غَيْرِ صَحِيحٍ؛ وَمِنْ ثَمَّ يَستَقِيمُ تَفْسِيرُهُ لِلظَّوَاهِرِ مَرَّةً، وَيَخْتَلُّ مَرَّاتٍ؛ وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّهُ يُعَلِّلُ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ (الوقُوفُ عَلَى المنصُوبِ المعَرَّفِ بِإِطْلَاقِ حَرَكَتِهِ) بِأَنَّهُ أَتَى لِضَبْطِ الوَزْنِ، فَيَقُولُ: "وَمِنَ النوْعِ الثَّانِي – وَهُوَ مَا يَأْتِي لِضَبْطِ الوَزْنِ – قَولُهُ فِي قَصِيدَةِ (مُذَكِّرَاتُ رَجُلٍ مَجْهُولٍ):

..../ هَلْ أَغْمِسُ عَيْنِي فِي قَمَرِ اللَّيْلِ/ أَمْ أَقْتَاتُ الأَعْشَابَ الْمُرَّةَ وَالوَرَقَا/ أَمْ أَفْتَحُ بَابِي لِلْأَشْبَاحِ/ وَأَدْعُوهَا، وَأُطَاعِمُهَا/ وَأُقَدِّمُهَا لِلْأَلْوَاحِ الممْدُودَةِ حَوْلَ خِوَانِي

فَكَلِمَةُ (الْوَرَقَا) لَا تُجَاوِبُهَا قَافِيَةٌ أُخْرَى **قَافِيَّةٌ** فِي القَصِيدَةِ وَتَقِفُ وَحْدَهَا بِهَذَا التَّفَرُّدِ. وَمِنَ الْمُلَاحَظِ أَنَّ الوَزْنَ يَقْتَضِيهَا عَلَى هَذَا النَّحْوِ الَّذِي وَرَدَتْ بِهِ"[٢].

---

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ٥٥، ٥٦.

(٢) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ٥٨.

وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى التنَاقُضِ مِنْ تَوَحُّدِ الظَّاهِرَةِ، وَاخْتِلَافِ تَعْلِيلَاتِهَا وَتَأْوِيلَاتِهَا، وَلَقَدْ كُنَّا نَقْبَلُ تَنَوُّعَ التَّأْوِيلَاتِ لَوْ كَانَتْ تَأْوِيلَاتٍ جَمَالِيَّةً أَوْ فَنِّيَّةً لِلظَّاهِرَةِ اللغَوِيَّةِ؛ لَكِنَّ **د. حَمَاسَةَ** يُعَلِّلُهَا تَعْلِيلًا عَامًّا مَرَّةً، فَيَقُولُ بِأَنَّهَا دَلِيلٌ عَلَى التِزَامِ الشِّعْرِ الْحُرِّ بِقَوَاعِدِ العَرُوضِ، وَيُعَلِّلُهَا أُخْرَى تَعْلِيلًا جَمَالِيًّا، وَيُعَلِّلُهَا ثَالِثَةً بِأَنَّ الوَزْنَ يَقْتَضِيهَا؛ أَيْ أَنَّهَا ضَرُورَةٌ شِعْرِيَّةٌ (كَمَا قَالَ القُدَمَاءُ)، وَ**د. حَمَاسَةُ** لَا يُوَافِقُ القُدَمَاءَ فِي القَوْلِ بِالضَّرُورَةِ.

وَقَدْ يُوقِعُ **د. حَمَاسَةَ** حِرْصُهُ عَلَى تَأْوِيلِ الظَّوَاهِرِ تَأْوِيلاً دِلَالِيًّا لِيَنْجُوَ مِنَ القَوْلِ بِأَنَّ الشَّاعِرَ اضْطُرَّ؛ قَدْ يُوقِعُهُ ذَلِكَ فِي خَطَأٍ نَحْوِيٍّ ظَاهِرٍ، ومثال ذَلِكَ تَعلِيلُهُ الظَّاهِرَةَ الثَّانِيَةَ فِي شِعْرِ صَلَاح عَبْدِ الصَّبُورِ (صَرْفُ الممْنُوعِ مِنَ الصَّرْفِ)؛ حَيْثُ يَقُولُ: "وَيُلَاحَظُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَسْمَاءِ التِي وَرَدَتْ مَصْرُوفَةً وَكَانَ حَقُّهَا مَنْعَ الصَّرْفِ فِي شِعْرِ صَلَاح عَبْدِ الصَّبُورِ تَكْتَسِبُ تَنكِيرًا مِنْ خِلَالِ تَنْوِينِهَا، وَيُمْكِنُ القَوْلُ بِأَنَّهُ تَنْكِيرٌ سِيَاقِيٌّ، فَعِنْدَمَا يَقُولُ: **وَجَرَّ آخَرٌ صَلِيبَهُ وَوَجْهُهُ يَفُورُ بِالزَّبَدْ** ... أَوْ عِنْدَمَا يَقُولُ: **هَلْ عُدْتُ خَبِيئًا فِي بَسْمَةِ حَسْنَاءٍ مَلْسَاءْ**... يُحِسُّ القَارِئُ أَنَّ تَنكِيرَ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَاتِ – بِرُغْمِ أَنَّهَا نَكِرَاتٌ أَصْلًا – قَدِ ازْدَادَ بِسَبَبِ التنْوِينِ. وَالْمبَالَغَةُ فِي تَنكِيرِ هَذِهِ الكَلِمَات فِي سِيَاقِهَا يَخْدمُ الغَرَضَ الَّذِي جَاءَتْ فِيهِ هَذِهِ الكَلِمَةُ أَوْ تِلْكَ"(١).

فَعَجِيبٌ أَنْ يَقُولَ نَحْوِيٌّ بِحَجْمِ **د. حَمَاسَةَ** بِأَنَّ صَرْفَ الممْنُوعِ يُكْسِبُهُ تَنْكِيرًا حِينَ يُنَوَّنُ، وَلَا سِيَّمَا أَنَّهُ يَتَحدَّثُ عَنْ صِفَاتٍ مَمنُوعَةٍ مِنَ الصَّرْفِ وَلَا يَتحَدَّثُ عَنْ أَعْلَامٍ، وَهَلْ كَانَت تِلْكَ الصِّفَاتُ مَعْرِفَةً قَبْلَ أَنْ تُنَوَّنَ؟، وَمِمَّا يَدُلُّكَ عَلَى خَطَأِ **د. حَمَاسَةَ** قَوْلُهُ: "يُحِسُّ القَارِئُ أَنَّ تَنْكِيرَ كُلِّ كَلِمَةٍ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَاتِ – بِرُغْمِ أَنَّهَا نَكِرَاتٌ أَصْلًا – قَدِ ازْدَادَ بِسَبَبِ التنْوِينِ"؛ فَهَذَا كَلَامٌ

(١) السابق: ص ٦٠.

يُدَابِرُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ الكَلِمَاتُ نَكِرَاتٍ أَصْلًا، كَمَا أَكَّدَ **د. حَمَاسَةُ** ذَلِكَ بِالجمْلةِ الاعْتِرَاضِيَّةِ فَكيْفَ يَزْدَادُ تَنْكِيرُهَا بِسَبَبِ التنْوِينِ؟!

نَاهِيكَ بِأَنَّ **د. حَمَاسَةَ** يَقُولُ بِأَنَّ المبَالَغَةَ فِي تَنكِيرِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ فِي سِيَاقِهَا يَخْدمُ الغَرَضَ الَّذِي جَاءَتْ فِيهِ هَذِهِ الكَلِمَةُ أَوْ تِلْكَ، وَهَذَا تَعلِيلٌ شَاحِبٌ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ؛ لأَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى غَرَضٍ لَهَا وَلَا يُجَلِّيهِ، أَوْ يُوقِفُ قَارِئَهُ عَلَيهِ!، وَهَذَا مَا يُنتَظَرُ مِنْهُ (بَلْ مِنْ كُلِّ نَاقِدٍ يُقَارِبُ نَصًّا)؛ حَتَّى لَا يَتْرُكَ قَارِئَهُ حَائِرًا يَبحَثُ عَنْ غَرَضِ صَرْفِ الممْنُوعِ فِي هَذِهِ الظَّوَاهِرِ فَلَا يَجِدُهُ.

وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ أَنَّ حِرْصَ **د. حَمَاسَةَ** عَلَى تَجنُّبِ القَوْلِ بِأَنَّ الشَّاعِرَ اضْطُرَّ هُوَ مَا أَوْقَعَهُ فِي مِثْلِ هَذَا الْخَطَأِ، لَكِنَّهُ لَمْ يَستَطِعْ ذَلِكَ التَّجَنُّبَ دَائِمًا؛ فَقَدِ اضْطُرَّ إِلَى رَدِّ كَثِيرٍ مِنَ الظَّوَاهِرِ عِنْدَ الشَّاعِرِ إِلَى الوَزْنِ؛ وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ حِينَما نَعْلَمُ أَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ مَنَعَ المصْرُوفَ مِثلَما صَرَفَ الممْنُوعَ، حَيْثُ كَانَتْ ظَاهِرَةُ (مَنْعِ الاسْمِ المصْرُوفِ مِنَ الصَّرْفِ) الظَّاهِرَةَ الثَّالِثَةَ[١] التِي تَوَقَّفَ أَمَامَهَا **د. حَمَاسَةُ** فِي شِعْرِ صَلَاحِ عَبْدِ الصَّبُورِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُقَدِّمَ لَهَا تَفْسِيرًا دِلَالِيًّا أَوْ جَمَالِيًّا، وَقُصَارَى مَا فَعَلَهُ أَنْ أَشَارَ إِلَى وُجُودِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ فِي شِعْرِنَا القَدِيمِ، وَاخْتِلَافِ النحَاةِ حَوْلَهَا. ثُمَّ أَشَارَ إِلَى وُرُودِهَا مَرَّتَيْنِ فَحَسْبُ فِي شِعْرِ صَلَاح عَبْدِ الصَّبُورِ، **أُولَاهُمَا**– قَوْلُهُ: **وَأَبُو تَمَّامَ الْجِدّ حَزِينٌ لَا يَتَرَنَّم**، و**الأُخْرَى** فِي قَوْلِهِ: **سِنِينَ طِوَالَ فِي بَطْنِ اللَّجَاجِ وَظُلْمَةِ المنْطِقِ**[٢].

وَمَعلُومٌ أَنَّ مَنْعَ المصْرُوفِ يَعْنِي حِرْمَانَهُ مِنَ التنْوِينِ، فَهَلْ يَعنِي ذَلِكَ إِكْسَابَ الكَلِمَةِ مَزِيدًا مِنَ التعْرِيفِ، مِثْلَما أَكْسَبَهَا التنْوِينُ مُبَالَغَةً فِي التنْكِيرِ؟. ذَلِكَ مَا كُنَّا نَنتَظِرُ أَنْ يَقُولَهُ **د. حَمَاسَةُ** بِمَفْهُومِ المخَالَفَةِ، بَعْدَمَا صَرَّحَ بِأَنَّ

(١) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ٦١.

(٢) انظر السابق: الصفحة ذاتها.

هَذِهِ الظَّاهِرَةَ مُعَاكِسَةٌ لِلظَّاهِرَةِ السَّابِقَةِ[١] لَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ، وَرَاحَ يُفَسِّرُ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ تَفْسِيرًا آخَرَ فَقَالَ: "وَإِذَا أَمْكَنَ حَذْفُ التنْوِينِ فِي البيْتِ الأَوَّلِ (**وَأَبُو تَمَّامَ الْجِدّ...**) بِأَنَّهُ قَدْ سَوَّغَهُ التِقَاءُ السَّاكِنَيْنِ، وَلِذَلِكَ يَقُولُ بَعْضُ النحْوِيينَ: (إِنَّ حَذْفَ التنْوِينِ لِالتِقَاءِ السَّاكِنيْنِ جَائِزٌ فِي الكَلَامِ وَفِي الشِّعْرِ)، وَيَرَى لِهَذَا أَنَّ حَذْفَ التنْوِينِ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي ضَرُورَةِ الشِّعْرِ؛ فَإِنَّ البَيْتَ الثَّانِيَ لَيْسَ لِحَذْفِ التنْوِينِ فِي كَلِمَةِ (طِوَال) فِيهِ مُسَوِّغٌ إِلَّا الوَزْنَ فَلَيْسَ لِكَلِمَةِ (طِوَال) مَا لِلْأَعْلَامِ، فَالْأَعْلَامُ الْمَصْرُوفَةُ قَدْ تُمْنَعُ مِنَ الصَّرْفِ فِي الشِّعْرِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا... أَمَّا كَلِمَةُ (طِوَال) فَلَيْسَتْ عَلَمًا، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ استَخْدَمَهَا هَكَذَا، وَمَعَ ذَلِكَ أَرَى أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ تَحَرُّجٌ عَنْ وَصْفِ مَا يَأْتِي بِهِ الشَّاعِرُ بِالْخَطَأِ، وَخَاصَّةً إِذَا كَانَ شَاعِرًا مُتَمَيِّزًا"[٢].

ذَلِكَ تَفْسِيرُ **د. حَمَاسَةَ** لِلبَيْتَيْنِ، فَأَمَّا كَلَامُهُ عَنِ البيْتِ الأَوَّلِ فَغَرِيبٌ أَنْ يَقُولَهُ نَحْوِيٌّ مِثْلُهُ؛ ذَلِكَ أَنَّ حَذْفَ التنْوِينِ لِالتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ لَا يَعْنِي بِالضَّرُورَةِ صَرْفَ الممْنُوعِ مِنَ الصَّرْفِ، وَأَمَّا كَلَامُهُ عَنِ البيْتِ الثَّانِي فَقَدْ أَوْقَعَهُ فِي التنَاقُضِ كَذَلِكَ؛ لأَنَّ تَعْلِيلَهُ حَذْفَ التنْوِينِ فِي كَلِمَةِ (طِوَال) بِأَنَّه لَيْسَ لَهُ مُسَوِّغٌ إِلَّا الوَزْنَ؛ لَا يَعْنِي سِوَى القَوْلِ بِالضَّرُورَةِ، وَذَلِكَ مَا يَسْعَى **د. حَمَاسَةُ** لِإِبْطَالِهِ.

وَرُغْمَ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** لَمْ يَجِدْ تَأْوِيلًا مُقْنِعًا لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ فَقَدْ أَصَرَّ عَلَى تَجَنُّبِ القَوْلِ بِالضَّرُورَةِ، وَأَصَرَّ كَذَلِكَ عَلَى تَبْرِئَةِ شَاعِرِهِ مِنَ الخطَأِ؛ وَتَحَرَّجَ مِنْ ذَلِكَ لِأَنَّهُ يَرَاهُ مُتَمَيِّزًا؛ وَلَيْتَ شِعْرِي أَتَمَيُّزُ الشَّاعِرِ يَعْصِمُهُ مِنَ الخطَأِ؟ فَإِنَّ أَسْلَافَنَا لَمْ يَجِدُوا ذَلِكَ الحرَجَ فِي تَخْطِئَةِ الشُّعَرَاءِ إِذَا أَخْطَأُوا، وَقَدْ جَمَعَ **المرْزُبَانِيُّ** كَثِيرًا مِنْ مَآخِذِ العُلَمَاءِ عَلَى الشُّعرَاءِ فِي كِتَابِهِ (الموَشَّحُ)، فَمَا

(١) انظر السابق: الصفحة ذاتها.

(٢) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ٦١، ٦٢.

يَضِيرُنَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الشَّاعِرَ قَدْ أَخْطَأَ، أَوْ أَنَّهُ عَلَى الأَقَلِّ: اضْطُرَّ، وَذَلِكَ أَهْوَنُ القَوْلَيْنِ؟!

وَ**الْمَلْحَظُ الثَّانِي** حَولَ هَذَا الكِتَابِ هُوَ حِرْصُ **د. حَمَاسَةَ** عَلَى تَأْصِيلِ كُلِّ ظَاهِرَةٍ يَدرُسُهَا، وَالْتِمَاسِ نَمَاذِجَ لَهَا مِنْ شِعْرِنَا العَرَبِيِّ القَدِيمِ، وَقَدْ يَتَوَسَّعُ فَيَذْكُرُ اختِلَافَ النحَاةِ قَدِيمًا حَوْلَ الظَّاهِرَةِ التِي يَدْرُسُهَا، وَقَدْ يَنْقِلُ مِنْ كَلَامِهِم مَا يُؤَيِّدُ قَوْلَهُ، وَيَتَّصِلُ بِذَلِكَ الْمَلْحَظِ حِرْصُ **د. حَمَاسَةَ** عَلَى إِحْصَاءِ الظَاهِرَةِ التِي يَتَنَاوَلُهَا فِي شِعْرِ صَلَاحِ عبدِ الصَّبُورِ، مِمَّا يُوحِي بِدِقَّتِهِ، وَتَأَنِّيهِ فِي قِرَاءَةِ شِعْرِ الشَّاعِرِ.

وَ**الْمَلْحَظُ الثَّالِثُ**: أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** لَا يَكَادُ يَتْرُكُ ظَاهِرَةً مِنْ هَذِهِ الظوَاهِرِ التِي لَحِظَهَا فِي شِعْرِ صَلَاحِ عَبدِ الصَّبُورِ، دُونَ تَأْوِيلٍ، وَسَوَاءٌ أَصَحَّ تَأْوِيلُهِ هَذِهَ الظَّواهِرَ أَمْ لَمْ يَصِحَّ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْحِرْصَ عَلَى التأْوِيلِ أَوْقَعَهُ فِي تَنَاقُضٍ مَعَ مَا أَخَذَهُ عَلَى بَعضِ الاتِّجَاهَاتِ الأُسْلُوبِيَّةِ، فَقَدْ عَابَ **د. حَمَاسَةُ** الأُسْلوبِيَّةَ، فَقَالَ: "**وَقَدْ تَوَجَّهَتْ أَنْوَاعٌ مِنَ الاعتِرَاضِ قَوِيَّةٌ إِلَى النظَرِيَّةِ التِي تَقُومُ عَلَى اعتِبَارِ الأُسلُوبِ اختِيَارًا أَوِ انْحِرَافًا، لأَنَّهَا تَدُورُ فِي إِطَارِ نَظَرِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَمْ تَستَطِعِ الأُسلُوبِيَّةُ القَائِمَةُ عَلَى الاخْتِيَارِ أَوْ الانْحِرَافِ أَنْ تَدْحَضَ الاعتِرَاضَ الأَسَاسِيَّ: لَيْسَ كُلُّ اختِيَارٍ أُسْلُوبًا، وَلَيسَ كُلُّ ارتِفَاعٍ فِي نِسْبَةِ إِخْبَارِ بَلَاغٍ مَا أُسْلُوبًا، وَلَيْسَ كُلُّ انْحِرَافٍ أَوْ عُدُولٍ مَا أُسلُوبًا. وَيَقُولُ جُورج مُونَان: (فَهَذِهِ النظَرِيَّةُ التِي تُبْرِزُ بِلَا شَكٍّ إِحْدَى الخصَائِصِ فِي كُلِّ أُسلُوبٍ لَيْسَتْ – بِرُغْمِ ذَلِكَ – العَصَا السِّحْرِيَّةَ التِي تُمكِّنُنَا مِنْ كَشْفِ أُسْلُوبٍ مِنَ الأَسَالِيبِ، وَقِيَاسِ قِيمَتِهِ الجمَالِيَّةِ قِيَاسًا ثَابِتًا**"[(١)] .

وَهُنَا سُؤَالٌ يَطْرَحُ نَفْسَهُ: أَلَمْ يَقَعْ **د. حَمَاسَةُ** فِيمَا عَابَهُ عَلَى الأُسْلُوبِيَّةِ، فَجَعَل كُلَّ انْحِرَافٍ فِي شِعْرِ صَلَاحِ عَبدِ الصَّبُورِ أُسْلُوبًا، وَمِنْ ثَمَّ رَاحَ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **الإبداع الموازي**، ص ٢٥، ٢٦.

يُسِوِّغُهُ، وَيَلتَمِسُ لَهُ دِلَالَةً تُوحِي بِأُسلوبِيَّةِ ذَلِكَ الانْحِرَافِ، وَسُهْمَتِهِ فِي بِنَاءِ الدِّلَالَةِ الأَدَبِيَّةِ؟!

بَلْ يَذهَبُ **د. حَمَاسَةُ** إِلَى مَا هوَ أَبْعَدَ مِنْ ذَلِكَ حِينَ يَرَى أَنَّ الشَّاعِرَ لَا يَأْتِي انْحِرَافَاتِهِ عَفْوًا أَوْ كَيفَما اتَّفَقَ، وَلَا يُضْطَرُّ إِلَيْهَا – حَاشَاهُ – كَما قَالَ الأَقْدَمُونَ، وَإِنَّمَا يَأْتِيهَا عَامِدًا قَاصِدًا، وَاعِيًا بِمَا يَفْعَلُ، يَقُولُ **د. حَمَاسَةُ:** "وَقَدْ كَانَ هُنَاكَ مَبْدَأٌ جَرَى عَليهِ هَذَا البَحْثُ هُوَ أَنَّ كُلَّ مَا يَرِدُ فِي القَصِيدَةِ مَقْصُودٌ مِنَ الشَّاعِرِ، يَستَعْمِلُهُ لِيُوحِيَ بِهِ إِلَى مَعْنًى يَرْمِي إِلَيْهِ، كَما حَدَّدَ ذَلِكَ سِيبوَيْهِ مِنْ قَدِيمٍ، وَلَا بُدَّ مِنْ رَفْعِ الوِصَايَةِ عَلَى الشُّعرَاءِ الكِبَارِ، تِلْكَ الوِصَايةُ التِي يَفْرِضُهَا مَنْ يَرَوْنَ الصَّوَابَ رَأْيًا وَاحِدًا"(١).

وَهَذَا قَوْلٌ يُؤكِّدُ التنَاقُضَ السَّالِفَ؛ فَمَا دَامَ الشَّاعِرُ يَنحَرِفُ عَنْ قَصْدٍ، وَيُوحِي بِانْحِرَافِهِ إِلَى مَعْنًى يَرْمِي إِلَيْهِ؛ فَلِمَ اعْتَرَضَ **د. حَمَاسَةُ** مَعَ مَنِ اعتَرَضُوا عَلَى **الأُسلُوبِيَّةِ القَائِمَةِ عَلَى الاخْتِيَارِ أَوْ الانْحِرَافِ لِأَنَّهَا لَمْ تَستَطِعْ أَنْ تَدْحَضَ الاعتِرَاضَ الأَسَاسِيَّ: <u>لَيْسَ كُلُّ اختِيَارٍ أُسْلُوبًا، وَلَيسَ كُلُّ ارتِفَاعٍ فِي نِسْبَةِ إِخْبَارِ بَلَاغٍ مَا أُسْلُوبًا، وَلَيْسَ كُلُّ انْحِرَافٍ أَوْ عُدُولٍ مَا أُسلُوبًا</u>؟!**

وَ**<u>المَلْحَظُ الرَّابِع</u>:** أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** قَدْ تَنَاوَلَ فِي هَذَا الكِتَابِ ظَوَاهِرَ وَلَمْ يَتَنَاوَلْ نُصُوصًا، أَوْ قَصَائِدَ، وَقَدْ أَفْضَى بِهِ ذَلِكَ إِلَى تَجْزِئَةِ النصِّ، وَمِنْ ثَمَّ نَاقَضَ مَبْدَأً مُهِمًّا مِنْ مَبَادِئِهِ النظَّرِيَّةِ، أَعْنِي مَبْدَأَ **<u>(كُلِّيَّةِ النَّصِّ وَمَا تَبِعَهُ)</u>**(٢) مِنْ إِيجَابِ التنَاوُلِ الكُلِّيِّ لِلنَّصِّ، وَتَحْرِيمِ تَجْزِئَةِ النصُوصِ، وَحَتْمِيَّةِ الاهتِمَامِ بِكُلِّ عُنصُرٍ مِنْ عَناصِرِ النَّصِّ، وَلْنَتَذَكَّرْ بَعْضَ كَلِمَاتِ **د. حَمَاسَةَ** صَدَدَ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ١٤٢.

(٢) انظُرْ تَفْصِيلًا لِهذَا المبْدَأِ فِي بَحثِيَ السَّابِقَ **(أُصولُ التحْليلِ النصيِّ – قِرَاءةٌ فِي مُنجَزِ د. محمَّد حماسَة عَبدِ اللطِيفِ)**، ص ١٧٠٠، وما بعدها.

ذَلِكَ الْمَبْدَأ: "**لَا بُدَّ مِنَ النظَرِ إِلَى القَصِيدَةِ عَلَى أَنَّهَا نَصٌّ وَاحِدٌ وَبِنْيَةٌ مُتكَامِلَةٌ لَا يُغْنِي جُزْءٌ مِنْهَا عَنْ جُزْءٍ آخَرَ ... وَقَدْ تَبْدُو القَصِيدَةُ فِي بِنْيَتِهَا الظاهِرَةِ جَامِعَةً لِعَدَدٍ مِنَ الصوَرِ لَيسَ بَينَهَا – كَمَا قَدْ يَظْهَرُ – رِبَاطٌ جَامِعٌ، إِلَّا أَنَّهَا جَمِيعًا فِي قَصِيدَةٍ وَاحِدَةٍ ذَاتِ وَزْنٍ وَاحِدٍ وَرَوِيٍّ وَاحِدٍ ... وَلَا يَصِحُّ أَنْ نَبْتُرَ هَذَا العُضْوَ مِنْ جِسْمِهِ لِنَتَنَاوَلَهُ مُنْفَصِلًا؛ فَإِنَّ (اليَدَ) إِذَا بُتِرَتْ مِنْ جِسْمِ صَاحِبِهَا فَإِنَّهَا سَتَظَلُّ تُسَمَّى (يَدًا) وَلَكِنَّهَا لَا تَكُونُ لَهَا وَظِيفَةُ اليَدِ عِندَمَا تَكُونُ فِي الجِسْمِ الْحَيِّ، وَسَوْفَ يَتسَرَّبُ إِلَيْهَا الفَسَادُ بَعْدَ قَلِيلٍ. فَلَا يَصِحُّ – إِذَنْ – تَمْزِيقُ النصِّ أَوْ الاكْتِفَاءُ بِجُزْءٍ مِنْهُ فَهَذَا عَجْزٌ عَنْ مُوَاجَهَةِ النصِّ**"[(١)].

لَكِنَّنَا حِينَ نُرَاجِعُ الظَّوَاهِرَ التِي تَنَاوَلَهَا **د. حَمَاسَةُ** فِي شِعْرِ صَلَاح عَبْدِ الصَّبُورِ، نَجِدُهَا كُلَّهَا ظَوَاهِرَ جُزْئِيَّةً مُقتَطعَةً مِنْ قَصَائِدِهَا، وَنَجِدُ النَّاقِدَ يَتنَاوَلُهَا ضِمْنَ السَّطْرِ الشِّعْرِيِّ، أَوْ حَتَّى ضِمْنَ المقْطَعِ الشِّعْرِيِّ الذِي وَرَدَتْ فِيهِ، وَقَدِ اقْتَضَاهُ ذَلِكَ أَنْ يَبْتُرَ تِلْكَ الأَسْطُرَ أَوِ المقَاطِعَ التِي احتَوَتِ الظَّاهِرَةَ مِنْ سِيَاقَاتِهَا النَّصيَّةِ، فَوَقَعَ فِيمَا حَرَّمَهُ عَلَى النَّقَّادِ!

وَبِذَلِكَ المسْلَكِ غَلَبَ عَلَى هَذَا الكِتَابِ **تَجْزِيءُ النصِّ**، فَالظَّوَاهِرُ التِي تَنَاوَلَهَا الكِتَابُ لَا تَتجَاوَزُ نِطَاقَ السَّطْرِ الشِّعْرِيِّ، وَقَدْ يَذْكُرُ **د. حَمَاسَةُ** سُطُورًا أُخْرَى قَبْلَ السَّطْرِ الذِي وَرَدَتْ فِيهِ الظَّاهِرَةُ أَوْ بَعْدَهُ، لَكِنَّ ذَلِكَ لَا يُخْرِجَ الدِّرَاسَةَ عَنْ إِطَارِ تَجْزِيءِ النصِّ، وَلَمْ يَخْرُجْ **د. حَمَاسَةُ** عَنْ هَذَا النهْجِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً، فِي تَنَاوُلِ الظَّاهِرَةِ الأَخِيرَةِ (حَذْفُ حَرْفِ العَطْفِ)، لَكِنَّهُ مَا خَالَفَ ذَلِكَ النهْجَ إِلَّا لِأَنَّ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ تَكَرَّرَتْ فِي القَصِيدَةِ ذَاتِهَا أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، وَمِنْ ثَمَّ نَرَاهُ يُشِيرُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ قَصِيدَةٍ وَرَدَتْ فِيهَا هَذِهِ الظَّاهِرَةُ؛ وَهِيَ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **الإبداع الموازي (التحليل النصي للشعر)**، ص ٣٥، ٣٦.

قَصَائِدُ: (**كَلِمَات لَا تَعرِفُ النسْيَانَ**: ص ١٣٠)، وَ(**مَرْثِيَّةُ رَجُلٍ تَافِهٍ**: ص ١٣١، ١٣٢)، وَ(**حَدِيثٌ فِي مَقْهَى**: ص ١٣٣)، وَ(**رُؤْيَا**: ص ١٣٤)، وَ(**الشَّمْسُ وَالمرْأَةُ**: ص ١٣٥، ١٣٦)، وَقَدْ لَحِظَ **د. حَمَاسَةُ** أَنَّ هَذِهِ الظاهِرَةَ (حَذْفُ حَرْفِ العَطْفِ) قَدْ تَكَرَّرَتْ فِي بَعْضِ هَذِهِ القَصَائِدِ مَرَّاتٍ كَثِيرَةً، حَتَّى عَدَّ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ سِمَةً أُسْلُوبِيَّةً فِي مَطَالِعِ الأَبْيَاتِ فِي شِعْرِ صَلَاحَ عَبْدِ الصَّبُورِ، فَقَالَ: "إِنَّ قَارِئَ دِيوَانِ صَلَاحِ عَبْدِ الصَّبُورِ يُدْرِكُ مِنَ اللمْحَةِ الأُولَى هَذِهِ الظَّاهِرَةَ الأُسْلُوبِيَّةَ، وَأَعْنِي بِهَا حَذْفَ حَرْفِ العَطْفِ مَعَ إِرَادَتِهِ، وَخَاصَّةً عِنْدَمَا تَكُونُ المتعَاطِفَاتُ أَفْعَالًا مُضَارِعَةً، وَيَكُونُ الفِعْلُ فِي أَوَّلِ البَيْتِ. وَهَذَا التصَرُّفُ الأُسْلُوبِيُّ يَجْعَلُ كُلَّ بَيْتٍ كَمَا لَوْ كَانَ مُستَقِلًّا ظَاهِرِيًّا عَلَى حِينِ أَنَّهُ مُتَرَابِطٌ دِلَالِيًّا بِمَا قَبْلَهُ عَنْ طَرِيقِ اخْتِيَارِ الْمُفْرَدَاتِ وَعَنْ طَرِيقِ إِرَادَةِ حَرْفِ العَطْفِ؛ لَأَنَّ المعْنَى يَقْتَضِيهِ، وَالنَّمَاذِجُ كَثِيرَةٌ مِنْهَا قَصِيدَةُ (حَدِيثٌ فِي مَقْهَى) إِذْ تَبْدَأُ هَكَذَا:

أَتَحَوَّلُ عَنْ رُكْنِي فِي بَابِ الْمَقْهَى حِينَ تُدَاهِمُنِي الشَّمْسُ/ أَتَحَوَّلُ عَنْ شُبَّاكِي حِينَ يُدَاهِمُنِي بَرْدُ اللَّيْلِ/ أَتَبَسَّمُ أَحْيَانًا مِنْ أَسْنَانِي/ أَتَنَهَّدُ أَحْيَانًا مِنْ شَفَتِي/ أَحْلُمُ فِي نَوْمِي حُلمًا يَتَكَرَّرُ كُلَّ مَسَاء/ أَتَدَلَّى فِيهِ مَعْقُودًا مِنْ وَسَطِي فِي حَبْل..."[1].

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّنَا أَمَامَ ظَاهِرَةٍ أُسْلُوبيَّةٍ مُهَيمِنَةٍ عَلَى بَعْضِ قَصَائِدِ الشَّاعِرِ عَلَى الأَقَلِّ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ كَافِيًا لِكَيْ يَتَنَاوَلَ **د. حَمَاسَةُ** بَعْضَ هَذِهِ القَصَائِدِ تَنَاوُلًا كُلِّيًّا، وَفَاءً لِمَبْدَأٍ تَبنَّاهُ (**<u>حَتْمِيَّةُ تَنَاوُلِ القَصِيدَةِ كُلِّهَا</u>**)، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ، وَاكْتَفَى بِالمقَارَنَةِ بَينَ سِيَاقَاتِ الظَّاهِرَةِ، لِيُؤَكِّدَ أَنَّ الظَّاهِرَةَ الوَاحِدَةَ تَتنَوَّعُ دِلَالَاتُهَا بِتَنَوُّعِ سِيَاقَاتِهَا؛ فَبَيْنَما دَلَّ حَذْفُ حَرفِ العَطْفِ فِي مَطَالِعِ بَعْضِ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية**: ص ١٣٣.

الأَبْيَاتِ مِنْ قَصِيدَتَي (حَدِيثٌ فِي مَقْهَى – رُؤْيَا) عَلَى السُّرْعَةِ الشَّدِيدَةِ فِي تَوَالِي الأَحْدَاثِ وَتَلَاحُقِهَا.. وَكَأَنَّهَا تَصْدُرُ عَنِ المتكَلِّمِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ[١]؛ دَلَّ عَلَى بُطْءِ الْحَرَكَةِ وَتَثَاقُلِهَا فِي قَصِيدَةِ (الشَّمسُ وَالْمَرْأَةُ) وَكَأَنَّ كُلَّ حَدَثٍ فِيهَا مُنقَطِعٌ عَمَّا قَبْلَهُ[٢].

وَرُغْمَ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** رَدَّ اخْتِلَافَ دِلَالَةِ الظَّاهِرَةِ بَينَ القَصَائِدِ إِلَى اخْتِلَافِ السِّيَاقِ اللغَوِيِّ؛ فَإِنَّنَا حِينَ نُطَالِعُ كَلامَهُ لَا نَجِدُ اخْتِلَافًا كَبِيرًا بَينَ السِّيَاقَيْنِ، غَيْرَ أَنَّ (حَذْفَ حَرْفِ العَطْفِ) فِي القَصِيدَتَيْنِ الأُولَيينِ اقْتَرَنَ بِالأَفْعَالِ المضَارِعَةِ، فِي حِينِ اقْتَرَنَ بِالأَفْعَالِ الْمَاضِيَةِ فِي قَصِيدَةِ (الشَّمْسُ وَالْمَرْأَةُ)، وَهَلْ يكْفِي ذَلِكَ مُسَوِّغًا لِتَدُلَّ الظَّاهِرَةُ عَلَى السُّرْعَةِ وَالتَّلَاحُقِ فِي السِّيَاقِ الأَوَّلِ، وَلِتَدَلَّ عَلَى البُطْءِ وَالتثَاقُلِ فِي السِّيَاقِ الثَّانِي؟ أَمْ أَنَّ هَاتَيْنِ الدِّلَالَتَيْنِ تُنْتِجُهُمَا عَنَاصِرُ أُخرَى فِي السِّيَاقَيْنِ غَيْرُ الفِعْلِ المضَارِعِ وَالفِعْلِ الْمَاضِي؟! ثُمَّ أَلَيْسَ أَوْلَى أَنْ يَدُلَّ حَذْفُ حَرْفِ العَطْفِ مَعَ الفِعْلِ الْمَاضِي عَلَى السُّرْعَةِ، وَأَنْ يَدَلَّ حَذْفُهُ مَعَ المضَارِعِ عَلَى البُطْءِ وَالتثَاقُلِ، بِخِلَافِ مَا رَأَى **د. حَمَاسَةُ**؟! ذَلِكَ أَنَّ المضَارِعَ دَالٌّ عَلَى أَنَّ الحدَثَ مَا زَالَ قَائِمًا، وَلَمَّا يَنْقَضِ بَعْدُ، وَكَفَى بِذَلِكَ أَمَارَةً عَلَى البُطْءِ وَالتثَاقُلِ، أَمَّا الْمَاضِي فَمَعْنَاهُ أَنَّ الحدَثَ مَرَّ وَانْقَضَى، وَكَفَى بِذَلِكَ أَمَارَةً عَلَى السُّرْعَةِ وَالتلَاحُقِ.

بَلْ رُغْمَ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** قَدْ نَقَلَ قَصِيدَةَ (الشَّمْسُ وَالْمَرْأَةُ) كَامِلَةً فَلَمْ يَشْغَلْهُ مِنْهَا سِوَى هَذِهِ الظَّاهِرَةِ (حَذْفُ حَرْفِ العَطْفِ) وَلَمْ يُحَاوِلْ قِرَاءَةَ القَصِيدَةِ كَامِلَةً لِيحَقِّقَ مَبْدَأَ التحْلِيلِ الكُلِّيِّ لِلنَّصِّ الَّذِي أَلْمَحَ إِلَيْهِ قُبَيْلَ نَقْلِهِ نَصَّ القَصِيدَةِ، فَقَالَ: "**وَلِكَيْ تَكُونَ الدِّرَاسَةُ مُفِيدَةً، تَقْتَصِرُ عَلَى نَصٍّ وَاحِدٍ،**

(١) انظر السابق: ص ١٣٢، ١٣٥.

(٢) انظر السابق: ص ١٣٨.

وَهُوَ هُنَا القَصِيدَةُ بِأَكْمَلِهَا؛ لِأَنَّ كُلَّ نَصٍّ يَحْمِلُ خَصَائِصَهُ الأُسلُوبِيَّةَ التِي تُعَدُّ مَفَاتِيحَ لِفَهْمِهِ وَكَشْفِ خَبَايَاهُ"(١).

وَلَمْ يُجَلِّ **د. حَمَاسَةُ** شَيْئًا مِنْ الْخَصَائِصِ الأُسْلُوبِيَّةِ لِهَذِهِ القَصِيدَةِ، وَمَا شُغِلَ بِشَيءٍ مِنْهَا سِوَى (حَذْفُ حَرْفِ العَطْفِ) الْمُقْتَرِنِ بِأَفْعَالٍ مَاضِيَةٍ فِي مَطَالِعِ الأَبْيَاتِ، نَاهِيكَ بِأَنَّ مَا مَنَحَهُ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ تَقُولُهُ بَعْضُ جُمَلِ النصِّ صَرَاحَةً، مَمَّا يَعْنِي أَنَّ هُنَاكَ عَنَاصِرَ أُخْرَى لُغَوِيَّةً تَقُولُ هَذِهِ الدِّلَالَةَ، سَوَاءٌ أَحُذِفَ حَرْفُ العَطْفِ أَمْ ذُكِرَ، وَهَاكَ بَعْضَ كَلَامِ **د. حَمَاسَةَ** عَنْ هَذِهِ القَصِيدَةِ: "إِنَّ إِسْقَاطَ وَاوِ العَطْفِ فِي أَوَّلِ كُلِّ (مَقْطَعٍ) مِنْ مَقَاطِعِ القَصِيدَةِ، وَهُوَ مَا سَمَّيْتُهُ (دَائِرَةً) لِتَشَابُهِ البِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ، يَجْعَلُ القَارِئَ يُدْرِكُ أَنَّ الْحَرَكَةَ الْحَدَثِيَّةَ تَبْدَأُ مِنَ النقْطَةِ ذَاتِهَا التِي تَبْدَأُ مِنْهَا سَابِقَتُهَا، فَهِيَ حَرَكَةٌ فِي دَائِرَةٍ مُغْلَقَةٍ تَحْدُثُ فِي مَنطِقَةٍ ثَابِتَةٍ مُضْجِرَةٍ بَدَأَتْ بِالتمَلْمُلِ وَانْتَهَتْ بِالْمَوْتِ السَّاخِرِ (كَانَتْ تَتَمَلْمَلُ – كَانَتْ تَتَمَلْمَلُ – هَبَطَتْ) فَالتمَلْمُلُ أَدَّى إِلَى الْهُبُوطِ، وَحَاوَلَتِ التحَرُّكَ مِنْ جَدِيدٍ... وَكَانَ مُقتَضَى المعيَارِ اللُّغَوِيِّ – النمَطِ أَنْ تُذكَرَ وَاوُ العَطْفِ مَعَ الأَفْعَالِ التِي وَرَدَتْ فِي خِلَالِ (الدَّائِرَةِ) أَوِ الْمَقْطَعِ، وَلَكِنَّهَا حُذِفَتْ فِي السَّطْحِ مَعَ إِرَادَتِهَا فِي العُمْقِ. وَإِذَا كَانَ إِسْقَاطُ حَرْفِ العَطْفِ يُوحِي بِسُرْعَةِ الأَحْدَاثِ وَتَلَاحُقِهَا أَحْيَانًا كَمَا رَأَيْنَا فِي القَصِيدَةِ التِي سَلَفَتْ مِنْ قَبْلُ، فَإِنَّهُ يُوحِي بِعَكْسِ ذَلِكَ تَمَامًا، وَلَعَلَّ ذَلِكَ رَاجِعٌ إِلَى اخْتِيَارِ الأَفْعَالِ الْمَاضِيَةِ وَنَوْعِهَا المعْجَمِيِّ، وَلَعَلَّ السِّيَاقَ اللغَوِيَّ كَذَلِكَ سَاعَدَ عَلَى إِنْتَاجِ هَذِهِ الدِّلَالَةِ لِحَذْفِ حَرْفِ العَطْفِ مَعَ هَذِهِ الأَفْعَالِ، فَالسِّيَاقُ اللغَوِيُّ فِيهِ تَمَلْمُلٌ (كَانَتْ تَتَمَلْمَلُ فِي ضَجْعَتِهَا) وَضَجْعَةٌ وَهُبُوطٌ وَإِعْيَاءٌ وَإِغْفَاءٌ. وَلِذَلِكَ عِنْدَمَا جَاءَ هَذَا المقْطَعُ:

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ١٣٥.

هَبطَتْ عَنْ مَضْجَعِهَا لَمَّا جَاءَ اللَيْل
بَلَّتْ شَيْخُوخَتَهَا فِي مَاءِ البَحْر
أَغْفَتْ حَتَّى تُولَدَ فِي الصُّبْحِ الدَّانِي عَذْرَاء

وَسَقَطَتْ فِيهِ أَدَاةُ العَطْفِ كَانَتِ الحرَكَةُ بَطِيئَةً مُتثَاقِلَةً لَا حَيوِيَّةَ فِيهَا تَنْقُلُ خُطْوَتَها فِي الرَّمْلِ، إِرْهَاقًا وَشَيْخُوخَةً وَعَجْزًا، وَكَأَنَّ كُلَّ حَدَثٍ مِنْهَا مُنقَطِعٌ عَمَّا قَبْلَهُ.

وَلَعَلَّ هَذَا يُفَسِّرُ لَنَا أَنَّ كُلَّ ظَاهِرَةٍ مُرْتَبِطَةٌ بِسِيَاقِهَا، وَيُؤَكِّدُ أَنَّها لَا تُعْطِي الدِّلَالَةَ نَفْسَهَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ، وَلَكِنَّهَا تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ السِّيَاقِ"(١).

وَإِذَا تَدَبَّرْنَا فِيمَا وَضَعْنَا تَحْتَهُ خَطٌّ مِنْ كَلَامِ **د. حَمَاسَةَ** أَيْقَنَّا أَنَّ دِلَالَةَ البُطْءِ وَالتَّثَاقُلِ مَفْهُومَةٌ مِنَ السِّيَاقِ؛ تَقُولُها عَنَاصِرُ أُخْرَى فِي القَصِيدَةِ غَيرُ (حَذْفِ حَرْفِ العَطْفِ)، وَلَوْ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** عُنِيَ بِكُلِّ عَنَاصِرِ النَّصِّ وَفَاءً بِمَا وَعَدَ بِهِ وَدَعَا إِلَيهِ فِي مَبَادِئِهِ النظَرِيّةِ لَرَدَّ الدِّلَالَةَ إِلَى عَنَاصِرِهَا المرْتَبِطَةِ بِهَا وَحْدَهَا، وَلَمَا أَعْطَى دِلَالَةَ عُنْصُرٍ إِلَى آخَرَ لِمُجَرَّدِ أَنَّ سِيَاقًا لُغَوِيًّا وَاحِدًا ضَمَّهُمَا!

وَ**الْمَلْحَظُ الخَامِسُ** أَنَّ الظَوَاهِرَ التِي تَنَاوَلَهَا **د. حَمَاسَةُ** فِي هَذَا الكِتَابِ **ظَوَاهِرُ صَوْتِيَّةٌ** وَإِنْ تَدثَّرَتْ بِدَثَارِ النحْوِ؛ ذَلِكَ أَنَّهَا لَا تَتَجَاوَزُ المستَوَى الصَّوتِيَّ إِلَى المسْتَوَى التَّرْكِيبِيِّ (وَهُوَ لُبُّ النحْوِ وَجَوْهَرُهُ)، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ دُخُولَهَا تَحْتَ عِلْمِ النحْوِ – وَتَحْدِيدًا نَحْوَ النصِّ – هُوَ ضَرْبٌ مِنَ التجَوُّزِ أَوِ التَّوَسُّعِ فِي مَعْنَى النحْوِ وَمَفهُومِهِ.

وَلَوِ استَعْرَضْنَا هَذِهِ الظَوَاهِرَ لَوجَدْنَاهَا تَدُورُ بَيْنَ: تَسْكِينِ حَرْفٍ أَوْ تَحْرِيكِهِ، وَمَدِّ حَرْفٍ أَوْ قَصْرِهِ، وَذِكْرِ حَرْفٍ أَوْ حَذْفِهِ، وَتَشْدِيدِ حَرْفٍ

(١) السابق: ص ١٣٧، ١٣٨.

أَوْ تَخْفِيفِهِ وَإِشْبَاعِ حَرْفٍ أَوْ عَدَمِ إِشْبَاعِهِ، وَنُطْقِ حَرْفٍ أَوْ إِهْمَالِهِ[1]، وَلعَلَّ السَّبَبَ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الظَّوَاهِرَ مُتَّصِلَةٌ بِالْجانِبِ الإِيقَاعِيِّ فِي الشّعْرِ (الوَزْنِ وَالقَافِيَةِ)، أَكْثَرَ مِنَ اتِّصَالِهَا بِالْجانِبِ النحْوِيِّ، أَيْ أَنَّهَا دَائِرَةٌ فِي نِطَاقِ المخَالَفَاتِ التِي سَمَّاها الأَسْلَافُ (ضَرُورَةً) شِعْرِيَّةً يُضْطَرُّ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ لإِقَامَةِ الوَزْنِ وَالقَافِيَةِ. لَكِنَّ **د. حَمَاسَةَ** يَأْبَى القَوْلَ بِالضَّرُورَةِ.

ومعنى ذَلِكَ أن **د. حَمَاسَةَ** لَا يَتَنَاوَلُ فِي هَذَا الكِتَابَ ظَوَاهِرَ الإِسْنَادِ أَوِ التَّرْكِيبِ، وَهِيَ أَمَسُّ رَحِمًا بِنَظَرِيَّةِ النظْمِ الْجُرجَانِيَّةِ التِي حَرَصَ **د. حَمَاسَةُ** عَلَى وَصْلِ (نَحْوِ النصِّ) بِهَا.

---

(١) هَذِهِ هِيَ الظواهر التِي تناولها **د. حَمَاسَةُ** فِي كِتَابِهِ:

١- الوقف على الاسم المنصوب المنون بالسكون (ص: ٥٤).

٢- صرف الاسم الممنوع من الصرف (ص: ٥٩).

٣- منع الاسم المصروف من الصرف (ص:٦١).

٤- تقدير الفتحة على المضارع الناقص (ص: ٦٣).

٥- قصر الممدود (ص: ٦٧).

٦- مد المقصور (ص: ٧٣).

٧- تخفيف المشدد (ص: ٧٧).

٨- تشديد غير المشدد (ص: ٨٣).

٩- إبدال الهمزة حرف مد فِي غير مواضع إبدالها (ص: ٨٩).

١٠-قطع همزة الوصل (ص: ٩٥).

١١-إشباع فتحة (أنا) فِي الوصل (ص: ١٠٣).

١٢-حذف نون الرفع من الأفعال الخمسة بلا ناصب أو جازم (ص: ١١٣).

١٣-حذف الفاء من جواب الشرط (ص: ١١٩).

١٤-عدم تكرار (لا) إذا دخلت على معرفة (ص: ١٢٣).

١٥-حذف حرف العطف (ص: ١٢٧).

وإذا تأملنا هَذِهِ الظواهر وجدناها لَا تكاد تخرج عما ذكرنا؛ لأنها ظواهر متعاكسة فِي أغلبها، نحو (مد المقصور، وقصر الممدود)، و(منع المصروف وصرف الممنوع).

وَحَتَّى مَا كَانَ مِنْ هَذِهِ الظَوَاهِرِ التِي تَنَاوَلَهَا **د. حَمَاسَةُ** مُخَالَفَةً نَحْوِيَّةً مَحْضَةً، فَإِنَّ الشَّاعِرَ يَأْتِيهَا لِإِقَامَةِ الوَزْنِ؛ أَيْ أَنَّهُ مُضْطَرٌّ (وَإِنْ أَنْكَرَ **د. حَمَاسَةُ** ذَلِكَ)، خُذْ مَثَلًا **الظَّاهِرَةَ الثانيَةَ عَشرَةَ** التِي سَمَّاهَا **د. حَمَاسَةُ** (حَذْفَ نُونِ الرَّفْعِ مِنَ الأفعَالِ الخمْسَةِ بِلَا نَاصِبٍ وَلَا جَازِمٍ). إِنَّنَا دُونَ أَنْ نَقْرَأَ مَا كَتَبَهُ **د. حَمَاسَةُ** عَنْ هَذِهِ نَتَوَقَّعُ أَنَّ الشَّاعِرَ حَذَفَ هَذِهِ النُّونَ – رُغْمَ أَنَّ قَوَاعِدَ النحْوِ لَا تُجِيزُ لَهُ ذَلِكَ – لِأَنَّ الوَزْنَ يَقْتَضِي ذَلِكَ؛ أَيْ أَنَّهُ اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ لِيَخْدِمَ الجانِبَ الإيقَاعِيَّ، وَهُوَ جَانِبٌ صَوْتِيٌّ فِي الْمَقَامِ الأَوَّلِ.

وَلِلدكْتورِ **حَمَاسَةَ** أَنْ يَدرُسَ هَذِهَ الظوَاهِرَ لِيقُولَ – مَثَلًا – إِنَّ شَاعِرَ التفْعِيلَةِ قَدْ وَقَعَ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ شَاعِرُ البيْتِ مِنَ انْحِرَافَاتٍ عَنْ قَوَاعِدِ اللغَةِ، أَوْ لِيقُولَ أَيَّ شَيءٍ آخَرَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ لِهَذِهِ الظوَاهِرِ الصَّوتِيَّةِ دِلَالَاتٍ مُسْتَقِلَّةً تَتَنَوَّعُ بِتَنَوُّعِ سِيَاقَاتِهَا النصِّيَّةِ؛ وَمَا أَفْهَمُهُ مِنْ صَنِيعِ **د. حَمَاسَةَ** فِي دِرَاسَةِ هَذِهِ الظوَاهِرِ أَنَّهُ قَدْ بَنَى كِتابَهُ عَلَى تَصَوُّرٍ غَالِطٍ أَوْ وَاهِمٍ؛ ذَلِكَ أَنَّ الأَصْوَاتَ – نَاهِيكَ بِالحَرَكَاتِ الإِعْرَابِيَّةِ– لَيسَتْ كِيَانَاتٍ مُستقِلَّةً حَتَّى تُنتِجَ مَعَانِيَ وَدِلَالَاتٍ، وَيَحْسُنُ أَنْ نَذْكُرَ فِي هَذَا المقَامِ كَلَامَ أُستاذِنَا **تَمَّام حَسَّان** الذِي يُؤَكِّدُ فِيهِ أَنَّ هَذِهِ الأَصْوَاتَ لَهَا وَظَائِفُ وَلَيسَ لَهَا دِلَالَاتٌ أَوْ مَعَانٍ، يَقُولُ **د. تَمَّام:** "فَأَمَّا الوَظِيفَةُ فَهِيَ مَعْنَى الصَّوْتِ وَمَعْنَى الحرْفِ وَمَعْنَى الْمَقْطَعِ وَمَعْنَى الظاهِرَةِ الموْقِعيَّةِ مِنْ ظَواهِرِ الكَلَامِ، ثُمَّ هِيَ مَعْنَى الأَدَوَاتِ وَالْمُلْحَقَاتِ وَالصِّيَغِ، ثُمَّ هِيَ مَعْنَى الأَبوَابِ النحْوِيَّةِ ... هُنَا يَنتَهِي الكَلَامُ عَنِ الوَظِيفَةِ وَيَبْدَأُ الكَلَامُ عَنِ **الإِطْلَاقِ**، وَهُوَ الشِّقُّ الثَّانِي مِنَ المعنَى، وَمَعْنَى الإِطْلَاقِ فِي أَسَاسِهِ يَختَلِفُ عَنْ مَعْنَى الوَظِيفَةِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ الوَظيفَةَ مَعْنَى الْجُزَيْءِ التَّحلِيلِيِّ كَالصوْتِ وَالْحَرْفِ وَالْمَقْطَعِ، وَهَلُمَّ جَرًّا وَكُلُّ ذَلِكَ لَا يُمكِنُ أَنْ يُدَّعَى لَهُ وُجُودٌ مُستَقِلٌّ فِي اللغَةِ، وَلَكِنَّ **الإِطْلَاقَ** هُوَ المعنَى العُرْفِيُّ الَّذِي أُعْطِيَ لِلكَلِمَةِ بِالوَضْعِ وَيَصْلُحُ لِأَنْ يُسَجِّلَهُ المعْجَمُ ... وَهَذَا المعنَى المعْجَمِيُّ

أَوِ (الإِطْلَاقُ) مَعْنًى عَامٌّ جِدًّا يَقُومُ عَلَى فَرْضِ اسْتِقْلَالِ الكَلِمَةِ، وَالكَلِمَةُ وَحْدَةُ اللغَةِ"[١].

وَلَا رَيْبَ أَنَّ كَلامَ **د. تَمَّام حَسَّان** يَحْمِلُ عَلَى الارْتِيَابِ فِي التصَوُّرِ الذِي بَنَى عَلَيهِ **د. حَمَاسَةُ** دِرَاسَةَ تِلْكَ الظوَاهِرِ التِي تَنَاوَلَهَا فِي شِعْرِ صَلَاح عَبدِ الصَّبُور، وَيَدْعُو إِلَى إِعَادَةِ النظَرِ فِيمَا أُسِّسَتْ عَلَيهِ مُقَارَبَتُهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تَخْرُجَ عَنْ هَذِهِ الْجُزَيْئَاتِ التِي رَآهَا **د. تَمَّامُ** وَظَائِفَ تُفَرِّقُ بَينَ الدِّلَالَاتِ، وَلَيْسَ لَهَا كِيَانٌ مُستقِلٌّ يُؤَهِّلُهَا لِإِنتَاجِ الدِّلَالَةِ، أَوَلَمْ يُعَرِّفِ النحَاةُ – قَبْلَ **د. تَمَّام** – **<u>الْحَرْفَ</u>**، بِأَنَّهُ: **<u>كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى مَعْنًى فِي غَيرِهَا</u>**؛ أَيْ أَنَّ الحرْفَ لَا مَعْنَى لَهُ فِي ذَاتِهِ، وَلَا يَستَقِلُّ بِإِنتَاجِ المعنَى، وَأَنَّ مَعنَاهُ الإِفْرَادِيَّ مُتوَقِّفٌ عَلَى ذِكْرِ مُتعَلَّقِهِ، بِخِلَافِ الاسْمِ وَالفِعْلِ، فَإِنَّ دِلَالَةَ كُلٍّ مِنْهُمَا عَلَى مَعنَاهُ الإِفْرَادِيِّ، غَيرُ مُتوَقِّفَةٍ عَلَى ذِكْرِ مُتعَلَّقٍ[٢] .. مَعَ الأَخْذِ فِي الْحُسْبَانِ أَنَّ النحَاةَ أَرَادُوا بِذَلِكَ الْحَدِّ حُرُوفَ المعانِي لَا حُرُوفَ المبانِي أَوِ الأَصْوَاتَ أَوِ الحرَكَاتِ الإِعْرَابيةَ!

أَمَّا إِصْرَارُ **د. حَمَاسَةَ** عَلَى أَنْ يَجعَلَ لِهَذِهِ الظوَاهِرِ الصَّوتيَّةِ دِلَالَةً؛ فَلَيْسَ سِوَى نَزْعَةٍ **كرَاتِيلِيَّةٍ**[٣]. تَجعَلُ الدَّالَّ مُحَاكَاةً مُبَاشِرَةً لِلمَدْلُولِ، وَتَجعَلُهُ تَرْجِيعًا مبَاشِرًا لِصَدَاهُ، وَتَرْبِطُهُ بِهِ ارتِبَاطَ العِلَّةِ بِالمعْلُولِ، وَلَيْسَ يَخْلُو ذَلِكَ النُّزُوعُ مِنْ تَكلُّفٍ وَاعْتِسَافٍ.

---

(١) د. تمام حسان: **مقالات فِي اللغة والأدب**، ج١، ط١، عالم الكتب، القاهرة ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٥م، ص ٣٣٦.

(٢) انظر في هذا التعريف وشرحه، المرادي (الحسن بن قاسم): **الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق د. فخر الدين قباوة، والأستاذ محمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة – بيروت، بدون تاريخ، ص ٢٠، وما بعدها.

(٣) انظر د. محمد الناصر العجيمي: **النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية**، ج١، ط١، كلية الآداب – سوسة، ١٩٩٨م، ص ٢٨١.

وَلَوْ سَلَّمْنَا جَدلًا بِأَنَّ لِلصَّوْتِ دِلَالَةً؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدلَالَةَ تَضعُفُ إِذَا اقتَرَنَتْ بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْهَا، وَإِذَا صَحَّ مَا يَقُولُهُ **د. شُكْرِي عَيَاد:** "وَلَا يَشُكُّ أَحَدٌ فِي أَنَّ للحُرُوفِ – كَأَصْوَاتٍ لُغوِيَّةٍ مُجرَّدَةٍ – نَوْعًا مِنَ الدِّلَالَةِ (وَلَا يَبعُدُ أَنْ تَكُونُ اللغَاتُ البشَرِيَّةُ جَمِيعُهَا لُغَاتٍ مَقطَعِيَّةً فِي الأَصْلِ) وَلَكنَّ هَذِهِ الدِّلَالَةَ المستَقِلَّةَ تَضعُفُ حِينَ تَدْخُلُ فِي تَرْكِيبٍ أَكْبَرَ مِنْهَا، وَهوَ الكَلِمَةُ، وَكَذَلِكَ شَأْنُ الكَلِمَةِ بِالنسبَةِ إِلَى الجمْلَةِ، وَالجمْلةِ بِالنسْبَةِ إِلَى سِيَاقِهَا الخاصِّ وَهوَ القِطْعَةُ، وَالقِطْعَةُ بِالنسبَةِ إِلَى سِيَاقِهَا الوَاسِعِ، الأَدَبِيِّ ثُمَّ اللغَوِيِّ ثُمَّ الحضَارِيِّ، وَهُوَ مَا يُعبَّرُ عَنهُ بِالنصِّ المتدَاخِلِ)"[1]؛ وَمُؤَدَّى ذَلِكَ أَنَّ مَرْجِعَ الدِّلَالَاتِ التِي رَآهَا **د. حَمَاسَةُ** إِلَى سِيَاقَاتِهَا، وَلَيسَ إِلَى هَذِهِ الظوَاهِرِ ذَاتِهَا.

<u>وَالْمَلحَظُ السادِسُ</u> يَتَّصِلُ **<u>بِمَنْهَجِ د. حَمَاسَةَ فِي تَلَقِّي تِلْكَ الظوَاهِرِ وَتَأوِيلِهَا أَوْ بِنَاءِ دِلَالتِهَا الأَدَبِيَّةِ</u>**، وَلقَدْ تَنوَّعَتْ أَنْمَاطُ تَلَقِّيهِ وَمَسَالِكُ تَأْوِيلِهِ؛ وَتَداخَلَتْ تِلْكَ المسَالِكُ كَذَلِكَ، حَتَّى وَجَدْنَا د. حَمَاسَةَ يَجمَعُ بَينَ أَكْثَرَ مِنْ مَسْلَكٍ فِي تَنَاوُلِ الظَّاهِرَةِ الوَاحِدَةِ، وَيُمْكِننَا أَنْ نَتوَقَّفَ أَمَامَ خَمْسَةٍ مِنْ مَسَالِكِ تَأْوِيلِهِ تِلْكَ الظوَاهِرَ التِي تَنَاوَلَهَا فِي شِعْرِ صَلَاحِ عَبدِ الصَّبُور:

- **<u>المسْلَكُ الأَوَّلُ:</u>** <u>تَعلِيلُ جُلِّ هَذِهِ الظَّواهِرِ بِأَنَّهَا مِمَا اقتَضَاهُ الوَزْنُ أَوِ القَافِيَةُ</u>، وَيَبْدُو **د. حَماسَةُ** فِي ذَلِكَ المسْلَكِ كَمَنْ يَنقُضُ غَزْلَهُ بِيدَيْهِ؛ ذَلِكَ أَنَّنَا قَدْ أَشَرْنَا إِلَى وَاشِجَةِ كِتابِهِ عَنْ صَلَاحِ عَبدِ الصبُورِ بِكِتَابِهِ الأَوَّلِ (لُغَةُ الشعْرِ: دِرَاسَةٌ فِي الضَّرورَةِ الشِّعرِيَّةِ)، حَيْثُ نَبتَتْ فِكرَةُ الكِتَابِ الثَّانِي مَعَ الكِتَابِ الأَوَّلِ، وَحَتَّى لَيمْكِنُ اعْتِبَارُ الكِتَابِ الثَّانِي ضَمِيمَةً أَوْ مُلحَقًا لِكِتَابِهِ الأَوَّلِ (لُغَةُ الشِّعْرِ)، وَإِذَا كَانَ **د. حَماسَةُ** قَدِ انتَهي فِي دِرَاسَتِهِ عَنِ الضَّرورَةِ الشِّعرِيَّةِ إِلَى رَفْضِ مَفهُومِ (الضَّرورَةِ)، فَإِنَّ رَدَّهُ كَثِيرًا مِنَ الظوَاهِرِ التِي تَنَاوَلَهَا فِي شِعْرِ صَلَاحِ عَبدِ الصبُورِ

(١) د. شكري عياد: **علم الأسلوب (مدخل ومبادئ) يليه اللغة والإبداع**، ص ٢١٦.

إِلَى مُقتضَيَاتِ الوَزْنِ وَالقَافيَةِ يَهْدِمُ مَا انتَهَى إِليهِ فِي الدرَاسَةِ الأُولَى (لُغَةُ الشِّعْرِ)!

هَذَا، وَلَا تَكَادُ تَخْلُو ظَاهرَةٌ مِنَ الظوَاهرِ التِي تَنَاوَلَها النّاقِدُ مِنْ ذَلِكَ التعْليلِ، حَتَّى لَيعسُرُ عَلينَا أَنْ نَستَدِلَّ بِكُلِّ نَماذِجِهَا لِكثْرَتِهَا، وَيُجْزِئُنَا فِي ذَلِكَ أَنْ نَذكُرَ بَعضَ عِبَارَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ التعْلِيلِ، مَعَ الإِحَالَةِ إِلَى مَوَاضِعِهَا مِنْ كِتابِهِ، مِثْلَ: قَولِهِ عَنْ إِسْكَانِ مِيمْ (لِمَ): "**وَلَا يَستَقِيمُ الوَزْنُ إِلَّا بِإِسْكَانِ مِيمِ (لِمَ) وَهُوَ استِعمَالٌ قَدِيمٌ وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَتوَسَّعْ فِيهِ كَما تَوسَّعَ فِي غَيرِهِ**"[1]، وَقَولِهِ عَنْ مَنْعِ صَلَاحِ عَبدِ الصَّبورِ كَلِمةَ (طِوَال) مِنَ الصَّرْفِ: "**لَيْسَ لِحَذْفِ التنْوِينِ مِنْ كَلِمَةِ (طِوَال) مُسَوِّغٌ إِلَّا الوَزْنَ**"[2]، وَقَولِهِ عَنْ تَخفِيفِ صَلَاحِ عَبدِ الصبُورِ الحرْفَ المشَدَّدَ فِي كَلِمَتَي (وَثَنِي – النّارِي): "**وَوَاضِحٌ هُنَا أَنَّ تَخفِيفَ (وَثَنِي) يَخْدِمُ تَوَافُقَ القَافِيَةِ فِي (البَدَنِ) ... وَتَخْفِيفُ الْحَرْفِ المشَدَّدِ فِي (النَّارِي) فِي هَذَا البيْتِ يَخْدِمُ تَوافُقَ قَافِيَةٍ مَرَّتْ مِنْ قَبْلُ**"[3]، وَقَوْلِهِ عَنْ عَدَمِ تَشْديدِ البَاءِ فِي كَلِمَةِ (شَابًا): "**فِي هَذَا السِّيَاقِ ... تَأْتِي كَلِمَةُ (شَابًا) التِي يَستَدْعِي الوَزْنُ أَلَّا تُشَدَّدَ فِيهَا البَاءُ حَتَّى يَستَقِيمَ الوَزْنُ**"[4]، وَقَولِهِ عَنْ تَشْدِيدِ الميمِ فِي كَلِمَةِ (الدَّمِ): "**... وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ لَا يَستَقِيمُ الوَزْنُ فِي بَيْتِ صَلَاحِ عَبدِ الصَّبُورِ إِلَّا بِتَشْدِيدِ الميمِ فِي كَلِمَةِ الدَّمِّ**"[5].

وَيَطُولُ بِنَا الكَلَامُ لَوْ رُحْنَا نَتعَقَّبُ مِثْلَ هَذِهِ التعْلِيلَاتِ فِي كِتَابِ **د. حَماسَةَ**، فَما نَقَلْنَا إِلَّا نَماذِجَ مِنْهَا، لِيُدرِكَ القَارِئُ أَنَّ **د. حَماسَةَ** قَدْ أَكَّدَ بِهَذِهِ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية**: ص ٥٠.
(٢) السابق: ص ٦١.
(٣) السابق: ص ٧٨.
(٤)د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية**: ص ٨١.
(٥) السابق: ٨٤.

التعْلِيلَاتِ اضْطِرَارَ صَلاحِ عَبدِ الصَّبُورِ إِلَى الظَّواهِرِ التِي خَالِفَ فِيهَا قَوَاعِدَ اللغَةِ، وَأَنَّ النَّاقِدَ قَدْ هَدَمَ بِهذِهِ التعْلِيلَاتِ – كَذِلِكَ – مَا انْتَهَى إِليهِ فِي كِتَابِهِ الأَوَّلِ (لُغَةُ الشِّعْرِ) مِنْ نَقْضِ مَفهُومِ الضَّرُورَةِ، وَتَخْطئَةِ النحَاةِ القَائِلِينَ بِهِ!

- **المسْلَكُ الثَّانِي**: إِسْقَاطُ دِلَالَةِ السِّيَاقِ عَلَى الظَّاهِرَةِ التِي وَرَدَتْ فِيهِ؛ فَلطَالَمَا أَعْطَى **د. حَمَاسَةُ** الظَّاهِرَةَ دِلَالَةَ السِّيَاقِ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ، فَإِنْ كَانَتْ فِي سِيَاقٍ يَنْضَحُ حُزْنًا وَمَأسَاةً جَعَلَها دَالَّةً عَلَى الحزْنِ وَالْمَأسَاةِ، وَإِنْ كَانَتِ الظَّاهرَةُ فِي سِيَاقِ جَلَدٍ وَقُوَّةٍ جعلَها دَالَّةً عَلَى القُوَّة وَالبأْسِ، وَإِنْ ذُكِرَتْ فِي سِيَاقٍ يُفْهَمُ مِنْهُ مَعْنَى السُّرْعَةِ وَالتلَاحُقِ أَلْبَسَهَا ثَوْبَ السُّرعَةِ وَالتلَاحُقِ، وَهَلُمَّ جَرًّا، وَذَاكَ المَسْلَكُ يُشعِرُنَا بِأَنَّ الفَضْلَ لِلسِّيَاقِ، وَلَيْسَ لِلظَّاهِرَةِ فِي ذَاتِهَا، وَلَا يَتضِحُ ذَلِكَ المسْلَكُ إِلَّا بِذِكْرِ أَمثِلَةٍ مِمَّا فَعلَهُ **د. حَماسَةُ**، وَالأَمْثِلَةُ عَلَى ذَلِكَ المسْلَكِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَهَاكَ مَقولتيْنِ مِنْ مَقولَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الفَضْلَ لِلسِّيَاقِ سَوَاءٌ أُوجِدَتِ الظّاهِرَةُ أَمْ لَمْ تُوجَدْ:

- قَولُهُ عَنْ قَطْعِ هَمزَةِ الوَصْلِ فِي قَصِيدَةِ الشَّاعِرِ (الملْكُ لَك): "وَقَدْ قُطِعَتِ الهمزَةُ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ نَفسِهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ مِنْ مَجمُوعِ تِسْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً فِي الدِّيوَانِ كُلِّهِ، وَجَاءَ قَطْعُ الهمْزَةِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مُتوَافِقًا مَعَ السِّيَاقِ الذِي يُغَلِّفُ جَوَّ القَصِيدَةِ؛ فَفِي المقَاطِعِ التِي أَثَارَتْ جَوَّ الذِّكْرَيَاتِ القَدِيمَةِ فِي الغُربَةِ وَمَا تَحمِلُهُ لَهجَتُها العَامِيَّةُ مِنْ دِلَالَاتٍ، وَثَقَافَتِهَا مِنْ أَسَاطِيرَ، جَاءَ قَطْعُ هَمزَةِ الوَصْلِ فِي كَلِمَةِ (اسْمِ النَّبِي) مَرَّتيْنِ لِتكْشِفَ عَنِ الحنِينِ الغَرِيبِ إِلَى الصُّحْبَةِ وَالإِخْوَةِ وَالأَشْقِيَاءِ الذِينَ يَنامُونَ ظُهرًا عَلَى (المصْطَبَةِ) وَيَحلمُونَ بِالقَصْرِ المشِيدِ.."[١].

(١) السابق: ٩٧.

- قَولُـهُ فِـي خِتَـامِ تَنَاوُلِـهِ ظَـاهِرَةَ (إِبْدَالِ الهمْزَةِ حَرْفَ مَدٍّ فِـي غَيرِ مَواضِـعِ إِبدَالِهَا): "وَهَكذَا يُمكِنُ تَفسِيرُ كُلِّ حَالَةٍ بِما يَتنَاسَبُ مَعَ سِيَاقِهَا، وَمِنْ هُنا يُصبِحُ هَذَا الاستِعْمالُ مُسْتَجِيبًا مَعَ السِّيَاقِ اللغَوِيِّ فِـي حَركَـةٍ فَاعِلَـةٍ وَمَفعُولَـةٍ مُـؤثِّرَةٍ وَمُتـأَثِّرَةٍ، فِـي أَخْـذٍ وَعَطَـاءٍ مُتبَـادَلَيْنِ، بِحيْـثُ إِذَا انْطلَقَ التفْسِيرُ مِنَ السِّيَاقِ الكُلِّيِّ؛ أَدَّى إِلَى هَذَا الاستِعْمَالِ المخصُوصِ، وَإِذَا انْطلَقَ مِنَ الاستِعْمَالِ المخصُوصِ أَسْهَمَ فِي صُنعِ هَذَا السِّيَاقِ الكُلِّيِّ. فَبينَ السيَاقِ وَالاستِعْمالِ – إِذَنْ – جَدَلٌ حَيٌّ فَعَّالٌ لَا يُمكِنُ إِهْمالُهُ"(١).

هَاتَانِ مَقولَتانِ عَامَّتَانِ تَدُلَّانِ عَلَى أَنَّ النّاقِدَ يُسْقِطُ دِلَالَةَ السيَاقِ عَلَى الظَّاهِرَةِ التِي يَتنَاوَلُهَا، وَإِنْ تَوَحَّدَتِ الظّاهِرَةُ وَتَعدَّدَتْ سِيَاقَاتُهَا، وَإِذَا أَرَدْنَا أَمْثلَةً مُفَصَّلَةً فَفِيمَا نَستَدِلُّ بِهِ عَلَى المسْلَكِ التّالِي بَعضُ تَفْصَيلٍ؛ ذَلِكَ بِأَنَّ مَسَالِكَ التّأوِيلِ مُتدَاخِلَةٌ – كَما أَشَرْنَا قَبْلُ – لَدَى **د. حَمَاسَةَ.**

- **المسلك الثالث: اتِّخَاذُ اسْمِ الظَّاهِرَةِ تُكَأَةً إِلَى دِلَالَتِهَا النَّصِّيَّةِ:**

بِمَعْنَـى أَنْ يَسـتَنْبِطَ **د. حَمَاسَـةُ** دِلَالَـةَ الظَّـاهِرَةِ فِـي شِـعْرِ صَـلَاحِ عَبدِ الصبُورِ مِنْ مَفهُومِهَا أَوِ اسْمِهَا الَّذِي اختَارَهُ النحَاةُ لَهَا، وَخَيْرُ مِثَالٍ عَلَى ذَلِكَ ظَاهِرَتَا (**قَصْرِ الممْدُودِ ، وَمَدِّ الْمَقْصُورِ**).

فَحِينَ تَنَـاوَلَ ظَـاهِرَةَ **قَصْـرِ الممْـدُودِ** عَـابَ عَلَـى النحَـاةِ تَقْصِـيرَهُم فِـي التفْسِيرِ النصِّـيِّ لِهَـذِهِ الظَّـاهِرَةِ؛ فَقَـالَ: "وَالسبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِـهِ جَوَّزَ النحَـاةُ القُدمَاءُ قَصْرَ الممْدُودِ هُوَ أَنَّ المقْصُورَ أَصْلٌ والممْدُودَ فَرْعٌ عَلَيْهِ، فَإِذَا قَصَرَ الشَّاعِرُ الممْدُودَ فَإِنَّهُ بِذَلِكَ يَرُدُّهُ إِلَى أَصْلِهِ. وَمِنْ هُنَا نَرَى أَنَّهُمْ لَمْ يُحَاوِلُوا أَنْ يُفَسِّرُوا قَصْرَ الممْدُودِ تَفْسِيرًا نَصِّيًّا أَيْ مُرْتَبِطًا بِالنَّصِّ، وَلَكنَّهُ تَفْسِيرٌ مَقْرُونٌ بِالصَّنْعةِ النحْوِيَّةِ. وَالشَّاعِرُ الْحَدِيثُ عِنْدَمَا يَقْصُرُ الاسْمَ الممْدُودَ فِي شِعْرِهِ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ٩٤.

إِنَّمَا يَجْرِي فِي ذَلِكَ عَلَى السَّنَنِ القَدِيمِ، وَلَكِنَّهُ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ يَكُونُ ذَا وَظِيفَةٍ نَصيَّةٍ، وَعَلَيْنَا أَنْ نُحَاوِلَ تَبَيُّنَهَا"[١].

وَهَذَا كَلَامٌ يُغْرِي بِتَتَبعِ تَنَاوُلِ **د. حَمَاسَةَ** لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ حَتَّى نَرَى تَجَلِّيَاتِهَا النصيَّةَ لَدَى الشَّاعِرِ الحدِيثِ، وَإِنْ كُنَّا نُلَاحِظُ مِنْ كَلَامِ **د. حَمَاسَةَ** أَنَّهُ قَصَرَ الوَظَائِفَ النَّصِّيَّةَ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الشَّاعِرِ الحدِيثِ وَحَرَمَ مِنْهَا الشَّاعِرَ القَدِيمَ، وَلَا غَرْوَ مَا دُمْنَا نَتَحَدَّثُ عَنْ ظَاهِرَةِ (قَصْرِ الممْدُودِ)!! فَلنَنْظُرْ.

لَقَدْ قَصَرَ صَلاحُ عَبدِ الصَّبُورِ الاسْمَ الممْدُودَ ثَمَانِيًا وَعِشْرِينَ مَرَّةً – وَفْقَ إِحْصَاءِ **د. حَمَاسَةَ** – وَدَارَتْ حَوْلَ تِسْعِ كَلِمَاتٍ[٢].

أَمَّا وَظَائِفُ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ فَيُمْكِنُ تَقْسِيمُهَا قِسْمَيْنِ: **<u>وَظِيفَةً عَامَّةً (ضَبْطَ الوَزْنِ وَالقَافِيَةِ)</u>**، حَيْثُ يُساعِدُ قَصْرُ الممْدُودِ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ – وَإِنِ اختَلَفَتْ وَظَائِفُهُ بِاختِلَافِ القَصَائِدِ – عَلَى ضَبْطِ الوَزْنِ وَتَصْحِيحِ القَافِيَةِ؛ حَسْبَما يَرَى **د. حَمَاسَةُ**[٣]. وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ أَنَّهُ بِهَذِهِ الوَظِيفَةِ يُؤَكِّدُ فِكْرَةَ الضَّرُورَةِ التِي أَلَّفَ كِتَابَهُ كَيْ يُبْطِلَهَا، وَيُؤَكِّدُ أَنَّ الشَّاعِرَ يَأْتِي هَذِهِ الظَّوَاهِرَ وَاعِيًا قَاصِدًا إِلَى غَايَاتٍ وَوَظَائِفَ نَصِّيَّةٍ، وَلَا يُضْطَرُّ إِلَيْهَا.

وَإِذَا مَا تَرَكْنَا الوَظِيفَةَ العَامَّةَ التِي تُؤَكِّدُ فِكْرَةَ الضَّرُورَةِ، وَتَتَنَاقَضُ مَعَ غَايَةِ الكِتَابِ وَرُؤْيَةِ مُؤَلِّفِهِ؛ وَانْتَقَلْنَا إِلَى **<u>الوَظِيفَةِ الخَاصَّةِ</u>** التِي تَخْتَلِفُ مِنْ قَصِيدَةٍ لِأُخْرَى وَمِنْ سِيَاقٍ لِآخَرَ، أَلْفَيْنَا **د. حَمَاسَةَ** يُحَلِّلُ سِتَّةَ نَمَاذِجَ لِهَذِهِ الظّاهِرَةِ مِنْ نَماذِجِهَا الثمانِيةِ وَالعِشْرِينَ التِي وَرَدَتْ فِي شِعْرِ صَلَاحِ عَبْدِ الصَّبُور. وَإِذَا تَتَبَّعْنَا دِلَالَاتِ قَصْرِ الممْدُودِ فِي هَذِهِ النمَاذِجِ وَجَدْنَاهَا تَدُورُ

---

(١) السابق: ص ٦٧.

(٢) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ٦٧.

(٣) انظر السابق: ص ٦٨.

حَوْلَ القِصَرِ والسُّرَعَةِ وَالتَّلَاحُقِ، وَالدُّنُوِّ وَالاقْتِرَابِ، وَهِيَ دِلَالَاتٌ قَرِيبَـةٌ مِنْ المعْنَى اللُّغَوِيِّ لِاسْمِ الظَّاهِرَةِ (قَصْرُ الممْدُودِ) وَدَائِرَةٌ فِي فَلَكِهِ، فَفِي قَصِيدَةِ (مُذكِّرَاتُ الصُّوفِيِّ بِشْرِ الْحافِي) نَمُوذَجَانِ يَقُولُ عَنْهُمَا **د. حَمَاسَـةُ:** "فَقَدْ يَكُونُ (أَيْ قَصْرُ الممْدُودِ) ذَا وَظِيفَةٍ إِيقَاعِيَّةٍ، كَمَا يَظْهَرُ فِي قَصِيدَةِ (مُذَكِّرَاتُ الصُّوفِيِّ بِشْرِ الْحافِي) إِذْ تَبْدَأُ بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ:

حِينَ فَقَدْنَا الرِّضَا/ بِمَا يُرِيدُ القَضَا/ لَم تَنْزِلِ الأَمْطَار

فَقَصَرَ كَلِمَةَ (القَضَا) لِتَتَوَافَقَ مَعَ (الرِّضَا) فِي هَذَا الإِيقَاعِ الْمُتَلاحِقِ **لِكَيْ يَصِلَ بِسُرْعَةٍ** إِلَى النَّتِيجَةِ (لَمْ تَنْزِلِ الأَمْطَار) مَعَ أَنَّهُ قَدَّمَ الظَّرْفَ (حِينَ) وَمَا أُضِيفَ إِلَيهِ لأَهَمِّيَّةِ فَقْدِ الرِّضَا بِمَا يُرِيدُ القَضَاءُ، وَيُصْبِحُ هَذَا الكَلَامُ الْمُقَفَّى الْمُوقَّعُ القَصِيرُ أَشْبَهَ بِكَلَامِ الصُّوفِيَّةِ الْمُرَكَّزِ المكَثَّفِ.

وَفِي القَصِيدَةِ نَفْسِهَا يَقُولُ:

حِينَ فَقَدْنَا الضَّحِكَا/ تَفَجَّرَتْ عُيُونُنَا .. بُكَا

فَقُصِرَتْ كَلِمَةُ (بُكَا) لِتُؤَدِّيَ الغَرَضَ نَفْسَه مِنَ **التقْفِيَةِ المَوَقَّعَةِ المتَلَاحِقَةِ** فِي عِبَارَةٍ **قَصِيرَةٍ مُكَثَّفَةٍ تَتَنَاسَبُ مَعَ تَوْقِيعَاتِ الصُّوفِيَّةِ**"[1].

وَيَنْبَغِي أَنْ نُلَاحِظَ أَنَّ **د. حَمَاسَـةَ** قَدْ جَعَلَ ظَاهِرَةَ (قَصْرِ الممْدُودِ) مُتَنَاسِبَةً مَعَ الْجَوِّ الصُّوفِيِّ الَّذِي يَشِيعُ فِي قَصِيدَةٍ تَتَنَاوَلُ شَخْصِيَّةً صُوفِيَّةً، لَكِنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ دِلَالَةً خَاصَّةً سِوَى الوَظِيفَةِ الإِيقَاعِيَّةِ. **وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ حِينَما يَخْرُجُ عَنِ الوَظِيفَةِ الإِيقَاعِيَّةِ لِلظَّوَاهِرِ التِي يَدرُسُهَا يَكُونُ الفَضْلُ لِلسِّيَاقِ لَا لِلظَّاهِرَةِ فِي ذَاتِهَا.**

وَدَلِيلُ ذَلِكَ أَنَّهُ حِينَما تَغَيَّرَ السِّيَاقُ، تَغَيَّرَتْ دِلَالَةُ الظَّاهِرَةِ؛ فَفِي قَصِيدَةِ (أَقُولُ لَكُمْ) نَمُوذَجَانِ آخَرَانِ كَذَلِكَ، فَأَمَّا النمُوذَجُ الأَوَّلُ، فَهُوَ قَوْلُ صَلَاحِ عَبدِ الصَّبُور (مَعَ التَّصَرُّفِ):

(١) انظر السابق: ص ٦٨.

قَضَى قَضَى/ وَعَنْ دِيَارِنَا مَضَى/ لَوْ عَاشَ كَانَ سَيِّدَا / يَحْمِي الحِمَى المسَوّدَا لَكِنَّهُ انْتَفَضَا.... وَعَنْ سَرِيرِ أُمِّهِ وَأُخْتِهِ صَعَدَا/ إِلَى السَّمَا رَكَضَا

ثُمَّ يُعقِّبُ **د. حَمَاسَةُ** فَيقُولُ: "وَنُلَاحِظُ فِي هَذَا الْمَقْطَعِ قِصَرَ الأَبْيَاتِ التِي تَتَوَافَقُ مَعَ قِصَرِ عُمْرِ هَذَا الْمَرْثِيِّ الَّذِي قَضَى وَمَضَى سَرِيعًا وَلَوْ عَاشَ لَكَانَ سَيِّدًا وَلَكِنَّهُ رَحَلَ سَرِيعًا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكْتَمِلَ دَوْرَةُ حَيَاتِهِ الْمَأْمُولَةِ. **وَفِي هَذَا السِّيَاقِ تَأْتِي كَلِمَةُ (السَّمَا) مَقْصُورَة... فَهَذَا الصُّعُودُ السَّرِيعُ الرَّاكِضُ أَوْصَلَهُ إِلَى السَّمَاءِ فِي سُرْعَةٍ خَاطِفَةٍ، وَيُصْبِحُ قَصْرُ كَلِمَةِ (السَّمَاء) هُنَا مُوحِيًا بِقُرْبِهَا وَدُنُوِّهَا مِنْ مَكانِ الصُّعُودِ الَّذِي كَانَ رَكْضًا**"[(١)].

وَأَمَّا **النَّمُوذَجُ الثَّانِي** فَيقُولُ عَنهُ **د. حَمَاسَةُ:** "وَفِي القَصِيدَةِ نَفْسِهَا تَرِدُ كَلِمَةُ (هَبَا) مَقْصُورَةً، وَفِي سِيَاقٍ يُوحِي كَذَلِكَ بِسُرْعَةِ الذَّهَابِ وَالْمُضِيِّ فيُوحِي قَصْرُها بالتَّلاؤُم مَعَ هَذَا الجوِّ المتَلَاحِقِ السَّرِيعِ:

قَضَتْ قَضَتْ/ وَعَنْ دِيَارِنَا مَضَتْ/.../ وَحِينَ طَارَ نَعْيُهَا اسْتَدَارِ/ خُطَّابُهَا وَأَهْلُهَا إِلَى الجِدَار/.../ مِنْ بَعْدِ أَنْ صَارَتْ هَبَا/ مُرَبَّعَاتٍ مُستَطِيلَاتٍ مِنَ الهَبَا.

إِنَّ قَصْرَ كَلِمَةِ (هَبَا) وَ(الْهَبَا) هُنَا يُوحِي بِأَنَّ هَذِهِ الْمَرثِية قَدْ قَضَتْ سَرِيعًا وَمَضَتْ قَبْلَ أَنْ تُحَقِّقَ الْمأْمُولَ مِنْهَا، وَالبيْتُ الَّذِي جَاءَتْ فِيهِ كَلِمَةُ (هَبَا) وَهُوَ (مِنْ بَعْدِ أَنْ صَارَتْ هَبَا) فِيهِ سُرْعةٌ خَاطِفَةٌ تَتقَابَلُ مَعَ البُطْءِ الَّذِي أَوْحَى بِهِ الْمَدُّ فِي (اسْتَدَارَ) وَ(الْجِدَار) فِي البَيتَيْنِ السَّابِقَيْنِ"[(٢)].

وَالْحَقُّ أَنَّ كَلَامَ **د. حَمَاسَةَ** بَادِي التكَلُّفِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ اضْطُرَّ إِلَى قَصْرِ هَذِهِ الكَلِمَاتِ لِيُقِيمَ الوَزْنَ وَالقَافِيَةَ، وَلَمْ يُرِدْ هَذِهِ الدِّلَالَاتِ التِي رَآهَا **د. حَمَاسَةُ**، وَلَوْ أَنَّ الشَّاعِرَ ذَكَرَ هَذِهِ الكَلِمَاتِ مَمْدُودَةً لَانْكَسَرَ الوَزْنُ،

---

(١) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ٦٨، ٦٩.

(٢) السابق: ص ٧٠.

وَاخْتَلَّتِ القَافِيَةُ، وَلَمْ يُرِدْ تَكْثِيفًا أَوْ تَقْصِيرًا أَوْ تَسْرِيعًا أَوْ تَلَاحُقًا أَوْ تَقْرِيبًا عَلَى نَحْوِ مَا رَأَى **د. حَمَاسَـةُ** ، وَإِذَا صَحَّتْ هَذِهِ الدِّلَالَاتُ فَإِنَّمَا أَنْتَجَهَا السِّيَاقُ، وَلَمْ يُنْتِجْهَا قَصْرُ الممْدُودِ.. لَكِنَّهَا شِنْشِنَةٌ تَعْرِفُهَا مِنْ بَعْضِ نُقَّادِنَا؛ إِذْ يَحْرِصُونَ عَلَى رَبْطِ الشِّكْلِيِّ بِالدِّلَالِيِّ مُجَارِينَ فِي ذَلِكَ – أَوْ مُحَاوِلِينَ مُجَارَاةَ – مَبَادِئَ الإِنْشَائِيَّةِ وَالأُسْلُوبِيَّةِ المتصِلَةِ بِهَذَا الموْضُوعِ ... وَتَسْتَحِيلُ عَمَلِيَّةُ التحْلِيلِ إِلَى رَبْطٍ "مِيكَانِيكِيٍّ" بَيْنَ الصِّفَاتِ الصَّوْتِيَّةِ الدَّالَّةِ أَوْ مَا شَابَهَهَا وَالمدْلُولَاتِ النفْسِيَّةِ وَالشُّعُورِيَّةِ[1].

وَإِذَا كَانَ **د. حَمَاسَـةُ** قَدْ وَلَّدَ دِلَالَاتٍ قَرِيبَةً مِنَ المعنَى اللغَوِيِّ لظَاهِرَةِ قَصْرِ الممْدُودِ، فَإِنَّهُ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ مَعَ الظَّاهِرَةِ المخَالِفَةِ لَهَا (مَدُّ الْمَقْصُورِ)؛ حَيْثُ وَرَدَتْ تِلْكَ الظَّاهِرَةُ مَرَّتَيْنِ فَحَسْبُ فِي شِعْرِ صَلَاحِ عَبْدِ الصَّبُورِ: **أُولَاهَا** فِي قَصِيدَةِ (تَأَمُّلَاتٌ لَيلِيَّةٌ)، حَيْثُ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

أَبْحَرْتُ وَحْدِي فِي عُيونِ النَّاسِ وَالأَفْكَارِ وَالْمُدُنْ/وَتُهْتُ وَحْدِي فِي صَحَارِي الوَجْدِ وَالظُّنُونْ/ غَفَوْتُ وَحْدِي مُشْرَعَ القَبْضَةِ مَشْدُودَ البَدَنْ/.../ سَرَيْتُ وَحْدِي فِي شَوَارِعِ لُغَاتِهَا، سِمَاتُهَا عَمَاءْ/...

أَمَّا **د. حَمَاسَةُ** فَيَقُولُ: "فَقَدْ مَدَّ كَلِمَةَ (عَمَى) وَجَعَلَهَا (عَمَاء) وَلَوْ أَتَى بِهَا مَقْصُورَةً عَلَى أَصْلِهَا فَقَالَ:

سَرَيْتُ وَحْدِي فِي شَوَارِعِ لُغَاتِهَا، سِمَاتُهَا عَمَاءْ

لَمَا انْكَسَرَ الوَزْنُ، وَهَذَا مَا يَدْفَعُ إِلَى النظَرِ إِلَيْهَا عَلَى أَنَّها مَقْصُودَةٌ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ وَأَنَّها تَخْدمُ مَعْنًى تُرِيدُهُ القَصِيدَةُ فِي سِيَاقِهَا الْمَقْصُودِ، فَهَذِهِ (الوَحْدَةُ) التِي تُؤَكِّدُهَا القَصِيدَةُ (**أَبْحَرْتُ وَحْدِي...**). فَهُوَ لَا يَجِدُ مَنْ يُرْشِدُهُ، وَلَا يَسْمَعُ إِلَّا أَصْدَاءَ خُطَاهُ التَّائِهَةِ، وَالنوَافِذُ كُلُّهَا مُغلقَةٌ عَمْيَاءُ، أَيْ أَنَّهُ فِي

(١) انظر د. محمد الناصر العجيمي: **النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية**، ص ٢٩٠.

عَمًى مُمْتَدٌّ مُتَّصِلٍ وَلِذَلِكَ جَاءَ مَدُّ كَلِمَةِ (عَمَى) وَتَحَوُّلُهَا إِلَى (عَمَاء) مُتَسَاوِقًا مَعَ هَذِهِ الضَّلَالَةِ الممتَدَّةِ الكَئِيبَةِ الموحِشَةِ"(١).

وَالأُخْرَى وَرَدَتْ فِي قَصِيدَةِ (الْحُزْن) يَقُولُ:

وَالْحُزْنُ يُولَدُ فِي المسَاءِ لأَنَّهُ حُزْنٌ ضَرِيرْ/ حُزْنٌ طَوِيلٌ كالطَّرِيقِ مِنَ الجحِيمِ إِلَى الجحِيم/ حُزْنٌ صَمُوت/ وَالصَّمْتُ لَا يَعنِي الرِّضَاءَ بِأَنَّ أُمْنِيَةً تَمُوتْ/ وَبِأَنَّ أَيَّامًا تَفُوتْ/ ....

وَمَدُّ كَلِمَةِ (الرِّضَا) هُنَا وَتَحَوُّلُهَا إِلَى (الرِّضَاءِ) يَعْكِسُ احْتِجَاجًا قَوِيًّا عَلَى مَنْ يَرَى ذَلِكَ، فَهُوَ يُرَكِّزُ عَلَيْهَا لِيَرْفُضَهَا وَيَحْمِلَ الآخَرِينَ عَلَى رَفْضِهَا، وَالسِّيَاقُ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ يُؤَكِّدُ هَذَا وَيُومِئُ إِلَيْهِ"(٢).

وَلَيْتَ شِعْرِي مَا عَلَاقَةُ مَدِّ كَلِمَةِ (الرِّضَا) أَوْ حَتَّى أَيِّ كَلِمَةٍ سِوَاهَا بِالاحْتِجَاجِ القَوِيِّ؟! ثُمَّ إِنَّ النصَّ عَلَى السِّيَاقِ هُنَا يُؤَكِّدُ مَا قُلْنَاهُ غَيرَ مَرَّةٍ بِأَنَّ الدِّلَالَةَ لِلسِّيَاقِ عَامَّةً، وَلَيْسَتْ لِظَاهِرَةِ مَدِّ المقْصُورِ (الرِّضَاء) خَاصَّةً، وَإِذَا كَانَ **د. حَمَاسَةُ** قَدْ نَفَى عَنِ النمُوذَجِ السَّالِفِ حَاجَةَ الوَزْنِ إِلَى (مَدِّ المقصُورِ) فَإِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ ذَلِكَ فِي هَذَا النمُوذَجِ؛ فَالوَزْنُ هُوَ الَّذِي اضْطَرَّ الشَّاعِرَ إِلَى مَدِّ كَلِمَةِ (الرِّضَاءِ) وَلَيْسَتْ دِلَالَةُ الاحتِجَاجِ القَوِيِّ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدِّلَالَةَ مَفهُومَةٌ مِنَ السِّيَاقِ حَسْبَ كَلَامِ **النَّاقِدِ** نَفْسِهِ.

وَكُلُّ مَا لَحِظْنَاهُ عَلَى تَنَاوُلِ النَّاقِدِ ظَاهِرَتَي (قَصْرِ الممدُودِ وَمَدِّ المقصُورِ) يَصْدُقُ عَلَى تَناولِهِ الظَّاهِرَتَينِ السَّابِعَةَ والثَّامِنَةَ: **(تَخْفِيفُ المشَدَّدِ وَتَشْدِيدُ المخَفَّفِ)** وَزِيَادَةً؛ فَإِذَا تَحدَّثْنَا عَنِ اتِّخَاذِ اسْمِ الظَّاهِرَةِ تُكَأَةً إِلَى

(١) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ٧٤.

(٢) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ٧٤، ٧٥.

دِلَالَتِهَا، فَذلِكَ مَوجُودٌ، وَإِنِ التَمَسْنَا فِيهِمَا دَلِيلًا عَلَى إِسْقَاطِ دِلَالَـةِ السّيَاقِ عَلَى الظّاهِرَةِ الموجُودَةِ فِيـهِ، فَذَلِكَ نَهْجٌ لَا يَكَادُ **د. حَماسَـةُ** يَحِيدُ عَنْـهُ، وَإِنْ بَحَثْنَا عَنْ تَكَلُّفٍ فِي تَأْوِيلِ الظَّاهِرَةِ وَقِرَاءَتِهَا، أَوْ رَدِّهَا إِلَى مَا يَقتَضِيهِ الوَزْنُ وَالقَافِيَةُ، فَلَنْ نُخْطِئَ شَيئًا مِمَّا نُرِيغُ.

وَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ أَتَقَوَّلَ عَلَى **د. حَمَاسَةَ** أَوْ أَدَّعِيَ عَلَيهِ دُونَ بَينَـةٍ، وَمِنْ ثَـمَّ يَحْسُنُ أَنْ أَتَوَقَّفَ مَلِيًّا أَمَـامَ تَناوُلِـهِ ظَـاهِرَتَي **(تَخْفِيـفُ المشَـدَّدِ وَتَشْـدِيدُ المخَفَّفِ).**

فَأَمَّا أُولَاهُمَا – (تَخْفِيفُ المشَدَّدِ)، فَقَدْ بَدَأَ بِتَأْصِيلِهَا فِي الشِّعْرِ القَدِيمِ؛ حَيْـثُ وَرَدَتْ الظـاهِرَةُ بِشِـقَّيْهَا (فِـي القَافِيَـةِ وَغَيْرِهَـا) فِـي الشِّـعْرِ القَـدِيمِ، فَمِـنْ تَخْفِيفِ المشَدَّدِ فِي القَوَافِي قَوْلُ امْرِئِ القَيْسِ:

لَا وَأَبِيـكِ ابْنَـةَ العَـامِرِيّ لَا يَـدَّعِي القَـوْمُ أَنِّـي أَفِـرْ

وَقَوْلُهُ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ:

إِذَا رَكِبُـوا الْخَيـلَ وَاسْـتَلْأَمُوا تَحَرَّقَـتِ الأَرْضُ وَالْيَـوْمُ قَـرْ

وَالعَجِيبُ أَنَّ **د. حَمَاسَـةَ** يُعَلِّلُ صَنِيعَ امْرِئِ القَيْسِ بِاسْتِوَاءِ الـوَزْنِ وَالقَافِيَةِ، بَلْ يَنْقِلُ قَوْلَ **ابْنِ عُصْفُورٍ** عَنِ الضَّرُورَةِ: "**وَإِنّمَا خُفِّفَتْ لِيَسْتَوِيَ لَـهُ بِذَلِكَ الوَزْنُ وتَطَابُقُ أَبْيَاتِ القَصِيدَةِ. أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَوْ شَدَّدَ (أَفِرّ) لَكَانَ آخِرُ أَجْزَائِهِ عَلَى (فَعُولْ) مِنَ الضَّرْبِ الثَّانِي مِنَ المتقَارِبِ، وَهُوَ يَقُولُ بَعْدَ هَذَا:**

تَمِـيمُ بْـنُ مُـرٍّ وَأَشْـيَاعُهَا وَكِنْـدَةُ حَـوْلِي جَمِيعًـا صُـبُرْ

وَآخِـرُ جُـزْءٍ مِـنْ هَـذَا البَيْـتِ (فَعُلْ) وَهُـوَ مِـنَ الضَّـرْبِ الثَّالِـثِ مِـنَ المتقَارِبِ وَلَيْسَ بِالْجائِزِ لَـهُ أَنْ يَأْتِيَ فِي قَصِيدَةٍ وَاحِدَةٍ بِأَبْيَاتٍ مِنْ ضَرْبَيْنِ، فَخَفَّفَ لِتَكُونَ الأَبْيَاتُ كُلُّهَا مِنْ ضَرْبٍ وَاحِدٍ"[1]، دُونَما اخْتِلَافٍ مَعَهُ.

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ٧٧.

أَمَّا صَلَاحُ عَبدِ الصَّبُورِ فَقَدْ خَفَّفَ المشَدَّدَ فِي القَافِيَةِ فِي شِعْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَالعَجِيبُ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** يُعَلِّلُهَا جَمِيعَهَا بِأَنَّهَا تَخْدِمُ تَوَافُقَ القَافِيَةِ، فَيَقُولُ عَنِ الموْضِعِ الأَوَّلِ (النَّبْضُ نَبْضٌ **وَثَنِي**): "وَوَاضِحٌ هُنَا أَنَّ تَخْفِيفَ (وَثَنِي) يَخدمُ تَوَافُقَ القَافِيَةِ فِي (البَدَنِ)"، وَيَقُولُ عَنِ الموْضِعِ الثَّانِي (يَا قَاسِيَةَ القَلْبِ **النَّارِي**): "وَتَخْفِيفُ الحرْفِ المشَدَّدِ فِي (النَّارِي) فِي هَذَا البَيْتِ يَخْدمُ تَوَافُقَ قَافِيَةٍ مَرَّتْ مِنْ قَبْلُ فِي قَوْلِهِ: لَكِ لُقَمٌ مِنْ تَذْكَارِ/ حَتَّى نَلْقَاكُم فِي لَيْلِ آتِ"، وَيَقُولُ عَنْ الموْضِعِ الثَّالِثِ (صَنَعْتُ لَك/ عَرْشًا مِنَ الحرِيرِ مَخْمَلِي/ نَجَرْتُهُ مِنْ صَنْدَلِ): وَقَدْ آثَرَ عَدَمَ نَصْبِ مَخْمَلِي حِرْصًا عَلَى التوَافُقِ مَعَ (صَنْدَلِ)"[١].

وَلقَدْ عَنَّ لِلدُّكتُورِ **حَمَاسَةَ** أَنَّ تَخْفِيفَ المشَدَّدِ فِي الموْضِعِ الثَّانِي غَيْرُ مُتوَافِقٍ مَعَ السِّيَاقِ، فَلَمْ يَتْرُكْهُ دُونَ تَسْوِيغٍ، فَقَالَ: "وَقَدْ كَانَ التَّشْدِيدُ أَوْفَقَ لِهَذَا السَّيَاقِ، وَلَكِنَّ الكَلِمَةَ ذَاتَ الْحَرْفِ المشَدَّدِ قَدْ خُفِّفَتْ حَيْثُ كَانَ مِنَ المتوَقَّعِ التشْدِيدُ المتَوَافِقُ مَعَ السَّيَاقِ وَالصِّحْةِ اللغَوِيَّةِ، فَأَصْبَحَ هَذَا مِنْ **إِخْلَافِ التوَقُّعِ** الَّذِي قَدْ يُؤَدِّي الغَايةَ المقصُودَةَ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ لِمَا فِيهِ مِنْ لَفْتِ الانْتِبَاهِ إِلَى هَذِهِ المخَالَفَةِ، وَلَكِنَّ الْمَرَّةَ الثَّالِثَةَ أَوْحَى فِيهَا التَّخْفِيفُ بِالسَّلاسَةِ وَالنعُومَةِ وَهُوَ مَا يُنَاسِبُ السَّيَاقَ"[٢].

أَمَّا الغَايَةُ المقصُودَةُ مِنْ إِخْلَافِ التَّوَقُّعِ – إِنْ صَحَّ ذَلِكَ القَوْلُ – فِي هَذَا الْمَقَامِ فَلَا يَعْلَمُهَا إِلَّا الله وَالدكْتُورُ **حَمَاسَةُ** رَحِمَهُ الله، وَعَلَى القَارِئَ أَنْ يَحْدُسَ مَا وسِعَهُ الحدْسُ كَيْ يَهْتَدِيَ إِلَيْهَا وَمَا إِخَالُهُ يَستَطِيعُ.

بَلْ نَسِيَ **د. حَمَاسَةُ** أَنَّ النقَّادَ يُرِيدُونَ بِمفْهُومِ (إِخْلَافِ التوَقُّعِ) مُفَارَقَةَ اللغَةِ العَادِيَّةِ وَلَا يُرِيدُونَ بِهِ مخالفَةَ السيَاقِ، أَوْ القَوَاعِدِ اللغَوِيَّةِ، وَأَنَّهُم يَسِمُونَ

(١) انظر فِي مقولات **د. حماسة** المرجعَ السابقَ: ص ٧٨، ٧٩.

(٢) السابق: ص ٧٨.

بِذَلِكَ لُغـةَ الأَدَبِ بِوَجْـهٍ عَـامٍّ، بِوَصْـفِهَا لُغـةً مُفارِقَـةً لِلغَـةِ البَلَاغِ العَـادِيِّ، وَلَا يَقْصِرُونَ مَفهُومَ (إِخْـلَافِ التوَقُّـعِ) عَلَـى المَوَاضِـعِ التِـي يُخَـالِفُ فِيهَا الشَّـاعِرُ قَوَاعِدَ لُغتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ يُسَمُّونَ البلَاغَ العَادِيَّ التوَقُّعَ (أَوْ أُفُقَ انتِظَـارِ القَارِئِ)، أَمَّـا عُدُولُ المبدِعِ عَمَّـا انـتَظَمَ فِـي ذِهْنِ المتلَقِّي فَيُسمُّونَهُ (خَيبـةَ التوَقُّـعِ، أَوْ إِخْلَافَ التَّوقُّعِ أَوِ اللَّامُنتَظَر)[1].

وَلَا رَيْبَ أَنَّ السِّيَاقَ بَرِيءٌ مِنْ مُخَالَفَاتِ صَـلَاحِ عَبْدِ الصَّبُورِ، سَوَاءٌ أَنَاسَبَتْهُ تِلْكَ المخَالَفَاتُ أَمْ لَمْ تُنَاسِبْهُ؟، لَكِنَّ حِرْصَ **د. حَمَاسَةَ** عَلَى أَنْ يَجِدَ لِكُـلِّ مُخَالَفَـةٍ دِلَالَـةً غَيْـرَ اضْـطِرَارِ الشَّـاعِرِ هُـوَ مَـا أَوْقَعَـهُ فِـي مِثْـلِ هَـذَا **الاعْتِسَـافِ**، وَمَـا أَسْـعَدَ صَـلَاحَ عَبـدِ الصبُورِ بِنَاقِدٍ مِثْلِ **د. حَمَاسَـةَ** حَيْثُ يُضَـطَـرُّ إِلَـى مُخَالَفَـةِ القَوَاعِدِ فَيُظْهِـرُهُ **د. حَمَاسَـةُ** مُبدِعًا لَا يَفْعلُ شَـيْئًا، وَلَا يَقُولُ كَلِمَةً إِلَّا وَلَهُ مِنْ وَرَائِهَا غَايَةٌ، وَإِنْ خَالَفَتِ اللغةَ وَالسِّيَاقَ.

وَأَمَّا **تَخْفِيفُ المشَدَّدِ** فِي غَيْرِ القَافِيَةِ فَقَدْ وَرَدَ فِي شِعْرِ صَـلَاحِ عَبدِ الصَّبُورِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَرُغْمَ أَنَّهَا جَمِيعَهَا كَانَتْ لِإِقَامَةِ الوَزْنِ، فَإِنَّ **د. حَمَاسَةَ** يَـأْبَى إِلَّا أَنْ يَجْعَلَ لَهَـا دِلَالَـةً أُخْـرَى؛ وَإِذَا تَأَمَّلْنَـا الـدِّلَالَاتِ الإِضَـافِيَّةَ التِـي يَمْنَحُهَا **د. حَمَاسَةُ** لِهَذِهِ الظَّاهِرَةِ فَسَنَجِدُهَا مَفْهُومَـةً مِنَ السِّيَاقِ – بَلْ تُصَرِّحُ بِهَا كَلِمَاتٌ أُخْرَى – سَوَاءٌ أَخُفِّفَ المشَدَّدُ أَمْ لَمْ يُخَفَّفْ، وَيُمْكِنُنَا أَنْ نُمَثِّلَ لِذَلِكَ بِالْمَوْضِعَيْنِ الأَوَّلَيْنِ فَحَسْبُ؛ فَأَمَّا الأَوَّلُ فَهُوَ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

الأَرْضُ بَغِيٌّ طَامِث/.../ مَنْ ضَاجَعَهَا مَلْعُون/ الأَبْنِيَةُ المرْصُوصَةُ فِي وَجْهِ الْمَارِينَ سُجُون/ سَجَّانُوهَا الْحِيطَانُ وَقُرْبُ الإِنْسَانِ مِنَ الإِنْسَانِ/ سِجْنًا أَبَدِيًّا يَا مَسْجُون

(١) انظر د. محمد الناصر العجيمي: **النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية:** ص ٢٠٧، ٢٠٨.

وَمِمَّا قَالَهُ **د. حَمَاسَةُ** عَنْ كَلِمَةِ (الْمَارِينَ) فِي هَذَا الموْضِعِ: "... وَأَيًّا مَا كَانَ الأَمْرُ فَإِنَّ تَخفِيفَ المشَدَّدِ فِيهَا أَوْ تَقْصِيرَ حَرَكَةِ الميمِ فِيهَا يُؤَدِّي الغَايَةَ مِنْ إِقَامَةِ الوَزْنِ؛ إِذْ لَا يَسْتَقِيمُ الوَزْنُ إِلَّا بِإِحْدَى الوَسِيلتَيْنِ، وَمَعَ ذَلِكَ يُعْطِي تَخْفِيفُ المشَدَّدِ فِي هَذِهِ الكَلِمَةِ أَوْ تَقْصِيرُ الحرَكَةِ الطَّوِيلَةِ فِيهَا إِيحَاءً بِسُرْعَةِ المرُورِ أَمَامَ هَذِهِ الأَبْنِيَةِ المرْصُوصَةِ التِي تَنْتَصِبُ سُجُونًا، وَتَقِفُ الحوَائِطُ فِيهَا سَجَّانِينَ ... وَكُلُّ هَذَا يَستَدْعِي الفِرَارَ وَعَدَمَ التَّرَيُّثِ وَالأَنَاةِ، وَلِذَلِكَ يَعْبُرُ النَّاطِقُ بِهَذِهِ الكَلِمَةِ بِسُرْعَةٍ وَيُدْرِكُ أَنَّهَا لَمْ تَأْخُذْ مَا تَسْتَحِقُّهُ مِنْ **تَمْكِينِ** الصَّوْتِ فَيكُونُ هَذَا مُوحِيًا بِأَنَّ الْمَارِّينَ لَا يَتَوَقَّفُونَ خَوْفًا مِمَّا تُمَثِّلُهُ الأَبْنِيَةُ الْمَرْصُوصَةُ".

وِلَيْتَ **د. حَمَاسَةَ** تَوَقَّفَ عِنْدَ تَفْسِيرِ مَا فَعَلَهُ الشَّاعِرُ بِاستِقَامَةِ الوَزْنِ، وَلَكِنَّ حِرْصَهُ عَلَى الدِّلَالَةِ الإِضَافِيَّةِ لِكُلِّ ظَاهِرَةٍ أَوْقَعَهُ فِي **التكَلُّفِ** مِرَارًا، وَبِقَدْرٍ قَلِيلٍ مِنَ التَّأَمُّلِ نُدْرِكُ أَنَّ السُّرْعَةَ وَعَدَمَ التَّرَيُّثِ وَالأَنَاةِ دِلَالَاتٌ مَفهُومَةٌ مِنْ كَلِمَةِ (الْمَارِّينَ) ذَاتِهَا، سَوَاءٌ أَخُفِّفَتِ الرَّاءُ فِيهَا أَمْ شُدِّدَتْ فَالأَصْلُ فِي مَادَّةِ هَذِهِ الكَلِمَةِ: هُوَ الاجْتِيَازُ عَلَى شَيْءٍ فِي الْحَالِ؛ وَلَوْ أَنَّنَا رَاجَعْنَا سِيَاقَاتِ اسْتِخْدَامِ الفِعْلِ (مَرَّ) وَمَا اشْتُقَّ مِنْهُ فِي تُرَاثِنَا اللغَوِيِّ، لَوَجَدْنَاهُ يُعطِي فِي الأَصْلِ دِلَالَاتِ السُّرْعَةِ؛ أَلَمْ يَقُلْ **جَرِيرُ بنُ عَطِيَّةَ الخطفِيُّ:**

تَمُـرُّونَ الـدِّيَارَ وَلَـمْ تَعُوجُـوا كَلامُكُـمُ عَلَـيَّ إِذَنْ حَـرَامُ

فَأَوْحَى بِسُرْعَةِ مُرُورِهِم، وَعَدَمِ تَلَبُّثِهِم أَوْ تَرَيُّثِهِمْ رُغْمَ أَنَّ الرَّاءَ مُشَدَّدَةٌ فِي كَلِمَةِ (تَمُرُّونَ).

لَكِنَّهُ قَدْ يُعطِي كَذَلِكَ دِلَالَاتِ التوَسُّطِ، وَذَلِكَ مَا رَآهُ بَعْضُ المفَسِّرِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**﴾: "وَقَولُهُ عَزَّ وَجَلَّ .وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ الجِبَالِ فِي تَحْسَبُهَا، وَجَوَّزَ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْ ضَمِيرِهَا فِي جَامِدَة وَمَنَعَهُ أَبُو البقَاءِ لِاسْتِلْزَامِهِ أَنْ تَكُونَ جَامِدَةً وَمَارَّةً فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ أَيْ وَتَرَى الجبَالَ رَأْيَ العَيْنِ سَاكِنةً وَالْحالُ أَنَّهَا تَمُرُّ فِي الْجَوِّ مَرَّ السَّحَابِ التِي تُسَيِّرُهَا الرِّيَاحُ سَيْرًا حَثِيثًا،

وَذَلِكَ أَنَّ الأَجْرَامَ المجْتَمِعَةَ المتكَاثِرَةَ العَدَدِ عَلَى وَجْهِ الالتِصَاقِ إِذَا تَحرَّكَتْ نَحْوَ سَمْتٍ لَا تَكَادُ تُبِينُ حَرَكَتَهَا، وَعَلَيهِ قَوْلُ **النابِغَةِ الْجَعْدِيِّ** فِي وَصْفِ جَيْشٍ:

بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ وُقُوفٌ لِحَاجٍ وَالرِّكَابُ تُهَمْلِجُ

وَقِيلَ: شَبَّهَ مَرَّهَا بِمَرِّ السَّحَابِ فِي كَوْنِهَا تَسِيرُ سَيْرًا وَسَطًا كَمَا قَالَ الأَعْشَى:

كَأَنَّ مِشيَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَرُّ السَّحَائِبِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجَلُ

وَالمشْهُورُ فِي وَجْهِ الشَّبَهِ السُّرْعةُ ..."[1].

وَالعَجِيبُ أَنَّ كَلامَ **د. حَمَاسَةَ** الآنِفَ مَا كَادَ يَجِفُّ مِدَادُهُ حَتَّى نَقَضَهُ فِي النمُوذَجِ التَّالِي، فَزُعْمَ أَنَّ الكَلِمَةَ المخَفَّفَةَ فِي النمُوذَجِ التَّالِي أُخْتٌ لِلكَلِمَةِ السَّالِفَةِ (الْمَارِّينَ)، فَلَيْسَتْ سِوَى مُفْرَدِهَا؛ أَيْ أَنَّ الْمَادَّةَ وَاحِدَةٌ، وَالظَّاهِرَةَ وَاحِدَةٌ (تَخْفِيفُ المشَدَّدِ)، لَكِنَّهَا وُضِعَتْ فِي سِيَاقٍ مُتنَاقِضٍ (سِيَاقِ الأَنَاةِ وَالرَّوِيَّةِ)، ثُمَّ بَقِيَ عَطَاؤُهَا الدِّلَالِيُّ وَاحِدًا (المرُورُ الْخَاطِفُ)، وَنَسِيَ **د. حَمَاسَةُ** مَا أَكَّدَهُ مِنْ أَنَّ الظَّاهِرَةَ تَتَوَحَّدُ وَالتَّأْوِيلُ يَخْتَلِفُ؛ فَأَيُّ تَنَاقُضٍ هَذَا؟!!

يَقُولُ **د. حَمَاسَةُ**: "تَتَكَرَّرُ الكَلِمَةُ بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ فِي قَصِيدَةِ (رُؤْيَا)، حَيْثُ يَقُولُ:

كُلّ صَبَاحٍ يفتح بَاب الكَوْنِ الشَّرْقِيّ/ وَتَخْرُجُ مِنهُ الشَّمْسُ اللَّهَبِيَّه/ وَتَذُوبُ أَعْضَائِي، ثُم تُجَمِّدُهَا/ تُلْقِي نُورًا يَكْشِفُ عُرْيِي/ تَتَخَلَّعُ عَنْ عَوْرَتِي النَّجْمَات/ أَتَجَمَّع فَأْرًا، أَهْوِي مِنْ عَلْيَائِي/ يُلْقَى بِي فِي مَخْزَنِ عِادِيَات/ كَيْ أَتَأَمَّلَ بِعُيُونٍ مُرْتَبِكَه/ مِنْ تَحْتِ الأَرْفُفِ أَقْدَامَ الْمَارَةِ فِي الطُّرُقَات

(١) الألوسي (شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ): **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق علي عبد الباري عطية، ج ١٠، ط ١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥هـ، ص ٤٤.

إِنَّ كَلِمَةَ (الْمَارَة) هُنَا لَا بُدَّ أَنْ تُنْطَقَ بِتَخْفِيفِ التشْدِيدِ فِي الرَّاءِ لأَنَّ تَقْصِيرَ الحرَكَةِ الطَّوِيلَةِ فِي الميمِ سَيُؤَدِّي إِلَى أَنْ تَلْتَبِسَ بِكَلِمَةِ (المَرَّة)، وَمِنْ هُنَا كَانَ تَخْفِيفُ تَشْدِيدِ الرَّاءِ **هُوَ السَّبِيلَ الوَحِيدَ لِضَبْطِ الوَزْنِ.** وَالسِّيَاقِ الَّذِي تَرِدُ فِيهِ هَذِهِ الكَلِمَةُ يَكْشِفُ أَنَّ المتكَلِّمَ يُرِيدُ أَنْ يَمْلَأَ عَينَيْهِ بِرُؤْيَةِ الْمَارَّةِ وَلَكِنَّ عَينَيْهِ مُرْتَبِكَتَانِ، وَالتَّأَمُّلَ يَحْتَاجُ إِلَى أَنَاةٍ وَرَوِيَّةٍ، وَلَا تُسَاعِدُهُ الأَقْدَامُ العَابِرَةُ وَلَا العُيُونُ الْمُرْتَبِكَةُ عَلَى هَذَا التَّأَمُّلِ، فَكَمَا أَنَّ العيُونَ مُرْتَبِكَةٌ نَجِدُ أَقْدَامَ الْمَارَّةِ تَمُرُّ خَطْفًا فِي الطُّرُقَاتِ، وَقَدْ يُوحِي تَخْفِيفُ المشَدَّدِ فِيهَا بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا فِي هَذَا السِّيَاقِ"(١).

كَدَأْبِكَ مِنْ **د. حَمَاسَةَ** يُؤَكِّدُ ضَرُورَةَ الظَّاهِرَةِ لِضَبْطِ الوَزْنِ، ثُمَّ لَا يَكْتَفِي بِذَلِكَ، وَلَا يَرْضَى حَتَّى يُضِيفَ دِلَالَةً أُخْرَى يَرْبِطُهَا بِالسِّيَاقِ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ الظَّاهِرَةُ، وَالْحَقُّ أَنَّ دِلَالَةَ المرُورِ الْخَاطِفِ مَفهُومَةٌ مِنَ الكَلِمَةِ ذَاتِهَا، وَلَيْسَ مِنْ تَشْدِيدِ الرَّاءِ أَوْ تَخْفِيفِهَا، وَمِنْ حَقِّنَا أَنْ نَسْتَغْرِبَ مِنْ أُستَاذِنَا الدُّكتُورِ **حَمَاسَةَ** رَبْطَهُ الدِّلَالَاتِ المتغَيِّرَةَ لِلكَلِمَةِ بِتَغَيُّرٍ صَوْتِيٍّ فِي مَقَاطِعِهَا اقْتَضَاهُ الوَزْنُ، وَأَلَّا يَرْبِطَهُ بِعَلَاقَاتِ الكَلِمَةِ التَّرْكِيبِيَّةِ كَمَا فَعَلَ عَبْدُ القَاهِرِ الجرجَانِيّ فِي نَظَرِيَّةِ النظْمِ، فَإِنَّمَا تَكْتَسِبُ الكَلِمَةُ دِلَالَاتِهَا بِمَا جَاوَرَهَا مِنْ كَلِمَاتٍ، بَلْ إِنَّ الْجُرجَانِيَّ لَمْ يُعِرْ نَظْمَ الْحُرُوفِ اهتِمَامًا، وَإِنَّمَا اسْتَدْلَلْنَا بِالْجُرجَانِيِّ تَحْدِيدًا؛ لأَنَّ **د. حَمَاسَةَ**، وَصَلَ رُؤْيَتَهُ النحْوِيَّةَ بِنَظَرِيَّةِ النظْمِ عِنْدَهُ، وَقَدْ جَعَلَ الْجُرجَانِيُّ الفَضِيلَةَ وَالْمَزِيَّةَ فِي انْتِظَامِ الكَلِمَاتِ عَلَى نَحْوٍ خَاصٍّ يُرَاعِي مَعَانِيَ النحْوِ، وَهَذَا كَلَامُ عَبدِ القَاهِرِ:

"**وَمِمَّا يَجِبُ إِحْكَامُهُ بِعقبِ هَذَا الفَصْلُ، الفَرْقُ بَينَ قَوْلِنَا: (حُرُوفٌ مَنظُومَةٌ)، وَ(كَلِمٌ مَنظُومَةٌ). وَذَلِكَ أَنَّ نَظْمَ الْحُرُوفِ هُوَ تَوَالِيهَا فِي النطْقِ،**

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور دراسة نصية**، ص ٧٨، ٧٩.

وَلَيْسَ نَظْمُهَا بِمُقْتَضَى عَنْ مَعْنًى، وَلَا النَّاظِمُ لَهَا بِمُقْتَفٍ فِي ذَلِكَ رَسْمًا مِنَ العَقْلِ اقْتَضَى أَنْ يَتَحَرَّى فِي نَظْمِهِ لَهَا مَا تَحَرَّاهُ. فَلَوْ أَنَّ وَاضِعَ اللغَةِ كَانَ قَدْ قَالَ: (رَبَضَ) مَكَانَ (ضَرَبَ)، لَمَا كَانَ فِي ذَلِكَ مَا يُؤَدِّي إِلَى فَسَادٍ. وَأَمَّا (نَظْمُ الكَلِمِ) فَلَيْسَ الأَمْرُ فِيهِ كَذَلِكَ، لِأَنَّكَ تَقْتَفِي فِي نَظْمِهَا آثَارَ الْمعَانِي، وَتُرَتِّبُهَا عَلَى حَسَبِ تَرَتُّبِ المعَانِي فِي النفْسِ. فَهُوَ إِذَنْ نَظْمٌ يُعتَبَرُ فِيهِ حَالُ المنْظُومِ بِعْضِهِ مَعَ بَعْضٍ، وَلَيسَ هُوَ (النَّظْمَ) الَّذِي مَعْنَاهُ ضَمُّ الشَّيْءِ إِلَى الشَّيْءِ كَيفَ جَاءَ وَاتَّفَقَ ... وَالفَائِدَةُ فِي مَعْرِفَةِ هَذَا الفَرْقِ: أَنَّكَ إِذَا عَرَفْتَهُ عَرَفْتَ أَنْ لَيْسَ الغَرَضُ بِنَظْمِ الكَلِمِ، أَنْ تَوَالَتْ أَلْفَاظُهَا فِي النُّطْقِ، بَلْ أَنْ تَنَاسَقَتْ دِلَالَتُهَا وَتَلَاقَتْ مَعَانِيهَا، عَلَى الوَجْهِ الَّذِي اقْتَضَاهُ العَقْلُ. وَكَيْفَ يُتَصَوَّرُ أَنْ يُقْصَدَ بِهِ إِلَى تَوَالِي الأَلْفَاظِ فِي النطْقِ، بَعْدَ أَنْ ثَبَتَ أَنَّهُ نَظْمٌ يُعتَبَرُ فِيهِ حَالُ المنظُومِ بَعضِهِ مَعَ بَعْضٍ"(١).

وَفِي كَلامِ **عَبْدِ القَاهِرِ** ذَاتِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الظَّاهِرَةَ الوَاحِدَةَ لَا تَحْسُنُ فِي كُلِّ مَوَاضِعِهَا، لَكِنَّ **د. حَمَاسَةَ** رَأَى كُلَّ مَا أَتَاهُ صَلَاحُ عَبْدِ الصبُورِ حَسَنًا، يَقُولُ عَبْدُ القَاهِرِ: "... ثُمَّ اعْلَمْ أَنْ لَيْسَتِ الْمَزِيَّةُ بوَاجِبَةٍ لَهَا فِي أَنْفُسِهَا، وَمِنْ حَيْثُ هِيَ عَلَى الإِطْلَاقِ، وَلَكِنْ تَعْرِضُ بِسَبَبِ المعَانِي وَالأَغْرَاضِ التِي يُوضَعُ لَهَا الكَلَامُ، ثُمَّ بِحَسَبِ مَوْقِعِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ، وَاسْتِعْمَالِ بَعضِهَا مَعَ بَعْضٍ.. تَفْسِيرُ هَذَا: أَنَّهُ لَيْسَ إِذَا رَاقَكَ التنْكِيرُ فِي «سُؤْدُدٍ» مِنْ قَولِهِ: «تَنقّلَ فِي خُلُقَي سُؤْدُدٍ»، وَفِي «دَهْرٍ» مِنْ قَوْلِهِ: «فَلَوْ إِذْ نَبَا دَهْرٌ»، فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَرُوقَكَ أَبَدًا وَفِي كُلِّ شَيْءٍ ... بَلْ لَيْسَ مِنْ فَضْلٍ وَمَزِيَّةٍ إِلَّا بِحَسَبِ الْمَوْضِعِ، وَبِحَسَبِ المعْنَى الَّذِي تُرِيدُ وَالغَرَضِ الَّذِي تَؤُمُّ"(٢).

---

(١) عبد القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، ص ٤٩.

(٢) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور دراسة نصية**، ص ٧٨، ٧٩.

هَـذَا، وَلَا يَختَلِـفُ تَعامُـلُ **د. حَمَاسَـة** مَـعَ الموْضِـعيْنِ البَـاقِييْنِ لِهـذِهِ الظـاهِرَةِ، فَقَدْ لَحِظَ أَنَّ الشَّـاعِرَ خَفَّفَ بَـاءَ كَلِمَـةِ (شَابًا) فِـي قَوْلِـهِ: "**.../نَلْقَاكَ شَابًا فِـي رِدَاءِ الْحَرْبِ تَنْفُخُ فِـي النَّفِير**/..."، مِنْ قَصِيدَتِهِ (الحلْمُ وَالأُغنيَة: مَرثِيَّةٌ لِعَبْدِ النَّاصِرِ). وَرُغْمَ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** يُشِيرُ إِلَـى اضْطِرَارِ الشَّـاعِرِ إِلَـى هَذَا التَّخْفِيفِ؛ لِأَنَّ الوَزْنَ يَستَدْعِيهِ؛ فَإِنَّـهُ يَلْحَظُ أَنَّ السِّيَاقَ يُشِيرُ إِلَـى قِصَرِ حَيَـاةِ عَبدِ النَّاصِـرِ؛ فَلَـمْ يَكُـنْ بُـدٌّ مِـنْ أَنْ يُـوحِيَ ذَلِـكَ التخْفِيـفُ بِقِصَـرِ فَتْـرَةِ الشَّبَابِ، يَقُولُ **د. حَمَاسَةُ:** "فِي هَذَا السيَاقِ الَّذِي يُشِيرُ إِلَى قِصَرِ حَيَاةِ عَبْدِ النَّاصِرِ الحافِلَةِ، وَعُبورِهِ مِنَ الشَّبَابِ إِلَى الكُهُولَةِ وَشَيْبِ الفَوْدَيْنِ بِسُرعَةٍ تَأْتِي كَلِمَـةُ (شَابًا) التِـي **يَسْتَدْعِي الـوَزْنُ أَلَّا تُشَدَّدَ فِيهَا البَـاءُ حَتَّـى يَستَقِيمَ**، وَقَدْ يُوحِي هَذَا بِقَصَرِ فَتْرَةِ الشَّبَابِ الَّذِي امْتَلأَ بِالعَمَلِ وَالكِفَاحِ وَجَمْعِ أَشْلَاءِ مِصْرَ الممَزَّقَةِ، مِمَّـا يُـوحِي بِأُسْـطُورَةِ إِيـزِيسَ وَأُوزُورِيـسَ حَتَّـى مَضَـى هَـذَا الشَّـبَابُ وَصَارَ كَهْلًا أَشْيَبَ الفَوْدَيْنِ، ثُمَّ مَضَتْ حَيَاتُهُ كُلُّهَا عَنْ دُنْيَا الأَحْيَاءِ"[(١)].

وَيَتَّصِلُ بِذَلِكَ المسْلَكِ مَا فعَلَهُ **د. حَمَاسَةُ** فِـي الموْضِـعِ الرَّابِـعِ مِنْ تِلْكَ الظَّـاهِرَةِ؛ فَلَـمْ يَتخِذِ اسْمَهَا تُكَـأَةً إِلَـى الدِّلالَـةِ النصِّيَّةِ، وَإِنَّمَـا أَخَذَ دِلالَـةَ الكَلِمَـةِ ذَاتِهَا التِي وَردَتْ فِيهَا ظَاهِرَة (تَخْفِيفِ المشَدَّدِ) وَمَنحَهَا للظَّاهِرَةِ، فَكَانَ صَنِيعُهُ أَبْعَدَ فِـي التكَلُّفِ وَالاعْتِسَافِ، وَهَذَا قَوْلُـهُ عن **الْمَوْضِـعِ الرَّابِـعِ**: "جَـاءَتْ كَلِمَـةُ (الضَّالَة) مُخَفَّفَةَ اللَّامِ – **كَمَـا يَقْتَضِـي الـوَزْنُ**[(٢)] – فِـي قَصِيدَةِ (حِوَارٌ) حَيْثُ يَقُولُ المتكَلِّمُ جَوَابًا عَنْ سُؤَالِ (أَنْتَ مِنْ سُكَّانِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ):

وَصَلْتُهَا فِي وَسَطِ الصَّيْفِ بُيُوتُهَا التِّلَال/ وَصَوْتُهَا تَحْتَ سِيَاطِ الشَّمْسِ وَالرِّمَال/ تَئِنّ../تُخْطِئُهُ مَسَامِعُ الأَرْصَادِ وَالرِّجَال/ تَسْمَعهُ كِلَابُهَا الضَّالَةُ، مُحْتَضِرُوهَا/...

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور دراسة نصية**، ص ٨٧.

(٢) لَا رَيْبَ أن هَذِهِ الجمْلَةَ الاعتِرَاضِيَّةَ تُؤَكِّدُ فِكْرَةَ الضَّرُورَةِ التِي يُنْكِرُهَا **د. حَمَاسَةُ!!**

فَهَذِهِ المدِينَـةُ التِي تَرْفُضُ الأَغْرَابَ يَئِنُّ صَوْتُهَا تَحْتَ سِيَاطِ الشَّمْسِ فَلَا يَسْمَعُ أَنِينَهَا إِلَّا أَرْبَـعُ فِئَاتٍ... وَهِيَ كُلُّهَا فِئَاتٌ مَنْبُوذَةٌ لَا شَأْنَ لَهَا فِي نَظَـرِ أَهْلِ هَـذِهِ الْمَدِينَـةِ الغَرِيبَـةِ، وَتَـأْتِي الكِـلَابُ الضَّـالَّةُ أَوَّلَ هَـذِهِ الفِئَـاتِ الأَرْبَـعِ، وَالكِـلَابُ مَعْرُوفَـةٌ بِالوَفَـاءِ، وَقَدْ وُصِفَتْ بِأَنَّهَا ضَـالَّةٌ، وَهَذَا الوَصْفُ يَكْشِفُ عَنْ عَدَمِ الاهتِمَامِ بِهَا بِرُغْمِ وَفَائِهَا، **وَتَـأْتِي كَلِمَـةُ (الضَّالَة) مُخَفَّفَـةَ اللَّامِ مُخَالِفَـةً لِطَرِيقَـةِ اسْتِعْمَالِهَا الصَّحِيحَةِ لِتَكْشِفَ هَوَانَ شَأْنِهَا فِـي نَظَرِ هَذِهِ الْمَدِينَـةِ الغَرِيبَـةِ**"[1].

وَمَا كَانَ أَغْنَـى **د. حَمَاسَـةَ** عَنِ الجمْلَـةِ الأَخِيرَةِ فِـي كَلامِـهِ السَّالِفِ؛ بَعْدَمَا قَالَ بِأَنَّ وَصْفَ الكِلَابِ بِأَنَّهَا ضَـالَّةٌ يَكْشِفُ عَنْ عَدَمِ الاهْتِمَامِ بِهَا بِرُغْمِ وَفَائِهَا؛ ذَلِكَ أَنَّ هَوَانَ شَأْنِ الكِلَابِ مُكْتَسَبٌ مِنْ وَصْفِهَا (الضَّالَّةِ) وَلَيْسَ مِنْ تَخفِيفِ اللَامِ، فَهَوَانُ شَأْنِ الكِلَابِ مُتحَقِّقٌ سَوَاءٌ أَخُفِّفَتِ اللَّامُ أَمْ شُدِّدَتْ، لَكِنَّ حِرْصَ **د. حَمَاسَةَ** عَلَى تَسْوِيغِ مُخَالفَاتِ الشَّاعِرِ، وَتَوْلِيدِ دِلَالَاتٍ لَهَا – وَإِنْ كَانَتْ لَا تَقُولُهَا – هُوَ مَا أَوْقَعَهُ فِي هَذَا التكَلُّفِ وَالْخَطَأ.

وَأَمَّا **الظَّـاهِرَةُ الثَّامِنَـةُ (تَشْدِيدُ غَيْرِ المشَدَّدِ)**، فَلَمْ يَرِدْ مِنْهَا فِي شِعْرِ صَلاح عَبدِ الصَّبُورِ إِلَّا تَشْدِيدُ مِيمِ كَلِمَةِ (دَمٍ) مَرَّةً وَاحِدَةً وَتَشْدِيدُ الْخَاءِ مِنْ كَلِمَـةِ (الدُّخَانِ) أَرْبَـعَ مَرَّاتٍ[2]، وَقَدْ وَجَدَ **د. حَمَاسَـةُ** لِتَشْدِيدِ الميمِ مِنْ كَلِمَـةِ (دَمٍ) أَصْلًا تُرَاثِيًّا، لَكِنَّهُ لَمْ يُؤَصِّلْ تَشْدِيدَ الْخَاءِ فِي كَلِمَةِ (دُخَانٍ).

وَقَدْ جَاءَتْ كَلِمَةُ (الدَّمِ) مُخَفَّفَةَ الميمِ فِي قَصِيدَةِ (يَا نَجْمِي يَا نَجْمِيَ .. الأَوْحَد)، حَيْثُ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

يَا نَجْمِي يَا نَجْمِيَ الأَوْحَد/ مَا يَصْنَعُ قِزْمَانِ الْتَقَيَا فِي ظِلِّ المسَاء/ مَنْهُوكَيْن/ وَعَلِيلَيْن/ نَظَرَا فِي اسْتِحْيَاء/ عَرَفَا الأَيَّامَ الممْرُورَه/ وَأَنِينَ النَّفْسِ الْمَكْسُورَه/ وَسُعَارَ الدَّمِّ الْمُذْنِبِ حِينَ يَحِنُّ إِلَى الدَّم.

(١) السابق: ص ٨٢.

(٢) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور دراسة نصية**، ص ٨٣.

وَيَقُولُ **د. حَمَاسَةُ:** "وَالتشْدِيدُ هُنَا فِي كَلِمَةِ (الدَّمِّ) يُعطِيهَا تَرْكِيزًا صَوْتِيًّا أَكْثَرَ، وَكَأَنَّ الشَّاعِرَ يُرِيدُ أَنْ يَلْفِتَ إِلَيْهَا الأَسْمَاعَ بِهَذِهِ المخَالَفَةِ الاسْتِعْمَالِيّةِ عَلَى مُستَوَى الفُصْحَى ذَاتِ الأَصْلِ القَدِيمِ عَلَى مَا رَأَيْنَا، وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ لَا يَسْتَقِيمُ الوَزْنُ فِي بَيْتِ صَلَاحِ عَبْدِ الصَّبُورِ إِلَّا بِتَشْدِيدِ المِيمِ فِي كَلِمَةِ (الدّمِّ)"[(١)].

وَالسُّؤَالُ الَّذِي يَطْرَحُ نَفْسَهُ: لِمَ يَلفِتُ التشْدِيدُ الأَسْمَاعَ إِلَى هذهِ الكَلِمَةِ وَحْدَهَا، وَلَا يَلْفِتُهَا إِلَى كَلِمَةِ (يَحِنُّ) – مَثَلًا – وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي السَّطْرِ نَفْسِهِ، كَمَا أَنَّهَا مُشَدَّدَةُ النُّونِ أَصْلًا لَا مُخَالَفةً؟! ثُمَّ مَاذَا بَعْدَ أَنْ يُعْطِيَ التَّشْدِيدُ الكَلِمَةَ تَرْكِيزًا صَوْتِيًّا أَكْثَرَ، أَوْ يَلْفِتَ إِلَيْهَا الأَسْمَاعَ؟

أَوَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يَصِحُّ مِنْ كَلَامِ **د. حَمَاسَةَ** السَّالِفِ إِلَّا آخِرُهُ: "وَفِي الوَقْتِ نَفْسِهِ لَا يَسْتَقِيمُ الوَزْنُ فِي بَيْتِ صَلَاحِ عَبْدِ الصَّبُورِ إِلَّا بِتَشْدِيدِ المِيمِ فِي كَلِمَةِ (الدّمِّ)"؟!

وَيَبْدُو أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** لَمَ يَجِدْ لِتَشْدِيدِ الْخَاءِ فِي كَلِمَةِ (الدُّخَانِ) أَصْلًا تُرَاثِيًّا، فَاسْتَبْدَلَ بِتَأْصِيلِهَا، إِشَارَةً إِلَى مَا قَالَهُ القُدَمَاءُ عَنْ تَشْدِيدِ عَيْنِ الفِعْلِ، ثُمَّ بَنَى دِلَالَةَ تَشْدِيدِ الخاءِ فِي كَلِمَةِ (الدُّخَانِ) عَلَى مَا لَحِظَهُ القُدَمَاءُ؛ حَيْثُ قَالَ فِي أَوَّلِ مَوَاضِعِهَا فِي شِعْرِ صَلَاحِ عَبدِ الصَّبُورِ: "وَأَمَّا كَلِمَةُ (الدُّخَانِ) فَإِنَّ صَلَاحَ عَبدِ الصَّبُورِ يَستَخْدِمُهَا أَحْيَانًا بِتَشْدِيدِ الخَاءِ، وَأَحْيَانًا يَستَخْدِمُهَا دُونَ أَنْ يُشَدِّدَ الْخَاءَ، وَقَدِ اسْتَخْدَمَهَا مُشَدَّدَةَ الْخَاءِ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ، المَوْضِعُ الأَوَّلُ فِي قَصِيدَةِ (السَّلام) يَقولُ:

كُنَّا عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ عِصَابَةً مِنْ أَشْقِيَاء/ مُتَعَذِّبِينَ كَآلِهَه/ بِالْكُتبِ وَالأَفْكَارِ وَالدُّخَّانِ وَالزَّمَنِ الْمَقِيتِ/ طَالَ الكَلَامُ مَضَى المسَاءُ لَجَاجَة طَالَ الكَلَامُ/ وَابْتَلَّ وَجْهُ اللَّيْلِ بِالأَنْدَاء.

(١) السابق: ص ٨٤.

وَقَدْ لَاحَظَ القُدَمَاءُ أَنَّ التشْدِيدَ يَقْتَضِي التكْثِيرَ وَالمبالغَةَ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ الَّذِي لَاحَظُوهُ خَاصًّا بِعَيْنِ الفِعْلِ، وَنَحْنُ نُلَاحِظُ أَنَّ التشْدِيدَ هُنَا يُفِيدُ المبَالَغَةَ وَالتكْثِيرَ أَيْضًا؛ إِذْ إِنَّ القَارِئَ لِهَذِهِ القَصِيدَةِ يَسْتَشْعِرُ أَنَّ الكُتُبَ وَالأَفْكَارَ مُخْتَلِطَةٌ مُتدَاخِلَةٌ كَمَا يَتدَاخَلُ الدُّخَانُ الكَثِيفُ وَيَخْتَلِطُ بَعضُهُ بِبَعْضٍ، وَلَعَلَّ كَثَافَةَ الدُّخَانِ قَدْ تُفْهَمُ مِنْ تَشْدِيدِ الْخَاء فِي هَذَا السِّيَاقِ" (١).

وَجَلِيٌّ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** يُؤَكِّدُ مَا زَعَمْنَاهُ مِنَ اتِّخَاذِ اسْمِ الظَّاهِرَةِ تُكَأَةً إِلَى دِلَالَتِهَا، وَيُؤَكِّدُ فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ مَا قُلْنَاهُ غَيْرَ مَرَّةٍ بِأَنَّهُ يَمْنَحُ الظَّاهِرَةَ دِلَالَةَ السِّيَاقِ، وَدَلِيلُ ذَلِكَ كَلِمَةُ (الدُّخَان) نَفْسِهَا؛ إِذْ وَرَدَتْ مُشَدَّدَةَ الْخَاءِ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى، فَكَانَتْ لَهَا دِلَالَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ؛ هِيَ دِلَالَاتُ السِّيَاقَاتِ التِي وَرَدَتْ فِيهَا، وَلِكَيْلَا أُسْرِفَ فِي نَقْلِ كَلامِ **د. حَمَاسَةَ**، فَإِنَّنِي أُشِيرُ – فَحَسْبُ – إِلَى رَبْطِهِ الدِّلَالَةَ بِالسِّيَاقِ فِي المَوَاضِعِ الثَّلَاثِ البَاقِيَةِ دُونَ نَقْلِ كَلَامِ الشَّاعِرِ؛ فَمِمَّا قَالَهُ **د. حَمَاسَةُ** عَنِ الموَضِعَيْنِ الثانِي، وَالثَّالِثِ: "وَإِذَا أَوْحَى تَشْدِيدُ الْخَاءِ فِي لَفْظِ الدُّخَانِ هُنَا بِالكَثَافَةِ وَالاخْتِلَاطِ وَالتدَاخُلِ، فَإِنَّهُ فِي سِيَاقٍ آخَرَ قَدْ يُوحِي بِالطُّولِ وَالامْتِدَادِ؛ وَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ فِي قَصِيدَةِ (تَأَمُّلَاتٌ لَيْلِيَّةٌ): ... وَفِي السِّيَاقِ الأَخِيرِ نَفْسِهِ تَأْتِي الْمَرَّةُ الثَّالِثَةُ لِاستِخْدَامِ هَذِهِ الكَلِمَةِ مُشَدَّدَةَ الْخَاءِ وَلَكِنَّهَا تَكْتَسِبُ دِلَالَةً مُخْتَلِفَةً قَدْ تُوحِي بِالتَّأكِيدِ عَلَى الاستِطَالَةِ وَالامتِدَادِ، وَفِي القَصِيدَةِ نَفْسِهَا يَقُولُ فِي المقْطَعِ الرَّابِعِ مِنْهَا ..."(٢).

وَمِمَّا قَالَهُ عَنِ الموضِعِ الرَّابِعِ: "يَستَخْدِمُ صَلَاحُ عَبدِ الصَّبُورِ كَلِمَةَ (دُخَان) مُشَدَّدَةَ الْخَاءِ مَرةً أُخْرَى فِي قَصِيدَةِ (رُؤْيَا) وَسِيَاقُ هَذِهِ القَصِيدَةِ يُوحِي بِالتفَرُّدِ وَالوَحْشَةِ وَالاغتِرَابِ وَالمعَانَاةِ الْخَاصَّةِ، وَفِي المقْطَعِ الثَّانِي مِنْهَا يَقُولُ:

---

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور دراسة نصية**، ص ٨٤، ٨٥.

(٢) السابق، ص ٨٥.

حِينَ تَدُقُّ السَّاعَةُ دَقَّتَهَا الأُولَى/ تَبْدَأُ رِحْلَتِي اللَّيْلِيَّةْ/..../ يَتحَوَّلُ جِسْمِي دُخَّانًا وَنَدَاوَه/ تَرْقُدُ أَعْضَائِي فِي ظِلِّ نُجُومِ اللَّيْلِ الوَهَّاجَةِ وَالْمُنْطَفِئَه/ تَتَآكَلُهَا الظُّلْمَةُ وَالأَنْدَاءُ لِتَنْحَلَّ صَفَاءً وَهَيُولَى/...

فِي هَذَا السِّيَاقِ تَأْتِي كَلِمَةُ (دُخَّان) مُشَدَّدَةَ الْخَاء لِتُوحِيَ بِثَقَلِ التشْدِيدِ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ثِقَل الْمَادَّةِ التِي يُرَادُ تَحْوِيلُهَا إِلَى صَفَاءٍ مُطْلَقٍ فَتُعَبِّرُ عَنْ مَرْحَلَةٍ مِنْ مَرَاحِلِ التحَوُّلِ بَينَ الْمَادَّةِ الْخَالِصَةِ، وَالْهَيُولَى وَهِيَ الْمَادَّةُ التِي لَيْسَ لَهَا شَكْلٌ وَلَا صُورَةٌ مُعينَةٌ قَابِلَةٌ لِلتَّشْكِيلِ وَالتصْوِيرِ فِي شَتَّى الصُّوَرِ حَسْبَ القُدَمَاءِ"[١].

وَلَسنَا نُمَارِي **د. حَماسَةَ** فِي فَضْلِ السِّيَاقِ، وَدَورِهِ فِي تَنْوِيعِ الدِّلَالَاتِ، وَإِنَّمَا نُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى تَنَاقُضِهِ مَعَ مَا دَعَا إِلَيْهِ فِي مَبَادِئِهِ النظَرِيَّةِ مِنْ ضَرُورَةِ عَزْلِ النصِّ عَنْ سِيَاقِهِ[٢]، وَلَئِنْ كَانَ يَقْصِدُ بَهَذِهِ الدَّعْوَةِ السِّيَاقَ الْخَارِجِيَّ دونَ السِّيَاقِ اللُّغَوِيِّ، لَقَدْ وَقَع فِي التنَاقُضِ كَذَلِكَ؛ فَإِنَّ لَهُ كَلَامًا صَرِيحًا عَنْ أَهَمِّيَّةِ الموْقِفِ أَوِ السيَاقِ الْخَارِجِيِّ وَدَوْرِهِ فِي قِرَاءَةِ النصِّ؛ مِنْ ذَلِكَ إِشَارَتُهُ إِلَى أَنَّ النحْوَ التعْلِيمِيَّ الَّذِي لَا يُعنَى بِمُلَابسَاتِ الكَلَامِ وَمَا يَكتَنِفُ السِّيَاقَ؛ لأَنَّهُ مَعْنِيٌّ بِتَوْضِيحِ جَانِبٍ وَاحِدٍ مِنْ جَوَانِبِ المعْنَى وَهُوَ المعْنَى النَّحْوِيُّ الْمُجَرَّدُ أَيْ عَلَاقَةُ الفَاعِلِيَّةِ وَالمفْعُولِيَّةِ وَغَيْرِهِمَا؛ هَذَا النَّحْوُ يَجِدُ نَفْسَهُ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ مُضْطَرًّا لِلرجُوعِ إِلَى السِّيَاقِ وَمُلابَسَاتِ الكَلَامِ مِنْ أَجْلِ تَوضِيحِ المعنَى النحْوِيِّ نَفْسِهِ، وَهَذَا الضَّرْبُ مِنَ السيَاقِ – كَمَا هُوَ وَاضِحٌ – سِيَاقٌ غَيْرُ لُغَوِيٍّ[٣].

---

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور دراسة نصية**، ص ٨٦، ٨٧.

(٢) انظُرْ تَفصِيلًا لِهذَا المبدَأِ فِي بَحْثِيَ السَّابِقَ: (**أُصولُ التحْليلِ النصيِّ – قِرَاءةٌ في مُنجَزِ د. محمَّد حماسَة عَبدِ اللطِيفِ**)، ص١٧٠٧، وَمَا بَعْدَهَا.

(٣) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **النحو والدلالة**، ص ١١٤، ١١٥.

بَلْ إِنَّ **د. حَمَاسَةَ** يُهَوِّنُ دَوْرَ السِّيَاقِ اللغَوِيِّ لِصَالِحِ السِّيَاقِ الْخَارِجِيِّ أَوِ المَقَامِ، فَيَقُولُ: "وَمِنْ قَدِيمٍ أَشَارَ العُلَمَاءُ إِلَى أَهَمِّيَّةِ السِّيَاقِ أَوِ الْمَقَامِ وَتَطَلُّبِهِ مَقَالًا مَخْصُوصًا يَتَلاءَمُ مَعَهُ وَقَالُوا عِبَارَتَهُمُ الموجَزَةَ الدَّالَّةَ التِي يَصِفُها الدُّكْتُورُ **تَمَّام حَسَّان** بِأَنَّهَا قَفْزَةٌ مِنْ قَفَزَاتِ الفِكْرِ وَهِيَ (لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ). **وَلَا تَكُونُ لِلعَلاقَةِ النحْوِيَّةِ مَيْزَةٌ فِي ذَاتِهَا، وَلَا لِلكَلِمَاتِ المخْتَارَةِ مَيْزَةٌ فِي ذاتها**[1]، وَلَا لِوَضْعِ الكَلِمَاتِ المخْتَارَةِ مَوْضِعَهَا الصَّحِيحَ مَيْزَةٌ فِي ذَاتِهَا مَا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ كُلُّهُ فِي سِيَاقٍ مُلائِمٍ"[2].

وَزِدْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ العُلَمَاءَ – قُدَمَاءَ وَمُحْدَثِينَ، عَرَبًا وَأَعَاجِمَ – حِينَ تَحدَّثُوا عَنْ دَوْرِ السِّيَاقِ فِي إِنْتَاجِ الدِّلَالَةِ وَتَنوِيعِهَا؛ إِنَّمَا كَانُوا يَقْصِدُونَ دِلَالَةَ العَلَاقَاتِ النحْوِيَّةِ (التَّرَاكِيبِ)، أَوِ الكَلِمَاتِ عَلَى الأَقَلِّ، وَلَمْ يَقْصِدُوا تَنَوُّعَ دِلَالَاتِ الظَّوَاهِرِ الصَّوتِيَّةِ بِتَنَوُّعِ سِيَاقَاتِهَا، نَاهِيكَ بِأَنْ تَكُونَ هَذِهِ الظّوَاهِرُ مُخَالفَاتٌ أَوْ خُرُوجًا عَلَى أَصْلٍ، عَلَى نَحْوِ مَا فَعْلِ **د. حَمَاسَةَ** حِينَما جَعَلَ دِلَالَاتِ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ التِي تَنَاوَلَها مُتنَوِّعةً بِتَنَوُّعِ سِيَاقَاتِهَا؛ كُلَّمَا وُضِعَتْ فِي سِيَاقٍ قَالَتْ مَعْنًى مُخْتَلِفًا!

وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ تَصَوُّرٌ غَالِطٌ – فِيمَا إِخَالُ – بَنَى **د. حَمَاسَةُ** كِتَابَهُ عَلَيْهِ؛ إِذْ يَرَى أَنَّ الشَّاعِرَ لَا يَفْعَلُ شَيْئًا عَبَثًا؛ وَإِذَا أَخْطَأَ أَوْ خَالَفَ عُرْفًا لُغَوِيًّا فَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ عَنْ قَصْدٍ، وَعَلَيْنَا أَنْ نَجِدَ لِذَلِكَ الانْحِرَافِ دِلَالةً، وَأَلَّا نُسَارِعَ إِلَى تَخْطِئَةِ الشَّاعِرِ، يَقُولُ **د. حَمَاسَةُ:** "إِنَّ الشَّاعِرَ يَستَخْدِمُ الكَلِمَاتِ عَنْ

(١) لَاحِظْ أَنَّ هَذَا الكَلامَ تَحدِيدًا يتناقَضُ مَعَ كِتَابِ **د. حَمَاسَةَ** (شِعرُ صلاح الصبور دراسة نصية)؛ ذَلِكَ أَنَّهُ جَعَلَ كُلَّ انحِرَافَاتِ صَلَاح عَبْدِ الصَّبورِ مَقْصُودَةً، أَيْ أَنَّ الشَّاعِرَ يَأْتِيهَا وَاعِيًا مُخْتَارًا غَيرَ مُضطَرٍّ، كَما جَعَلَ لِكُلِّ انحِرَافٍ مَيْزَةً فِي ذَاتِهِ، حينَ جعلَ لَهُ دِلَالةً خَاصَّةً.

(٢) السابق: ص ٩٨.

قَصْدٍ، وَلَيْسَ اسْتِخْدَامُهُ لَهَا عَشْوَائِيًّا، **وَقَدْ يَكُونُ هَذَا القَصْدُ غَيْرَ وَاعٍ**[١]، وَلَكِنَّ الرُّؤْيَةَ الفَنِيَّةَ تُوَجِّهُ اسْتِعْمَالَهُ لِلغَةِ سَوَاءٌ مِنْ حَيْثُ الْمُفْرَدَاتُ أَوْ مِنْ حَيْثُ التَّرَاكِيبُ؛ وَلِذَلِكَ عِنْدَمَا يَنْحَرِفُ بِهَا عَنِ استِعمَالِهَا الْمَأْلُوفِ لَا بُدَّ أَنْ نَحْمِلَ ذَلِكَ عَلَى مَحْمَلِ الجِدِّ وَنُحَاوِلَ تَفْسِيرَهَا التفْسِيرَ الَّذِي يَتَلَاءَمُ وَسِيَاقَ النصِّ. وَبِطَبِيعَةِ الحَالِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ هَذَا الاسْتِخْدَامُ الانْحِرَافِيُّ مُتوَافِقًا مَعَ الوَزْنِ، وَهَذَا التوَافُقُ الوَزْنِيُّ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ مَدْعَاةً لِلقَوْلِ بِأَنَّهُ اضْطُرَّ إِلَى ذَلِكَ وَكَفَى.

وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الدِّلَالَةُ المتوَلِّدَةُ عَنْ الانْحِرَافِ بِالصِّيغَةِ عَنْ مَأْلُوفِ اسْتِعْمَالِهَا غَيْرَ مَقْصُودَةٍ إِذَا تَأَكَّدَ لَدَيْنَا أَنَّ الشَّاعِرَ يَسْتَخْدِمُ هَذِهِ الكَلِمَةَ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ الانْحِرَافِيَّةِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَرِدُ فِيهَا، أَمَّا إِذَا كَانَ يَستَخْدِمُهَا أَحْيَانًا بِصِيغَتِهَا الأَصْلِيَّةِ وَأُخْرَى بِصِيغَتِهَا الانْحِرَافِيَّةِ، فَإِنَّ هَذَا يَدْعُو إِلَى مُحَاوِلَةِ تَفْسِيرِ ذَلِكَ. وَفِي شِعْرِ صَلَاح عَبْدِ الصَّبُورِ اسْتِخْدَامٌ لِكَلِمَةِ (الدُّخَانِ) بِدُونِ أَنْ تَكُونَ مُشَدَّدَةَ الْخَاءِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَثَلًا قَوْلُهُ فِي قَصِيدَةِ (رِحْلَةِ اللَّيْلِ):

فِي آخِرِ المسَاءِ يَمْتَلِي الوِسَادُ بِالوَرَقِ/ كَوَجْهِ فَأْرٍ مَيِّتٍ طَلَاسِم
الخطُوطِ/وَيَنْضَحُ الَجَبِينُ بِالعَرَقِ/ وَيَلْتَوِي الدُّخَانُ أُخطُبُوط

وَقَولُهُ فِي قَصِيدَةِ (لُورْكَا):

لُورْكَا صَدْرٌ عُرْيَانٌ مِنْ زَبَدٍ وَدُخَان/ عَلَمٌ لِلشُّجْعَانْ

حَيْثُ لَا يُمْكِنُ تَشْدِيدُ الخاءِ فِي كَلِمَةِ (دُخَان) فِي قَصِيدَة (لُورْكَا). بَلْ كَانَ الانْحِرَافُ بِصِيغَةِ الكَلِمَةِ يُؤَدِّي إِلَى جَعْلِ الصِّيغَةِ الأَصْلِيةِ ذَاتَ دِلَالَةٍ خَاصَّةٍ عِنْدَمَا يَسْتَخْدِمُهَا الشَّاعِرُ فِي مُقَابِلِ الصِّيغَةِ الانْحِرَافِيّةِ. وَهَذَا يَقْتَضِي

(١) هَذِهِ الجمْلةُ وَاضِحَةُ التنَاقُضِ؛ لأَنَّ القَصْدَ مَعنَاهُ الوَعْيُ؛ فَلَا يَكُونُ قَصْدٌ إِلَّا بِوَعْيٍ، فَكَيْفَ يُثْبِتُ المسْنَدُ إِليهِ (هَذَا القَصْدُ) الوَعْيَ، وَيَنْفِيهِ المسْنَدُ (غَيرَ وَاعٍ)؟!. فَإِمَّا أَنْ يَكُونَ الشَّاعِرُ وَاعِيًا أَوْ غَيرَ وَاعٍ، وَلَا يَجْتَمِعُ النقِيضَانِ معًا.

دِرَاسَةَ مُفْرَدَاتِ الشَّاعِرِ فِي ضَوْءِ استِعمَالِهَا، وَفِي ضَوْءِ سِيَاقِهَا وَنُصُوصِهَا"(١).

- **المسْلَكُ الرَّابِعُ: التَكَلُّفُ فِي تَأْوِيلِ الظَّاهِرَةِ**

أَحْسَبُ أَنَّ هَذَا المسْلَكَ فِي خِطَابِ **د. حَمَاسَةَ** أَجْلَى وَأَوْضَحُ مِنْ أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ، مَا دُمْنَا قَدِ انتَهينَا إِلَى أَنَّ دِرَاسَتَهُ عَنْ شِعْرِ صَلَاحِ عَبدِ الصبُورِ مَبنِيَّةٌ عَلَى تَصوُّرٍ غَالِطٍ يَجْعَلُ الظوَاهِرَ الصَّوتِيَّةَ كِيَانَاتٍ مُستَقِلَّةً تُنتِجُ دِلَالَاتٍ وَمَعَانِيَ ذَاتِيَّةً، بَلْ تَختَلِفُ دِلَالَاتُهَا وَمَعَانِيهَا بِاختِلَافِ سِيَاقَاتِهَا، وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى بَعْضِ مَظَاهِرِ التكَلُّفِ وَالاعتِسَافِ خِلَالَ حَدِيثِنَا عَنِ المسْلَكِ السَّالِفِ.

وَإِنَّمَا أَوْقَعَ **د. حَمَاسَةَ** فِي ذَلِكَ التكَلُّفِ – إِضَافَةً إِلَى التصَوُّرِ الغَالِطِ– حِرْصُهُ عَلَى تَسْوِيغِ كُلِّ انْحِرَافٍ يَقَعُ فِيهِ صَلَاحُ عَبدِ الصبُورِ وَتَبْرِئَتِهِ مِنَ الاضْطِرَارِ، وَإِيجَاد دِلَالَةٍ تَقتَضِي انْحِرَافَاتِهِ، وَتَجعَلُهَا ظَاهِرَةً أُسلُوبِيَّةً يَأتِيهَا الشَّاعِرُ عَنْ وَعْيٍ لِيقُولَ بِهَا مَعْنًى، لَا يَتحَقَّقُ بِدُونِهَا؛ مِمَّا يَجعَلُنَا نَقُولُ مُطمَئِنِّينَ بِأَنَّ جُلَّ الدِّلَالَاتِ التِي رَآهَا **د. حَمَاسَةُ** فِي ظَوَاهِرِ الانْحِرَافِ فِي شِعْرِ صَلَاحِ عَبدِ الصبُورِ لَا تَخْلُو مِنْ تَكَلُّفٍ وَاعْتِسَافٍ.

وَلَئِنْ بَدَا كَلَامُنَا السَّالِفُ عَامًّا يُعْوِزُهُ الدَّلِيلُ؛ فَلَا بَأْسَ أَنْ نَتخِذَ تَنَاوُلَ **د. حَمَاسَةَ** الظَّاهِرَةَ الحادِيَةَ عَشرَةَ (إِشْبَاعُ فَتحَةِ "**أَنَا**" فِي الوَصْلِ) دَلِيلًا عَلَى تَكلُّفِهِ فِي التَّأْوِيلِ، وَإِنَّمَا خَصَّصْنَا هَذِهِ الظَاهِرَةَ بِالتمْثِيلِ لِذَلِكَ المسْلَكِ التَّأْوِيلِيِّ؛ لأَنَّنَا نَتوَقَّعُ التكَلُّفَ فِي تَأْوِيلِهَا أَكثَرَ مِمَّا نَتوَقَّعُهُ فِي تَأْوِيلِ غَيرِهَا مِنَ الظَّوَاهِرِ – وَإِنْ لَمْ يَخْلُ تَأوِيلُ الظَّاهِرَاتِ الأُخْرَى مِنْ تَكلُّفٍ كَذَلِكَ – ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الظَاهِرَةَ لَيْسَتْ ظَاهِرَةً صَوتِيَّةً فَحَسْبُ، بَل إِنَّهَا تَتعَلَّقُ بِحَرَكَةٍ مِنْ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ٨٧، ٨٨.

حَرَكَاتِ الضَّبْطِ (فَتْحَةِ نُونِ **أَنَا**)، وَإِذَا كَانَ النّاقِدُ قَدْ تَكَلَّفَ فِي تَأْوِيلِ الظوَاهِرِ الصَّوتِيَّةِ، فَمِنْ بَابِ أَوْلَى أَنْ نَتوَقَّعَ تَكلُّفَهُ فِي تَأْوِيلِ إِشْبَاعِ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَكَاتِ الضَّبْطِ.

وَخُلاصَـةُ مَـا كَتبَـهُ **د. حَمَاسَـةُ** عَـنْ هَـذِهِ الظَّـاهِرَةِ: أَنَّ الشَّـاعِرَ لَـمْ يَستَخْدِمْهَا لِشيُوعِهَا، أَوْ لِغَفْلَتِهِ عَنْ الاستِعْمَالِ الْخَاصِّ بِالمسْتَوَى المعْيَارِيِّ فِيهَـا؛ لأَنَّهَـا وَرَدَتْ فِـي شِـعْرِهِ عَلَـى الاستِعمَالِ الَّـذِي حَـدَّدَهُ النحَـاةُ لَهَـا، أَيْ بِحَذْفِ الأَلِفِ فِي الوَصْلِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ مِنْ قَصِيدَةِ (لَحْن): **(أَنَا لَا أَمْلِكُ مَا يَمْـلَأُ كَفِّـي طَعَامَـا)**، كَمَـا استَخْدَمَ الشَّـاعِرُ **(أَنَـا)** مَمْدُودَةَ الفَتْحَـةِ أَوْ بِعبَـارَةِ القدَمَاءِ أُثْبِتَتْ فِيهَا الأَلِفُ فِـي الوَصْـلِ كَثِيـرًا فِـي مَوَاضِـعَ شَـتَّى وَسِيَاقَاتٍ مُختَلِفَـةٍ؛ إِذْ وَرَدَتْ سِـتًّا وَثَلاثِـينَ مَـرَّةً، وَقَـدْ كَـانَ الشَّـاعِرُ يَسـتَخْدِمُ كُـلًّا مِـنَ الاستِعْمَالَيْنِ فِي سِيَاقٍ يَقتَضِيهِ وَيَطلبُهُ بِحَيْثُ لَا يَسُدُّ أَحَدُ الاستِعمالَيْنِ مَسَدَّ الآخَرِ وَلَا يُغنِي غِنَاءَهُ(١).

وَقَدْ رَأَى **د.حَمَاسَـةُ** أَنَّ لِهذِهِ الظـاهِرَةِ فِـي شِـعْرِ صَـلَاحِ عَبدِ الصبُورِ دِلَالَـةً عَامَّـةً أَوْ غَالِبَـةً؛ وَهِـيَ دِلَالَـةُ (التمَيُّزِ وَالتفَرُّدِ) ؛ فَفِـي مُعظَمِ السِّيَاقَاتِ التِـي وَرَدَتْ فِيهَـا كَلِمَـةُ (أَنَـا) مُشبَعَةَ الفَتْحَـةِ نَلحَـظُ أَنَّهَـا مَقرُونَـةٌ بِصِـفَةٍ مِـنْ صِفَاتِ التمَيُّزِ، مِثْلَ:

- قَوْلِ الشَّاعِرِ: "تَلِد الصَّبَاحُ **أَنَا** بِهِ المنصُورُ فِي رَأْسِ الكَتِيبَهْ".
- وَقَولِهِ: " **أَنَا** فَتًى لَا يَعرِفُ القَلِيل/ **أَنَا** فَتًى لَا يَمْلِكُ القَلِيل" .
- وَقَولِهِ: " **أَنَا** طَوَّقْتُ فِي الآفَاقِ سَوَّاحًا شَبَا قَلَمِي" .
- وَقَولِهِ: "فِي مَجْلِسِ الصُّبْحِ **أَنَا** تَاجٌ وَصَوْلَجَانٌ"(٢).

(١) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور دراسة نصية**، ص ١٠٤.

(٢) انظر السابق: ص ١٠٦.

وَثَمَّةَ دِلَالَاتٌ أُخْرَى غَيْرُ هَذِهِ الدِّلَالَةِ العَامَّةِ الغَالِبَةِ تُنتِجُهَا السِّيَاقَاتُ المختَلِفَةُ التِي تَرِدُ فِيهَا كَلِمَةُ (**أَنَا**) مُشبَعَةَ الفتحَةِ، فَمرَّةً تَدُلُّ عَلَى العَطْفِ وَاسْتِرحَامِ المخَاطَبِ أَوْ الاعتِذَارِ لَهُ، لَكِنَّ هَذَا الاسْتِرحَامَ مُغلَّفٌ بِالاعتِدَادِ بِالذَّاتِ وَالشُّعُورِ بِالتمَيُّزِ[1]، وَفِي سِيَاقٍ آخَرَ يُشبِعُ الشَّاعِرُ فَتحَةَ (**أَنَا**) لِيُظْهِرَ الغَفْلَةَ وَالسَّذَاجَةَ وَعَدَمَ التَّجْرِبَةِ التِي لَا تَجعَلُ مِنهُ قُرْصَانًا أَوْ جَوَّابَ آفَاقٍ، وَقَدْ يُشكِّلُ إِشْبَاعُ فَتحَةِ (**أَنَا**) فِي سِيَاقٍ ثَالِثٍ لَازِمَةً تَتكَرَّرُ فِي بَعْضِ القَصَائِدِ لِتُعطِيَ إِيحَاءً بِمَعْنًى مُعيَّنٍ يَتلَاءَمُ مَعَ سِيَاقِ القَصِيدَةِ، وَفِي سِيَاقٍ رَابِعٍ لَا يُعطِي إِشْبَاعُ فَتحَةِ (**أَنَا**) إِيحَاءً بِتَمايُزِ الذَّاتِ بِقَدْرِ مَا يَكْشِفُ عَنْ حَالٍ مِنَ التَّراخِي تَتنَاسَبُ مَعَ الحالِ الوُسْطَى بَينَ اليقَظَةِ وَالإِغْماءِ أَوْ بَينَ الصَّحْوِ وَالنوْمِ[2]، وَفِي سِيَاقٍ خَامِسٍ تَأْتِي كَلِمَةُ (**أَنَا**) مُشبَعَةَ الفتْحَةِ لِتُوحِيَ بِالحيْرَةِ النّاتِجَةِ مِنَ الفَرَحِ بِعَوْدَةِ الشِّعْرِ[3].

وَلَسْنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى تَأكِيدِ التكَلُّفِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الدِّلَالَاتِ المتنَوِّعَةِ لِظَاهِرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَإِذَا كَانَتْ ظَاهِرَةٌ مِثْلُ (إِشْبَاعِ فَتحَةِ **أَنَا** فِي الوَصْلِ) – وَهِيَ ظَاهِرَةٌ صَوتِيَّةٌ – تُنْتِجُ مِثْلَ هَذِهِ الدِّلَالَاتِ المتنَوِّعَةِ؛ فَمَاذَا أَبْقَينَا لِلكَلِمَاتِ وَالتَّرَاكِيبِ، وَالوَظَائِفِ النَّحوِيَّةِ المخْتَلِفَةِ؟ دَعْ عَنْكَ أَنَّ كُلَّ كَلَامِ النّاقِدِ – إِنْ تَأَمَّلْنَاهُ – دَالٌّ عَلَى أَنَّ الفَضْلَ لِلسِّيَاقِ فِي إِنْتَاجِ هَذِهِ الدِّلَالَاتِ؛ أَيْ أَنَّ هَذِهِ الدِّلَالَاتِ مُتحقِّقَةٌ سَوَاءٌ أَأُشْبِعَتْ فَتحَةُ (**أَنَا**) أَمْ لَمْ تُشْبَعْ!

وَلِكَيْ لَا يَكُونَ كَلامُنَا مُرْسَلًا دُونَ دَلِيلٍ، فَإِنَّنَا نَتوَقَّفُ أَمَامَ قِرَاءةِ **د. حَمَاسَةَ** أَحَدَ نَمَاذِجِ هَذِهِ الظَّاهِرَةِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: ".. وَفِي المقَابِلِ نَجِدُ قَصِيدَةَ (أُجَافِيكُم لِأَعْرِفَكُم) تَبدَأُ بِكَلِمَةِ (**أَنَا**) وَيُخْبِرُ عَنْهَا بِكَلِمَةِ (شَاعِر) وَتَأْتِي كَلِمَةُ (أَنَا) مُشبَعَةَ الفَتْحَةِ بِمَا يَقْتَضِي إِثْبَاتَ الأَلِفِ وَصْلًا:

---

(١) انظر السابق: ص ١٠٦.

(٢) انظر السابق: ص ١٠٩.

(٣) انظر السابق: ص ١١٠.

أَنَا شَاعِر
وَلَكِنْ لِي بِظَهْرِ السُّوقِ أَصْحَابٌ أَخِلَّاء
وَأَسْمُرُ بَيْنَهُم بِاللَّيْلِ أَسْقِيهِم وَيَسْقُونِي
تَطُولُ بِنَا أَحَادِيثُ الندَامَى حِينَ يَلْقُونِي

فَالجملةُ الأُولَى فِي القَصِيدَةِ قَصِيرَةٌ مُثبتَةٌ جَازِمَةٌ، وَإِنْشَادُهَا يَتَطَلَّبُ سَكْتَةً خَفِيفَةً عَلَى كَلِمَةِ **(أَنَا)** بِمَا يُفهِمُ الاعتِدَادَ وَالثِّقَةَ وَالشعُورَ بِالتميّزِ، وَيَكشِفُ هَذَا الاستِدْرَاكُ التَّالِي **(وَلَكِنْ لِي بِظَهْرِ السُّوقِ ... إلخ)** فَظهْرُ السُّوقِ عَالَمٌ يَختَلِطُ فِيهِ العَامَّةُ والغَوغَاءُ والبَاعةُ المشْتَرُونَ. وَالذَّاتُ المتكَلِّمَةُ (أَنَا شَاعِر) تَنفَرَّدُ بِالتعَالِي والتَّفَرُّدِ بِعَالَمِهَا المخْصُوصِ، غَيْرَ أَنَّهَا تَنْزِلُ أَحْيَانًا مِنْ هَذَا البُرْجِ العَالِي إِلَى هَؤُلَاءِ العَامَّةِ تُصَاحِبُهم وَتَسْمرُ بَينَهُم، ثُمَّ تَعُوجُ فِي جَدَلٍ صَاعِدٍ هَابِطٍ..."[(١)].

وَلَا نَستَطِيعُ أَنْ نُوافِقَ **د. حَمَاسَةَ** أَوْ نُجَارِيَهُ فِي رَبْطِ إِشْبَاعِ الحرَكَةِ بِدِلَالَةٍ مُعينَةٍ؛ لِأَنَّ الحرَكَاتِ – مُشْبَعَةً كَانَتْ أَوْ غَيْرَ مُشبَعَةٍ – لَيْسَ لَهَا كِيَانٌ مُستَقِلٌّ، وَمِنْ ثَمَّ فَلَيْسَتْ تَستَقِلُّ بِإِنْتَاجِ مَعْنًى أَوْ دِلَالَةٍ، وَسَفِيعُنَا فِي ذَلِكَ كَلَامُ **د. تَمَّام حَسَّان** – وَقَدْ أَشَرْنَا إِلَى بَعضِهِ مِنْ قَبْلُ – حَيْثُ شَقَّقَ المعْنَى إِلَى ثَلَاثَةِ مُستَوَيَاتٍ: أَوَّلُهَا **(الوَظِيفَةُ)** وَهِيَ خَاصَّةٌ بِالأَصْوَاتِ وَالمقَاطِعِ، وَثَانِيهَا **(الإِطْلَاقُ)** وَهُوَ خَاصٌّ بِمَعْنَى الكَلِمَةِ المعْجَمِيِّ أَوِ الوَحْدَةِ الصَّرفِيَّةِ، وَثَالِثُهَا **(القَصْدُ)** وَهُوَ خَاصٌّ بِالمعْنَى الاجْتِمَاعيِّ مِنَ النصِّ؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ المعْنَى إِمَّا أَنْ يَكُونَ وَظِيفَةً، أَوْ إِطْلَاقًا أَوْ مَقْصُودًا[(٢)].

وَيُهمنَا فِي كَلَامِ **د. تَمَّام حَسَّان** أَمْرَانِ: **أَوَّلُهُما** – كَلامُهُ عَنِ (الوَظِيفَةِ)، حَيْثُ قَالَ: "فَأَمَّا الوَظِيفَةُ فَهِيَ مَعْنَى الصَّوْتِ وَمَعْنَى الحرْفِ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور دراسة نصية**، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٢) انظر د. تمام حسان: **مقالات فِي اللغة والأدب**، ج١، ص ٣٣٦.

وَمَعْنَى الْمَقْطَعِ وَمَعْنَى الظاهِرَةِ الموْقِعيَّةِ مِنْ ظوَاهِرِ الكَلَامِ، ثُمَّ هِيَ مَعْنَى الأَدَوَاتِ وَالْمُلْحَقَاتِ وَالصِّيَغِ، ثُمَّ هِيَ مَعْنَى الأَبْوَابِ النحْوِيَّةِ ..."[1]. فَمَا أَفْهَمُهُ مِنْ كَلَامِ أُستَاذِنَا الدكْتُور **تَمَّام** أَنَّهُ سَمَّى مَعَانِيَ هَذِهِ الْجُزَيْئَاتِ التَّحلِيلِيَّةِ (وَظِيفَةً) لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ لَهَا وَظَائِفَ وَلَيْسَ لَهَا مَعْنًى مُستَقِلٌّ، فَالسوَابِقُ وَاللوَاحِقُ، وَالْحُرُوفُ، وَالنَّبْرُ وَالتنْغِيمُ وَسَائِلُ لِلتفْرِيقِ بَينَ المعَانِي، وَلَيْسَتْ وَسَائِلَ إِنْتَاجٍ لِلمعَانِي أَوِ الدِّلَالَاتِ.

ثَانِيهِما – تَفْرِيقُ **د. تَمَّام** بَينَ الوَظِيفَةِ وَالإِطلَاقِ يُؤَكِّدُ مَا زَعَمْنَا آنِفًا، حَيْثُ يَقُولُ: "**الإِطلَاق**، وَهُوَ الشِّقُّ الثَّانِي مِنَ المعنَى، وَمَعْنَى الإِطْلَاقِ فِي أَسَاسِهِ يَختَلِفُ عَنْ مَعْنَى الوَظِيفَةِ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ الوَظيفَةَ مَعْنَى الْجُزَيْءِ التَّحلِيلِيِّ كَالصوْتِ وَالْحَرْفِ وَالمقْطَعِ، وَهَلُمَّ جَرًّا، وَكلُّ ذَلِكَ لَا يُمكِنُ أَنْ يُدَّعَى لهُ وُجُودٌ مُستَقِلٌّ فِي اللغَةِ، وَلَكِنَّ الإِطْلَاقَ هُوَ المعنَى العُرْفِيُّ الَّذِي أُعْطِيَ لِلكَلِمةِ بِالوَضْعِ وَيَصْلُحُ لِأَنْ يُسجِّلَهُ المعْجَمُ ... وَهَذَا المعنَى المعجَمِيُّ أَوِ (الإِطلَاقُ) مَعْنًى عَامٌّ جِدًّا يَقُومُ عَلَى فَرْضِ اسْتِقْلَالِ الكَلِمَةِ، وَالكَلِمَةُ وَحْدَةُ اللغَةِ"[2].

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلأَصْوَاتِ وَالْمَقَاطِعِ وُجُودٌ مُستَقِلٌّ – وَفْقَ رُؤْيَةِ **د. تَمَّام** – فَأَنَّى يَكُونُ لِحَرَكَاتِ الضَّبْطِ وُجُودٌ مُستَقِلٌّ، وَهِيَ أَصْغَرُ مِنَ الْحُرُوفِ دُونَمَا رَيْبٍ؟

وَزِدْ عَلَى كُلِّ مَا سَبَقَ أَنَّ الوَاقِعَ اللغَوِيَّ لَا يَشْهَدُ لِمَا ادَّعَاهُ **د. حَمَاسَةُ** لِإِشْبَاعِ فَتحَةِ (أَنَا)؛ فَمِنَ الدِّلَالَاتِ التِي رَتَّبَها **د. حَمَاسَةُ** عَلَى هَذَا الإِشْبَاعِ **الدِّلَالَةُ العَامَّةُ: (الاعتِدَادُ وَالثِّقَةُ وَالشُّعُورُ بِالتَّمَيُّزِ)**، وَوَاقِعُ الشِّعْرِ العرَبِيِّ يَقُولُ بِأَنَّ هَذِهِ الدِّلَالَةَ قَدْ تُفْهَمُ مِنَ استِعمَالِ الضَّمِيرِ **(أَنَا)**، سَوَاءٌ أَكَانَتْ

(١) د. تمام حسان: **مقالات فِي اللغة والأدب**، ج١، ص ٣٣١.
(٢) السابق: ص ٣٣٤، ٣٣٥.

فَتْحَتُهُ مُشبَعَةً أَمْ غَيْرَ مُشبَعَةٍ، فَلَطَالَمَا تَنَفَّجَ الشعرَاءُ دُونَمَا إِشْبَاعٍ لِفَتْحَةِ **(أَنَا)**، أَلَمْ يَكُنْ **المتنبِّي** وَاثِقًا مُعتَدًّا بِذَاتِهِ حِينَما قَالَ:

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِي وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ

وَحِينَمَا قَالَ فِي القَصِيدَةِ ذَاتِهَا:

مَا أَبْعَدَ العَيْبَ وَالنُّقْصَانَ عَنْ شَرَفِي أَنَا الثُّرَيَّا وَذَانِ الشَّيْبُ وَالهَرَمُ

وَحِينَما قَالَ:

وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنَّنِي أَنَا الطَّائِرُ الْمَحكِيُّ وَالآخَرُ الصَّدَى

أَوَلَمْ يَكُنِ الشَّاعِرُ المخَضْرَمُ **سُحَيمُ بنَ وَثِيلٍ الحِمْيرِيُّ** وَاثِقًا مُعتَدًّا شَاعِرًا بِالتمَّيزِ حِينَ قَالَ:

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا مَتَى أَضَعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

وَلَا إِشْبَاعَ لِفَتْحَةِ **(أَنَا)** فِي هَذِهِ النَّمَاذِجِ، وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ فِي الشِّعْرِ العرَبِيِّ. وَمِنْ ثَمَّ فَالقَوْلُ بِأَنَّ إِشْبَاعَ فَتحَةِ **(أَنَا)** قَدْ يَدُلُّ عَلَى ثِقَةٍ أَوِ اعتِدَادٍ وَتَميُّزٍ؛ بِحَاجَةٍ إِلَى إِعَادَةِ النظَرِ، وَلَا يَستَقِيمُ فِي عَقْلٍ أَنْ يَكُونَ لِلظّاهِرَةِ وَنَقِيضِهَا دِلَالَةٌ وَاحِدَةٌ. إِنْ صَحَّ أَنَّ لَهَا دِلَالَةً، فَإِنَّمَا الدِّلَالَةُ مَفهُومَةٌ مِنَ السيَاقِ اللغَوِيِّ بِوَجْهٍ عَامٍّ، وَلَيْسَ مِنَ الظَّاهِرَةِ الصَّوْتِيَّةِ خَاصَّةً.

وَكُلُّ مَا هُنَالِكَ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** يَسَعُهُ أَنْ يَقُولَ أَيَّ شَيْءٍ إِلَّا أَنْ يَسِمَ شَاعِرَهُ المعصُومَ صَلَاحَ عَبدِ الصَّبُورِ بِالاضْطِرَارِ؛ وَيْكَأَنَّ الاضْطِرَارَ جَرِيرَةٌ أَوْ كَبِيرَةٌ مِنَ الكَبَائِرِ!، وَمَا أَكْثَرَ مَا أَوْقَعهُ ذَلِكَ المسْلَكُ فِي تكلُّفِ التأْوِيلِ وَاعْتِسَافِهِ.

- بَقِيَ **مَسْلَكٌ خَامِسٌ** وَأَخِيرٌ لَحِظْتُهُ فِي بَعْضِ تَعلِيقَاتِ **د. حَمَاسَةَ** عَلَى شِعْرِ صَلَاحِ عَبْدِ الصبُورِ، وَغَيْرِهِ مِنَ الشُّعرَاءِ الذِينَ كَتَبَ عَنْهُم كَذَلِكَ، وَهُوَ مَا أُسَمِّيهِ **التَّنْثِيرَ**؛ حَيْثُ يَعْمِدُ النَّاقِدُ إِلَى مَا قَالهُ الشَّاعِرُ فَينْثُرُهُ أَوْ يُعِيدُ صِيَاغَتهُ نَثْرًا، وَهُنَا يُصبِحُ التَّحْلِيلُ النَّصِّيُّ أَقْرَبَ إِلَى الشَّرْحِ مِنهُ إِلَى القِرَاءَةِ النقْدِيَّةِ التِي تُوَلِّدُ الدِّلَالَاتِ؛ وَمِثَالُ ذَلِكَ حَدِيثُ **د. حَمَاسَةَ**

عَنِ الْمَوْضِعِ الأَوَّلِ مِنْ مَوْضِعَيِ الظَّاهِرَةِ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: **(حَذْفُ الفَاءِ مِنْ جَوَابِ الشَّرْطِ)**، حَيْثُ يقُولُ عَنْهَا: "وَقَدْ وَرَدَتْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ فِي شِعْرِ صَلَاحِ عَبْدِ الصَّبُورِ مَرَّتَيْنِ فَحَسْبُ، وَفِي قَصِيدَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ (أُغْنِيةُ وَلَاء) وَهُوَ فِيهَا – كَمَا يُشِيرُ سِيَاقُ القَصِيدَةِ كُلِهِ – يُخَاطِبُ الشِّعْرَ، فَيقُولُ فِي الْجُزْءِ الأَخِيرِ مِنَ القَصِيدَةِ:

يَا أَيُّهَا الحبِيبْ/ مُعَذِّبِي، يَا أَيُّهَا الحبِيبْ/ أَلَيْسَ لِي فِي المجْلِسِ السَّنِيِّ حَبْوَةَ التَّبِيعْ/ فَإِنَّنِي مُطِيعْ/ وَخَادِمٌ سَمِيعْ/ فَإِنْ أَذِنْتَ إِنَّنِي النَّدِيمُ فِي الأَسْحَارْ:/ حِكَايَتِي غَرَائِبُ لَمْ يَحْوِهَا كِتَابْ/ طَبَائِعِي رَقِيقَةٌ كَالخمْرِ فِي الأَكْوَابْ/ فَإِنْ لَطَفْتَ هَلْ إِلَيَّ رَنْوَةُ الْحَنَانْ/ فَإِنَّنِي أُدِلُّ بِالْهَوَى عَلَى الأَخْدَانْ/ أَلَيْسَ لِي بِقَلْبِكَ العَمِيقِ مِنْ مَكَانْ/ وَقَدْ كَسَرْتُ فِي هَوَاكَ طِينَةَ الإِنْسَانْ/ وَلَيْسَ ثَمَّ مِنْ رُجُوعْ

إِنَّ هَذَا الحبِيبَ المحبُوبَ المعَذَّبَ يُنَادَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِصِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ: أُولَاهُمَا (الحبِيبُ)، وَهِيَ تَتَكَرَّرُ مَرَّتَيْنِ **(يَا أَيُّهَا الحبِيبْ)** بَينَما الصِّفةُ الثانِيَةُ **(مُعَذِّبِي)**، وَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ مُخْتَلِفتَا الاتِّجَاهِ، فَعَلَى حِينِ يَتَّجِهُ الْحُبُّ مِنَ المتكَلِّمِ لِلمُخَاطَبِ، يَتَّجِهُ التعْذِيبُ مِنَ المخَاطَبِ إِلَى المتكَلِّمِ، وَقَدْ يَكُونُ تَكْرَارُ الصِّفَةِ الأُولَى (الحبِيبُ) مُشِيرًا إِلَى أَنَّهُ يُضَاعِفُ لَهُ الْحُبَّ بِمِقْدَارِ مَا يُعْطِي مِنَ العَذَابِ، وَمِنَ الْمُلَاحَظِ أَنَّ **(مُعَذِّبِي)** أُضِيفَتْ إِلَى يَاءِ المتكَلِّمِ، فَكَأَنَّهُ يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى انْفِرَادِهِ وَخُصوصِيَّتِهِ بِتَوَجُّهِ العَذَابِ إِلَيهِ، وَهُوَ تَعْذِيبٌ يَحْمِلُ لَذَّةً خَاصَّةً، وَلَكِنَّ (الحبِيبَ) أُطْلِقَتْ بِلَا إِضَافَةٍ، لِفَقْدٍ يكُونُ هُنَاكَ مُحبُّونَ كَثِيرُونَ، وَبَعْدَ هَذَا النداءِ الْخَاصِّ المتكرِّرِ بِقَصْدِ إِثْبَاتِ هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ يَتَوَسَّلُ إِلَيهِ أَنْ يَمنَحَهُ فِي المجْلِسِ السَّنِيِّ حَبْوَةَ التَّبِيعِ وَيُؤَكِّدُ طَاعَتَهُ وَوَلَاءَهُ لَهُ حَتَّى يَجْعَلَ مِنْ نَفْسِهِ لَهُ خَادِمًا سَمِيعًا مُطِيعًا. إِنَّ هَذَا المحِبَّ المتفَانِيَ فِي هَوَى مَحْبُوبِهِ يَقِفُ فِي حَضْرَةِ مَنْ يَهْوَى وَيُخَاطِبُهُ، فَلَا غَرْوَ أَنْ يَتَلَعْثَمَ، وَأَنْ يَنْفَرِطَ عِقْدُ كَلَامِهِ، وَتَسْقُطَ مِنهُ بَعْضُ الرَّوَابِطِ التِي تَكُونُ مِنْ شَأْنِ الْمَالِكِ لِمَنْطِقِهِ، وَفِي هَذَا السِّيَاقِ تَسْقُطُ الفَاءُ مِنْ جَوَابِ الشَّرْطِ مَرَّتَينِ:

فَإِنْ أَذِنْتَ إِنَّنِي النَّدِيمُ فِي الأَسْحَارْ
فَإِنْ لَطَفْتَ هَلْ إِلَيَّ رَنْوَةُ الْحَنَان

إِنَّ حَذْفَ الفَاءِ هُنَا يُؤَكِّدُ تَحَقُّقَ هَذَا الْجَوَابِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ عَلَى الشَّرْطِ أَوْ تَرَتُّبٍ عَلَيْهِ، فَهُوَ يُعْلِنُ **(إِنَّنِي النَّدِيم فِي الأَسْحَار)** حَتَّى وَإِنْ لَمْ يَلْطُفْ بِهِ؛ لِأَنَّهُ يُعْلِنُ فِي نِهَايَةِ الْمَقْطَعِ أَنَّهُ قَدْ تَجَرَّدَ إِلَّا مِنْهُ، وَخَلَعَ مَا يَرْبِطُهُ بِالبَشَرِ وَتَفَرَّغَ لَهُ، وَلَيْسَتِ العَوْدَةُ مُمْكِنَةً بَعْدَ الآنِ. **وَقَدْ كَسَرْتُ فِي هَوَاكَ طِينَةَ الإِنْسَانْ/ وَلَيْسَ ثَمَّ مِنْ رُجُوعْ**"[1].

وَرُغْمَ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** قَدْ نَثَرَ سُطُورَ صَلَاح عَبْدِ الصَّبُورِ أَوْ بَعْضَهَا عَلَى الأَقَلِّ؛ فَإِنَّنَا لَا نَسْطِيعُ أَنْ نُخْفِيَ إِعْجَابَنَا بِتَأْوِيلِهِ (حَذْفَ الفَاءِ مِنْ جَوَابِ الشَّرْطِ) عِنْدَ الشَّاعِرِ، وَرُبَّمَا يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** قَدْ وَقَفَ هَذِهِ الْمَرَّةَ أَمَامَ ظَاهِرَةٍ نَحْوِيَّةٍ حَقًّا؛ ذَلِكَ أَنَّ (الفَاءَ الوَاقِعَةَ فِي جَوَابِ الشّرْطِ) حَرْفُ مَعْنًى وَلَيْسَتْ حَرْفَ مَبْنَى أَوْ حَرَكَةً مِنْ حرَكَاتِ الضَّبْطِ، وَمِنْ ثَمَّ فَلَسْنَا أَمَامَ ظَاهِرَةٍ صَوْتِيَّةٍ عَلَى نَحْوِ مَا عَهِدْنَا فِي كِتَابِ **د. حَمَاسَةَ**، وَلَا رَيْبَ أَنَّ حَرْفَ الْمَعْنَى لَيْسَ كَحَرْفِ الْمَبْنَى، وَإِلَّا مَا أَفْرَدَ العُلَمَاءُ حُرُوفَ المعانِي بِكُتُبٍ وَمُؤَلَّفَاتٍ خَاصَّةٍ مِثْلَما صَنَّفَ **المرَادِيُّ** – مَثَلًا – كِتَابَهُ **(الجنَى الدَّانِي فِي حُرُوفِ المعَانِي)**، وَلَا رَيْبَ كَذَلِكَ أَنَّ حَذْفَ (حَرْفِ المعْنَى) وَذِكْرَهُ لَيْسَا سَوَاءً، فَحَذْفُهُ يَكُونُ لِمَعْنًى، وَذِكْرُهُ يَكُونُ لِمَعْنًى، وَرُغْمَ أَنَّ الفَاءَ الوَاقِعَةَ فِي جَوَابِ الشَّرْطِ مُجَرَّدَ صَوْتٍ فِي النُّطْقِ؛ فَإِنَّ قِيمَتَهَا الدِّلَالِيَّةَ كَقِيمَةِ حُرُوفِ المعَانِي، مِثْل: (لَكِنَّ – وَلَيْتَ – وَلَعَلَّ – وَإِلَى – فِي – حَتَّى ... وَهَلُمَّ جَرًّا).

وَتُشْبِهُ هَذِهِ الظّاهِرَةَ الظَّاهِرَتَانِ التَّالِيتَانِ لَهَا، وَهُمَا الظَّاهِرَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ، وَالظَّاهِرَةُ الخامِسَةَ عَشْرَةَ؛ لِأَنَّهُمَا خَاصَّتَانِ بِحَرْفٍ مِنْ حُرُوفِ المعَانِي

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ١٢٠، ١٢١.

كَذَلِكَ، وَمِنْ ثَمَّ تُعَدُّ هَذِهِ الظَّاهِرَاتُ الثَّلَاثُ **(حَذْفُ الفَاءِ مِنْ جَوَابِ الشَّرْطِ (ص: ١١٩) – عَدَمُ تَكرَارِ (لَا) إِذَا دَخَلَتْ عَلَى مَعْرِفَةٍ (ص: ١٢٣) – حَذْفُ حَرْفِ العَطْفِ)** اسْتِثْنَاءً مِنْ ظَاهِرَاتِ الكِتَابِ؛ لِأَنَّهَا ظَاهِرَاتٌ نَحْوِيَّةٌ وَلَيْسَتْ صَوْتِيَّةً، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الظَّاهِرَاتِ أَكْثَرُ اتِّصَالًا بِ (نَحْوِ النَّصِّ) مِنْ بَقِيَّةِ ظَاهِرَاتِ الكِتَابِ. عَلَى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ نُؤَكِّدَ أَنَّ نَتِيجَةَ هَذِهِ الظَّاهِرَاتِ مُتَّفِقَةٌ مَعَ بَقِيَّةِ ظَاهِرَاتِ الكِتَابِ مِنَ النَّاحِيَةِ الإِيقَاعِيَّةِ أَوِ الصَّوْتِيَّةِ، لِأَنَّهَا إِمَّا أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى إِطَالَةِ مَقْطَعٍ أَوْ تَقْصِيرِهِ حَسْبَ مُقْتَضَيَاتِ الوَزْنِ وَالقَافِيَةِ، لَكِنَّهَا مِنَ النَّاحِيَةِ الدِّلَالِيَّةِ مُختَلِفَةٌ عَنْ بَقِيَّةِ ظَاهِرَاتِ الكِتَابِ؛ لِأَنَّ حُرُوفَ المعَانِي يُمكِنُ أَنْ تُعَدَّ كِيَانَاتٍ مُستقِلَّةً فِي إِنْتَاجِ دِلَالَةٍ مَا، وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ بَقِيَّةُ ظَاهِرَاتِ الكِتَابِ؛ لِأَنَّها تَدُورُ فِي إِطَارِ حُرُوفِ المبَانِي أَوْ حَرَكَاتِ الضَّبْطِ لَيْسَ إِلَّا.

المَبْحَثُ الثَّانِي: قِرَاءَةُ القَصَائِدِ

تَرَكَ **د. حَمَاسَةُ** قِرَاءَاتٍ مُتنوِّعَةً لِقَصَائِدَ مِنَ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ قَدِيمِهِ وَحَدِيثِهِ، فَقَدْ ضَمَّ الفَصْلُ الثَّانِي مِنْ كِتَابِهِ (اللغَةُ وَبِنَاءُ الشِّعْرِ) قِرَاءَاتٍ لِثَلاثِ قَصَائِدَ مِنَ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ القَدِيمِ: أُولَاهَا قَصِيدَةُ ثَعلبةَ بنِ صُعَيْر، وَثَانِيتُهَا قَصِيدَةُ سُحَيْم عَبدِ بَنِي الحسْحَاسِ، وَثَالِثَتُها قَصِيدَةُ المخبّلِ السَّعْدِيِّ، كَمَا ضَمَّ الفَصْلُ الثَّالِثُ مِنَ الكِتَابِ ذَاتِهِ تَحْلِيلًا نَصِّيًّا لِثَلاثِ قَصَائِدَ مُعَاصِرَاتٍ، وَهِيَ قَصَائِدُ: الحبُّ وَالأَشْيَاءُ لِحَامِد طَاهِر، وَالآتُونَ مِنْ رَحِمِ الغَيْبِ لِسَمِير فَرّاج، أَصْوَاتٌ مِنْ تَارِيخٍ قَدِيمٍ لِفَارُوق شُوشَة.

كَمَا نَجِدُ فِي كِتَابِهِ **(الإِبْدَاعُ الموَازِي)** قِرَاءَاتٍ لِقَصَائِدَ مُعَاصِرَةٍ كَذَلِكَ، مِثْلَ: قَصِيدَةِ (صَلَاة) لِلشَّاعِرِ أَمَل دُنقُل (ص٤٦)، وَقَصِيدَة (طَلَل الوَقْتِ) لِلشَّاعِر أَحمد عَبدِ المعطِي حِجَازِي (ص ٦٩). وَفِي كِتَابِهِ **(فِتْنَةُ النصِّ)** مُقارَنَاتُ بَينَ شُعرَاءَ مُعَاصِرِينَ، مِثْلَ: مُقارَنَتِهِ (اللغَةُ وَشِعْرُ الأَطْفَالِ بَينَ أَحْمَد شَوْقِي وَسُلَيْمَان العِيسى – ص ١١ وَمَا بَعْدَهَا)، وَمُقَارَنَتِهِ بَينَ قَصِيدَةِ (دِفَاعٌ عَنِ الكَلِمَةِ) لِأَحْمَد عَبدِ المعْطِي حِجَازِي، وَقَصِيدَةِ (لُغَةٌ) لِفَارُوق شُوشَة (ص٤٣، وَمَا بَعدَهَا).

كُلُّ ذَلِكَ، وَلَمَّا نَتحَدَّثْ عَمَّا قَرَأَهُ **د. حَمَاسَةُ** مِنْ دَوَاوِينِ الشِّعْرِ المعَاصِرِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا جُهْدٌ حَمِيدٌ عَسِيٌّ بِالتقْدِيرِ؛ ذَلِكَ أَنَّ الشِّعْرَ العَرَبِيَّ قَدِيمَهُ وَحَدِيثَهُ لَمْ يَجِدْ تِلْكَ الحِفَايَةَ مِنْ بَعْضِ المتخَصِّصِينَ للنقْدِ الأَدَبِيِّ، وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي.

عَلَى أَنَّ إِعْجَابَنَا بِوَفْرَةِ الدِّرَاسَاتِ التَّطبِيقِيَّةِ وَتَنَوُّعِهَا لَدَى **د. حَمَاسَةَ** لَنْ يَثْنِيَنَا عَنْ تَقْوِيمِهَا، وَمُسَاءَلَتِهَا، وَإِنَّهُ لَيُؤْسِفُنَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْمَسَافَةَ بَيْنَ تَنْظِيرِ **د. حَمَاسَةَ** وَتَطْبِيقِهِ وَاسِعَةٌ جِدًّا، وَإِنَّ الْخُلْفَ بَينَ المسْتَوَيِيْنِ (التنْظِيرِ وَالتطْبِيقِ) لَكَبِيرٌ؛ حَتَّى لَيَجِدُ القَارِئُ كَثِيرًا مِنَ التنَاقُضَاتِ بَينَ ذَيْنِكَ المسْتَوَيَيْنِ. لَكِنَّ أَكْبَرَ هَذِهِ التَّناقُضَاتِ أَنَّ المدْخَلَ النحْوِيَّ الذِي آمَنَ **د. حَمَاسَةُ** بِأَوْلَوِيَّتِهِ، وَفَضَّلَهُ عَلَى المداخِلِ الأُخْرَى؛ يَكَادُ يَغِيبُ عَنْ دِرَاسَاتِهِ

التَّطْبِيقِيَّةِ، وَإِذَا وُجِدَ فَهُوَ شَاحِبٌ نَحِيلٌ؛ فَلَيْسَ هُنالِكَ سِوَى إِشَارَاتٍ نَحْوِيَّةٍ تَقِلُّ أَوْ تَكثُرُ بَيْنَ قِرَاءَةٍ وَأُخْرَى[1]، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الإِشَارَاتِ النَّحْوِيَّةَ تَجِيءُ كَيْفَمَا اتَّفَقَ؛ حَيْثُ إِنَّ **د. حَمَاسَةَ** لَا يُعْنَي مِنْ مُكَوِّنَاتِ النحْوِ وَتَرَاكِيبِهِ إِلَّا بِمَا اسْتَوْقَفَهُ أَوْ لَفَتَ نَظَرَهُ مِنْ بِنَى النصِّ النحْوِيَّةِ، وَلَطَالَمَا وَقَفَ د. **حَمَاسَةُ** عِنْدَ مُستَوَى الوَصْفِ وَلَمْ يُجَاوِزْهُ إِلَى مُسْتَوى التَّأْوِيلِ، وَتَوْلِيدِ المعَانِي وَالدِّلَالَاتِ.

وَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذِهِ دَعَاوَى مُرْسَلَةٌ تَنْقُصُهَا الأَدِلَّةُ وَالبَيِّنَاتُ، وَحَسْبُنَا أَنْ نَسْتَدِلَّ لِكُلِّ دَعْوَى مِنْ هَاتِيكَ الدَّعاوَى بِنمُوذَجٍ يُبَيِّنُهَا:

فَأَمَّا **اتِّسَاعُ المسَافَةِ بَيْنَ التَّنْظِيرِ وَالتطْبِيقِ**، فَأَحْسَبُ أَنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي المبحَثِ الأَوَّلِ مِنْ جُهُودِ النَّاقِدِ التَّطْبِيقِيَّةِ – قِرَاءَتِهِ بَعْضَ الظَّوَاهِرِ النَّحوِيَّةِ فِي شِعْرِ صَلَاحِ عَبْدِ الصَّبُورِ – كَفِيلٌ بِأَنْ يُبيِّنَ مَدَى ابْتِعَادِ التَّطْبِيقِ عَنِ التَّنْظِيرِ. لَكِنْ مَا دُمْنَا نَتَكَلَّمُ فِي المبحَثِ الثَّانِي (**قِرَاءَةِ القَصَائِدِ**) فَلَا مَغْنَى عَنْ مِثَالٍ يَكُونُ بَيِّنَةً وَدَلِيلًا عَلَى مَا نَدَّعِيهِ، وَيُجْزِئُنَا فِي ذَلِكَ أَنْ نَتَّخِذَ قِرَاءَةَ **د. حَمَاسَةَ** قَصِيدَةَ (ثَعْلَبَةَ بْنِ صُعَيْرٍ) نَمُوذَجًا؛ حَيْثُ اتَّخَذَ **د. حَمَاسَةُ** أَحَدَ مَبَادِئِهِ النَّظَرِيَّةِ مَدْخَلًا إِلَى قِرَاءَةِ هَذِهِ القَصِيدَةِ، عَنَيْتُ مَقُولَةَ (العَلَاقَاتِ الرَّأْسِيَّةِ وَالأُفُقِيَّةِ)، وَهَذَا مَا يَقُولُهُ العُنْوَانُ الَّذِي اخْتَارَهُ **د. حَمَاسَةَ** لِهَذِهِ القِرَاءَةِ: (العَلاقَاتُ الرَّأْسِيَّةُ وَالأُفُقِيَّةُ فِي القَصِيدَةِ :قَصِيدَةُ ثَعْلَبَةَ بْنِ صُعَيْرٍ)[2]، وَلَيْسَ بِي أَنْ أُكَرِّرَ هُنَا مَا لَحِظْتُهُ مِنْ تَفَرُّدِ الدّكتورِ **حَمَاسَةَ** بِفَهْمٍ خَاصٍّ لِمصْطَلَحِ العَلاقَاتِ الرَّأْسِيَّةُ، يُخَالِفُ فِيهِ النُّقَّادَ، وَيَجْعَلُهُ دَرَجَةً مِنْ دَرَجَاتِ العَلاقَاتِ الأُفُقِيَّةِ وَلَيْسَ مَفْهُومًا مُغَايِرًا، فَعَدِّ عَنْ ذَا، وَلَكِنْ:

---

(١) تَكْثُرُ الإِشَارَاتُ النحْوِيَّةُ فِي قِرَاءَاتِ **د. حَمَاسَةَ** الشِّعْرَ القَدِيمَ، وَتَقِلُّ كُلَّمَا تَعَامَلَ مَعَ شِعْرِ التفْعِيلَةِ، تُرَى أَيَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى أَنَّ دَرَجَةَ النحْوِيَّةِ فِي الشِّعْرِ القَدِيمِ أَعْلَى مِنْهَا فِي شِعْرِ التفْعِيلَةِ؟ رُبَّمَا.

(٢) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ٤٣.

هَلِ اسْتَطَاعَ **د. حَمَاسَةُ** تَطْبِيقَ هَذَيْنِ المفْهُومَيْنِ عَلَى هَذِهِ القَصِيدَةِ بِغَضِّ النَّظَرِ عَنْ تَفَرُّدِهِ فِي فَهْمِهِ لِمَعْنَيَيْهِمَا؟

يَنبَغِي بَادِئَ ذِي بَدْءٍ أَنْ نُثْبِتَ إِعْجَابَنَا بِقَرَاءَةِ **د. حَمَاسَةَ** هَذِهِ القَصِيدَةَ؛ إِذْ تُعَدُّ قِرَاءَتُهُ لَهَا مِنْ أَفْضَلِ الدِّرَاسَاتِ التَّطْبِيقِيَّةِ التِي كَتَبَهَا **د. حَمَاسَةُ** إِنْ لَمْ تَكُنْ أَفْضَلَهَا؛ ذَلِكَ أَنَّ التِفَاتَاتِهِ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ وَظَائِفِهَا وَمَعَانِيهَا النَّحْوِيَّةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَمِنْ ثَمَّ تُعَدُّ هَذِهِ الدِّرَاسَةُ مِنْ أَوْفَى دِرَاسَاتِ النّاقِدِ لِلمَدْخَلِ النَّحْوِيِّ الذِي تَبَنَّاهُ وَدَعَا إِلَيْهِ.

وَإِنَّمَا وَقَعَ التَّنَاقُضُ بَينَ التَّنْظِيرِ وَالتَّطْبِيقِ فِي هَذِهِ الدِّرَاسَةِ حِينَ حَجَّرَ النَّاقِدُ عَلَى نَفْسِهِ وَاسِعًا؛ إِذِ اتَّخَذَ مَدْخَلًا خَاصًّا إِلَى تَلَقِّي هَذِهِ القَصِيدَةِ سَمَّاهُ (العَلاقَاتِ الرَّأسِيَّةَ وَالأُفُقِيَّةَ فِي القَصِيدَةِ)، وَلَا رَيْبَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا العُنوَانِ بِمَثَابَةِ عَقْدٍ ضِمْنِيٍّ بَينَ النَّاقِدِ وَالْمُتَلَقِّي؛ مَضْمُونُهُ: أَنْ يُجَلِّيَ النَّاقِدُ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ العَلَاقَاتِ فِي القَصِيدَةِ؛ وَبِذَلِكَ جَازَ لِلمُتلَقِّي أَنْ يُحَاسِبَهُ إِنْ قَصَّرَ فِي تَجْلِيَةِ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ مِنَ العَلاقَاتِ.

وَلَعَلَّ مِنْ أَسْبَابِ ذَلِكَ التَّناقُضِ كَذَلِكَ؛ تَفَرُّدُ الدكتورِ **حَمَاسَةَ** بِفَهْمٍ خَاصٍّ لِلعَلَاقَاتِ الرَّأْسِيَّةِ؛ فَلَسْنَا نَعْرِفُ نَاقِدًا أَرَادَ بِهَا تَرَابُطَ النصِّ كُلِّهِ غَيْرَ **د. حَمَاسَةَ**، وَإِنَّمَا يَستَخْدِمُ النقَّادُ وَعُلَمَاءُ النصِّ مَفْهُومًا آخَرَ لِتَرَابُطِ أَجْزَاءِ النصِّ هُوَ (التَّمَاسُكُ النصِّيُّ) أَوِ (السَّبْكُ وَالْحَبْكُ). فِي حِينَ جَعَلَ كُلُّ مَنْ تَنَاوَلَ هَذَيْنِ النوْعَيْنِ (العَلَاقَاتِ الرَّأْسِيَّةَ وَالأُفُقِيَّةَ) العَلاقَاتِ الرَّأْسِيَّةَ مُرَادِفًا لِمِحْوَرِ الاخْتِيَارِ أَوْ مَا يُسَمَّى (مِحْوَرَ الاسْتِبْدَالِ)، أَمَّا العَلَاقَاتُ الأُفُقِيَّةُ فَهِيَ تُرَادِفُ لَدَيْهِم التَّأْلِيفَ وَالتَّوْزِيعَ، أَوْ مَا يُسَمَّى (المحْوِرَ التعَاقُبِيَّ). وَلَا نَعْرِفُ نَاقِدًا جَعَلَ المحْوِرَيْنِ دَرَجَتَيْنِ لِمِحْوَرٍ وَاحِدٍ هُوَ المحْوَرُ الأُفُقِيُّ؛ فَأَرَادَ بِأَحَدِهِمَا تَرَابُطَ الجمْلَةِ، وَأَرَادَ بِالآخَرِ تَرَابُطَ النصِّ كُلِّهِ – غَيْرَ **د. حَمَاسَةَ**، وَيَحْسُنُ أَنْ نَضَعَ كَلَامَهُ بَينَ يَدَي القَارِئِ؛ فَقَدْ عَرَّفَ هَذَيْنِ المسْتَوَيَيْنِ قَبْلَ تَنَاوُلِ القَصِيدَةِ فَقَالَ: "تَنْتَظِمُ القَصِيدَةَ الجيدَةَ نَوْعَانِ مِنَ العَلَاقَاتِ النحْوِيَّةِ، النوْعُ الأَوَّلُ مِنهُما هُوَ مَا أُسَمِّيهِ **بِالعَلاقَاتِ الأُفُقِيَّةِ**، وَأَعْنِي بِهَا **تَرَابُطَ الجمْلَةِ**

الوَاحِدَةِ فِي دَاخِلِهَا بِوَاسِطَةِ العَلَاقَاتِ النحْوِيَّةِ المعْرُوفَةِ عَلَى مُسْتَوَى الجمْلَةِ مِنَ الابتِدَائِيَّةِ وَالخبَرِيَّةِ أَوِ الفِعْلِيَّةِ وَالفَاعِلِيَّةِ، وَمَا يَلحَقُ بِكُلٍّ مِنْهَا مِنْ مُتعَلِّقَاتٍ وَتَوَابِعَ وَمَا يَتَسَلَّطُ عَلَيْهَا مِنْ مَعَانِي الاسْتِفْهَامِ وَالنَّفْيِ وَالتوْكِيدِ وَالعَطْفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي الأَدَوَاتِ المتعَدِّدَةِ وَمَا يَكتَنِفُ ذَلِكَ مِنَ التعْرِيفِ وَالتنْكِيرِ وَالتقْدِيمِ وَالتأْخِيرِ. وَالنَّوعُ الثَّانِي هُوَ مَا أُسَمِّيهِ **العَلَاقَاتِ الرَّأْسِيَّةَ وَأَعْنِي بِهَا تَمَاسُكَ القَصِيدَةِ كُلِّهَا فِي إِطَارٍ وَاحِدٍ مَحْكُومٍ بِعَلَاقَاتٍ نَحْوِيَّةٍ سِيَاقِيَّةٍ** تُوَثِّقُ مِنْ عُرَى التَّرَابُطِ بَينَ الجمَلِ بَعْضِهَا وَالبَعْضِ الآخَرِ مُضَافًا إِلَيْهَا الإِشَارَاتُ المتشَابِهَةُ فِي الجمَلِ، أَوْ الوَظَائِفِ النَّحْوِيَّةِ المتكَررَةِ بَينَهَا، أَوِ الرُّمُوزِ اللغَوِيَّةِ التِي تَتَرَدَّدُ بَينَ جُمْلَةٍ وَأُخْرَى، سَوَاءٌ أَكَانَتْ هَذِهِ الرُّمُوزُ مُمثَّلَةً بِكَلِمَةٍ بِعَينِهَا أَوْ صِيغَةٍ خَاصَّةٍ، أَوْ حَالَةٍ مُعيَّنَةٍ تُلَابِسُ هَذِهِ الجمَلَ وَتَشِيعُ فِي جَوِّهَا، أَوْ يَحْدُثُ بَينَهَا تَخَالُفٌ يُذَكِّرُ بَعْضُهُ بِنَقِيضِهِ الموجُودِ فِي جُمْلَةٍ سَابِقَةٍ أَوْ لَاحِقَةٍ"[1].

وَجَلِيٌّ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** يَجْعَلُ العَلَاقَاتِ الأُفُقِيَّةَ والرَّأْسِيَّةَ مُستَوَيَيْنِ مِنَ التَّرَابُطِ، يَتَعَلَّقُ أَوَّلُهُما بِتَرَابُطِ الجمْلَةِ، وَيَتعَلَّقُ ثَانِيهِمَا بِتَرَابُطِ النصِّ كُلِّهِ، وَجَلِيٌّ كَذَلِكَ أَنَّهُ يَجْعَلُ العَلَاقَاتِ النحْوِيَّةَ أَدَاةَ التَّرَابُطِ فِي المسْتَوَيَيْنِ، وَإِنْ أَضَافَ إِلَيْهَا وَسَائِلَ أُخْرَى، وَلَا رَيْبَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا التعْرِيفِ عَقْدٌ آخَرُ بَينَ النَّاقِدِ وَقَارِئِهِ، يُجِيزُ لِثَانِيهِمَا أَنْ يُحَاسِبَ الأَوَّلَ إِنْ لَمْ يَلتَزِمْ بِبُنودِ ذَلِكَ العَقْدِ. وَذَلِكَ مَا نَرُومُهُ مِنْ تَقْوِيمِ تِلْكَ القِرَاءَةِ وَغَيْرِهَا مِمَّا كَتبَهُ **د. حَمَاسَةُ**؛ إِذْ نَقِيسِ تَطبِيقَهُ إِلَى مَفَاهِيمِهِ النظَرِيَّةِ، فَإِنْ تَوَافَقَا فَبِهَا وَنِعْمَتْ، وَإِنْ تَخَالَفَا فَلسْنَا نَمْلِكُ غَيْرَ التَّنْبِيهِ وَالتصْحِيحِ.

وَإِذَا حَاوَلْنَا أَنْ نَستَبِينَ مُقَارَبَةَ **د. حَمَاسَةَ** ذَيْنِكَ المسْتَوَيَيْنِ فِي قَصِيدَةِ (ثَعلَبَةَ) أَلْفَيْنَاهُ يُجْمِلُ المسْتَوَى الأُفُقِيَّ، ثُمَّ يَجْعَلُ المسْتَوى الرَّأْسِيَّ تَفْصِيلًا لِمَا

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ٤٥.

أَجْمَلَهُ فِي المسْتَوى الأُفُقِيِّ، وَبِذَلِكَ يَتَأَكَّدُ لَدَيْنَا أَنَّهُ جَعلَ الفَارِقَ بَينَ هَذَيْنِ المسْتَوَيَيْنِ فِي الدرَجَةِ، وَلَيْسَ فِي النوْعِ. فأَمَّا المستَوَى الأَوَّلُ (العَلَاقَاتُ الأُفُقِيَّةُ) فَقَدْ أَجْمَلَهُ الناقِدُ وَلَمْ يُفصِّلْهُ، فَقَالَ: "وَالقَصِيدَةُ التِي أَوَدُّ أَنْ أَعْرِضَهَا فِي إِطَارِ هَذَا الفَهْمِ يَقُومُ بِنَاؤُهَا مِنْ حَيْثُ المسْتَوَى الأُفُقِيُّ عَلَى عَدَدٍ مَحْدُودٍ مِنَ الجمَلِ، مَعَ مُرَاعَاةِ أَنَّ الجمْلةَ، بِطَبِيعَةِ الْحَالِ، تَعْنِي كُلَّ مَا يَتعَلَّقُ بِهَا؛ فَهِيَ تَبْدَأُ بِجُمْلةٍ تَستَغْرِقُ ثَلاثةَ أَبيَاتٍ فِي مُفتَتَحِ القَصِيدَةِ، تَجْذِبُهَا جُمْلةٌ أُخْرَى شَرْطِيَّةٌ مَبْتُورَةٌ فِي نِهَايَةِ الأَبْيَاتِ الثَّلاثَةِ، تَلِيهَا جُمْلتَانِ فِعلِيَّتَانِ قَصِيرَتَانِ، فِي بَيْتٍ وَاحِدٍ، وَجُمْلةٌ ثالِثةٌ يَحتَوِيهَا بَيْتٌ وَاحِدٌ كَذَلِكَ، وَالجمَلُ هُنَا تَطُولُ أَوْ تَقْصُرُ وَفْقًا لِلنَّفَسِ الشِّعْرِيِّ الْخَاصِّ بِكُلِّ جُمْلةٍ، وَسَوْفَ نَرَى أَنَّ الجمَلَ القَصِيرَةَ فِي هَذَا الموْضِعِ مِنَ القَصِيدَةِ تُلَابِسُهَا حَالةٌ انْفِعَاليَّةٌ مُتوَتِّرَةٌ تَتَوَاءَمُ مَعَ النمُوِّ الشِّعْرِيِّ لِلقَصِيدَةِ، ثُمَّ تُسْلِمُ هَذِهِ الحالةُ إِلَى حَالَةٍ أُخْرَى تُمَثِّلُ ذِرْوَةَ القَصِيدَةِ مِنْ حَيثُ البِنَاءُ الشِّعْرِيُّ وَالنَّحْوِيُّ مَعًا، وَهِيَ التطْهِيرُ بِالْخَيَالِ الفَنِّي، وَلِذَلِكَ تَتعَقَّدُ الجمْلةُ وَتَتَشَابَكُ وَتَطُولُ فَتَحْتَوِي هَذِهِ الجمْلةُ المصَوِّرَةُ تِسْعَةَ أَبْيَاتٍ مِنَ القَصِيدَةِ، مِنَ البيْتِ السَّادِسِ حَتَّى آخِرِ البيْتِ الرَّابِعَ عَشَرَ، بَعْدَ هَذِهِ الذِّرْوَةِ يَحْدُثُ نَوْعٌ مِنَ الانْفِرَاجِ وَالتطْهِيرِ؛ فَتَأْخُذُ القَصِيدَةُ فِي أَبْيَاتِهَا الباقِيةِ مَسَارًا مُتوَازِنًا أَقْرَبَ إِلَى رُوحِ الفُرُوسِيَّةِ وَاسْتِعْرَاضِ القُوَى الغَارِبَةِ، وَتَتَوَازَى مَعَ هَذِهِ الحالَةِ صِيَاغَةُ الجمَلِ فتَتَشَابَهُ مِنْ حَيْثُ التَّرْكِيبُ، وَتَتَمَاثَلُ فِي البَدْءِ وَالنهَايَةِ، وَيُكوِّنُ هَذَا القِسْمَ أَرْبَعُ جُمَلٍ، تَقَعُ الأُولَى مِنْهَا فِي خَمْسَةِ أَبْيَاتٍ، وَالثَّانِيَةُ والثَّالِثَةُ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي بَيتَيْنِ، وَالأَخِيرَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَبْيَاتٍ"(١).

لَقَدْ نَقَلْتُ كَلَامَ النَّاقِدِ عَنِ المسْتَوَى الأُفُقِيِّ تَامًّا رُغْمَ طُولِهِ، لِأُسَائِلَهُ: أَيْنَ الترَابُطُ بَينَ أَجْزَاءِ هَذَا المسْتَوَى؟! إِنَّ النَّاقِدَ يُحدِّثُنَا عَنْ جُمْلَةٍ تَجْذِبُ جُمْلةٌ، وَعَنْ جُمْلةٍ تَلِي أُخْرَى، وَعَنْ جُمْلَةٍ يَحتَوِيهَا بَيتٌ وَاحِدٌ، وَجُمَلٍ تَطُولُ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ٤٦.

أَوْ تَقْصُرُ حَسَبَ النفَسِ الشِّعْرِيِّ، أَوْ جُمْلَـةٍ تَتَعَقَّدُ وتَتشَابَكُ ... وَغَيْرِ ذَلِك مَمَّا تَضَمَّنَهُ كَلامُهُ الآنِفُ وَلَا دَاعِيَ لِإِعَادَتِهِ، وُكُلُّ هَذَا حَسَنٌ بَسَنٌ، لَكِنَّهُ لَا يُوضِّحُ التَّرَابُطَ الذِي ذَكَرَهُ النَّاقِدُ فِي تَعْرِيفِهِ لِهَذَا المسْتَوَى، وَزِدْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّاقِدَ وَصَفَ فِي هَذَا المسْتَوَى الأُفُقِيِّ القَصِيدَةَ كَامِلَةً، فَمَا الفَارِقُ – إِذَنْ – بَيْنَ هَذَا المسْتَوَى، وَالمسْتَوَى الرَّأْسِيِّ الذِي يُنْتَظَرُ مِنْهُ أَنْ يَتَنَاوَلَ التَّرَابُطَ عَلَى مُستَوَى القَصِيدَةِ كُلِّهَا؟!

وَلَقَدْ قُلْنَا بِأَنَّ التعْرِيفَاتِ أَوِ الْمَفَاهِيمَ عُقُودٌ، وَمَا يَصِحُّ أَنْ يَذْكُرَ النَّاقِدُ فِي تَعرِيفَاتِهِ شَيْئًا، ثُمَّ لَا يَتجَلَّى فِي تَطْبيقَاتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُوَسِّعُ المسَافَةَ بَينَ التَّنظِيرِ وَالتَّطْبِيقِ، وَيُعَمِّقُ الفَجْوَةَ بَينَهُما فَيَبْدُوَانِ مُتدَابِرَيْنِ مُتنَاقِضَيْنِ، وَبِذَلِكَ يَبْطُلُ الشِّقُّ الأَوَّلُ مِنَ العَقْدِ.

وَأَمَّا **<u>المسْتَوَى الرَّأْسِيُّ</u>** فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ؛ فَقَدْ قُلْنَا إِنَّهُ تَفْصِيلٌ لِمَا أُجْمِلَ فِي المسْتَوَى الأُفُقِيِّ؛ حَتَّى صَارَ هَذَا المسْتَوَى الرأْسِيُّ لُحْمَةَ قِرَاءَةِ **د. حَمَاسَةَ** قَصِيدَةَ ثَعْلبَةَ وَسَدَاهَا؛ فَتحْلِيلُ القَصِيدَةِ يَكْمُنُ فِيمَا قَالَهُ عَنِ المسْتَوَى الرَّأْسِيِّ فِيهَا؛ لَكِنَّ النَّاقِدَ أَجْمَلَ وَفَصَّلَ فِي تَنَاوُلِ هَذَا المسْتَوَى كَذَلِكَ، فَأَمَّا إِجْمَالُهُ فَقَدْ قَسَّمَ هَذِهِ القَصِيدَةَ قِسْمَيْنِ: **أَوَّلُهُمَا** – مِنَ البَيْتِ الأَوْلِ حَتَّى البَيْتِ الرَّابِعَ عَشَرَ، **وَثَانِيهِمَا** – مِنَ البيْتِ الخَامِسَ عَشَرَ حَتَّى نِهَايَةِ القَصِيدَةِ (البَيْتِ السَّادِسِ والعِشْرِينَ)، ثُمَّ أَشَارَ إِلَى مُلاحَظَاتٍ عَامَّةٍ حَوْلَ القِسْمَينِ، يَتَشَابَهَانِ فِي بَعضِهَا وَيَخْتَلِفَانِ فِي أُخْرَى، وَيُهِمُّنَا مِنْهَا مَا يَتَّصِلُ بِالمسْتَوَى الرَّأْسِيِّ؛ حَيْثُ تَخْتَلِفُ أَدَاةُ التَّرَابُطِ فِي القِسْمَيْنِ: **<u>فَالقِسْمُ الأَوَّلُ</u>** يَتَماسَكُ بَعضُهُ مَعَ بَعضٍ عَنْ طَرِيقِ التَّدَاعِي الانْفِعَالِيِّ... وَتَسْقُطُ الرَّوَابِطُ اللفْظِيَّةُ المبَاشِرَةُ اكْتِفَاءً بِأَنَّ مَوَادَّ الْمُفْرَدَاتِ بِظِلَالِهَا تَتَكَرَّرُ بَينَ الأَبْيَاتِ، وَرُغْمَ أَنَّ الجمَلَ فِي هَذَا القِسْمَ تَتَرَابَطُ مَعَانِيهَا وَتَتَسَاوَقُ فَإِنَّ بَعْضَها يَرْتَبِطُ بِبَعْضٍ عَنْ طَرِيقِ الأَدَوَاتِ اللفْظِيَّةِ كَذَلِكَ.. لَكِنَّ التَّرَابُطَ يَتحَقَّقُ فِي **القِسْمِ**

الثَّانِي عَنْ طَرِيقِ الأَدَوَاتِ، كَمَا تَتَشَابَهُ تَرَاكِيبُهُ النحْوِيَّةُ حَتَّى لَيُمْكِنُ القَوْلُ بِأَنَّ هَذَا القِسْمَ جُمْلَةٌ وَاحِدَةٌ(١).

وَمَعْنَى كَلامِ **د. حَمَاسَةَ** أَنَّ القِسْمَ الأَوَّلَ مِنَ القَصِيدَةِ وَاهِي الصِّلَةِ بِمَا أَسْمَاهُ المستوَى الرَّأْسِيَّ؛ ذَلِكَ أَنَّ الترَابُطَ فِيهِ اعتَمَدَ اعتِمَادًا رَئِيسًا عَلَى الانْفِعَالِ وَتَساوُقِ المعَانِي، وَقَلَّما اعْتَمَدَ عَلَى الرَّوَابِطِ اللفْظِيَّةِ أَوِ العَلَاقَاتِ النَّحْوِيَّةِ كَمَا سَمَّاهَا **د. حَمَاسَةُ** فِي تَعْرِيفِهِ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَيْضًا أَنَّ كَلَامَ النّاقِدِ عَنِ التَّرَابُطِ فِي القِسْمِ الأَوَّلِ قَرِيبٌ مِمَّا سَمَّاهُ النقَّادُ (الوَحْدَةَ العُضْوِيَّةَ)، وَبَعِيدٌ جِدًا عَمَّا يُعرَفُ بِالتَّمَاسُكِ النصِّيِّ.

وَأَمَّا مَا فَصَّلَهُ النَّاقِدُ فِي تَنَاوُلِ المسْتَوَى الرَّأْسِيِّ، فَإِنَّهُ قَدْ جَعَلَ يَتَنَاوَلُ القَصِيدَةَ جُمْلَةً جُمْلَةً، غَيْرَ أَنَّهُ يَتَّسِعُ بِمَفْهُومِ الجمْلَةِ فَيَخْرُجُ بِهَا عَنْ مَفْهُومِهَا النَّحْوِيِّ المعْرُوفِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ قَسَّمَ القَصِيدَةَ جُمَلًا وَفْقَ النفَسِ الشِّعْرِيِّ، عَلَى نَحْوِ مَا قَالَ قَبْلُ، وَمِنْ ثَمَّ قَصُرَتِ الجمْلةُ حِينًا فَكَانَتْ بَيْتًا، وَطَالَتْ حِينًا فَكَانَتْ ثَلاثَةَ أَبْيَاتٍ أَوْ أَكْثَرَ حَتَّى بَلغَتْ تِسْعَةَ أَبْيَاتٍ؛ وَلَا يَخفَى عَلَيكَ أَنَّ اسْتِخْدَامَ **د. حَمَاسَةَ** المفَاهِيمَ اسْتِخْدَامًا خَاصًّا أَضَافَ ثُغْرَةً أُخْرَى إِلَى خِطَابِهِ النقْدِيِّ، فَأَظْهَرَ مَفَاهِيمَ ذَلِكَ الخِطَابِ مُضْطَرِبَةً مُشَوَّشَةً، وَلَا سِيَّمَا أَنَّ لِبَعْضِ هَذِهِ المَفَاهِيمِ مَعَانِيَ قَارَّةً مُتفَقًا عَلَيْهَا، مِثْلَما لَاحَظْنَا فِي مَفهُومِهِ لِلعَلَاقَاتِ الرَّأْسِيَّةِ، وَمَفْهُومِ الجمْلَةِ، وَمَفهُومِ المعْنَى النحْوِيِّ الدِّلَالِيِّ.

وَإِذَا تَجَاوَزْنَا تِلْكَ الثُّغْرَةَ؛ فَهَلْ اسْتَطَاعَ **د. حَمَاسَةُ** تَجْلِيَةَ تَرَابُطِ القَصِيدَةِ فِيمَا فَصَّلَهُ مِنْ تَنَاوُلِ المسْتَوَى الرَّأْسِيّ؟

حِينَ نَتَتَبَّعُ **د. حَمَاسَةَ** فِي تَناوُلِهِ المسْتَوَى الرَّأْسِيَّ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ نَجِدُه يُقَسِّمُهَا جُمَلًا وَفْقَ مَفهُومِهِ الْخَاصِّ لِلجُمْلَةِ كَمَا قُلْنَا، كَمَا نَجِدُهُ يُعْنَى بِالوَظَائِفِ النَّحْوِيَّةِ التِي تَضَمَّنَتْهَا كُلُّ جُمْلَةٍ، أَوْ يُعْنَى بِمَا لَفَتَهُ مِنْ وَظَائِفِهَا

(١) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ٤٧.

النَّحْوِيَّـةِ؛ كَـأَنْ يُشِيرَ إِلَـى نَـوْعِ جُملِهَـا (اسْمِيَّةٍ، فِعْلِيَّـةٍ، شَـرْطِيَّةٍ)، أَوِ التقْـدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، أَوِ النعُوتِ وَتَعدُّدِهَا، أَوِ التعْرِيفِ وَالتنْكِيرِ، أَو الاسْتِفْهَامِ وَأَدوَاتِـهِ، أَوِ الفِعْلِ وَنَوعِهِ وَمَا أُسْنِدَ إِلَيْهِ مِنْ ضَمائِرَ، أَوِ الضَّمَائِرِ وَاخْتِلَافِهَا مَا بَيْنِ غَيبَةٍ وَخِطَابٍ وَتَكَلُّمٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الوَظَائِفِ النَّحْوِيَّةِ الكَثِيرَةِ التِي التَفَتَ إِلَيهَا **د. حَمَاسَةُ**، وَأَعْطَاهَا دِلَالَاتٍ وَمَعَانِيَ وَفْقَ سِيَاقِهَا فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ.

لَكِنَّ الذِي نَفْتَقِدُهُ فِي هَذِهِ القِرَاءَةِ وَوَدِدْنَا لَوْ وَجَدْنَاهُ؛ هُوَ التَّرَابُطُ بَينَ هَذِهِ الجمَلِ حَتَّى يَتحقَّقَ المسْتَوَى الرَّأْسِيُّ بِالْمَفْهُومِ الذِي ارْتَضَاهُ النّاقِدُ نَفْسُهُ، وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ النَّاقِدَ فَكَّكَ القَصِيدَةَ وَلَمْ يُعِدْ تَرْكِيبَهَا، وَلَا نَكَادُ نَجِدُ مَا يَدُلُّ عَلَى تَرَابُطِ القَصِيدَةِ أَوْ تَرَابُطِ جُمَلِهَا غَيْرَ إِشَارَاتٍ مُجْمَلَةٍ، أَشَرْنَا إِلَى مَا يَتَّصِلُ مِنْهَا بِقِسْمَيِ القَصِيدَةِ الرَّئِيسَيْنِ، وَهَذِهِ إِشَارَةٌ أُخْرَى يَقولُ فِيهَا **د. حَمَاسَةُ:** "وَقَدِ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الافْتِتَاحِيَّةُ بِمُفْرَدَاتِهَا عَلَى الْجَوِّ الذِي سَيْطَرَ عَلَى كُلِّ أَجْزَاءِ القَصِيدَةِ، **وَكَثِيرٌ مِنْ كَلِمَاتِهَا تَرَدَّدَ صَدَاهُ فِي بَعْضِ أَبْيَاتِ القَصِيدَةِ، فَأَقَامَ بَيْنَ أَجْزَائِهَا صِلَاتٍ حَمِيمَةً تَرَابَطَتْ وَتَجَاوَبَتْ تَجَاوبَ الصَّدَى مَعَ الصَّوْتِ**، فَالتَّرَوُّحُ وَالبُكُورُ وَاللُّبَانَةُ وَالعِدَاتُ المخْلَفَةُ وَالأَسْحَمُ الْمَائِرُ، **قَدْ جَاوَبَتْهَا حَالَاتٌ مُمَاثِلَةٌ أَوْ مُخَالِفَةٌ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَبْيَاتِ القَصِيدَةِ**"[1].

وَيُفْهَمُ مِنْ كَلَامِ **د. حَمَاسَةَ** أَنَّهُ يَرُدُّ تَرَابُطَ القَصِيدَةِ مَعَ افتِتَاحِيَّتِهَا إِلَى مَجْمُوعَةٍ مِنْ كَلِمَاتِ الافْتِتَاحِيَّة يَتَرَدَّدُ صَدَاهَا فِي بَقِيَّةِ أَبْيَاتِ القَصِيدَةِ، وَذَلِكَ مَا يُسَمِّيهِ عُلَمَاءُ الدِّلَالَةِ (نَظَرِيَّةَ الحقُولِ الدِّلَالِيَّةِ)، وَمِثْلُ هَذَا الرَّابِطِ نَسْتَغْرِبُهُ؛ لِأَنَّهُ إِنْ وُجِدَ فِي بَعْضِ أَبْيَاتِ القَصِيدَةِ أَوْ أَكْثَرِهَا – وَفْقَ كَلَامِ النّاقِدِ – فَقَدْ غَابَ عَنْ بَعضِهَا؛ فَمَاذَا نَقُولُ فِي هَذِهِ الأَبْيَاتِ التِي لَمْ تَتَرَدَّدْ فِيهَا ظِلَالُ هَذِهِ الكَلِمَاتِ؟ إِنَّ التَّرَابُطَ بِذَلِكَ غَيْرُ تَامٍّ، كَمَا أَنَّ هَذِهِ الظِّلَالَ تَتَجَاوَبُ مُمَاثِلَةً

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ٥٠.

أَوْ مُخَالِفَةً، وَإِذَا سَاغَ أَنْ تَكُونَ الْمُمَاثَلَةُ أَمَارَةَ تَرَابُطٍ، فَأَنَّى تَكُونُ الْمُخَالَفَةُ دَلِيلًا عَلَى تَرَابُطٍ؟!

وَمِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ الشَّاعِرَ أَوْ حَتَّى غَيْرَهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَصِفَ شُعُورًا مَا أَوْ يُصَوِّرَ مَوْضُوعًا أَوْ مَعْنًى مَا، فَإِنَّهُ يَنتَقِي الكَلِمَاتِ التِي تَدُورُ فِي فَلَكِهِ، وَلَا نُمَارِي بِأَنَّ فِكْرَةَ الحقُولِ الدِّلَالِيَّةِ ذَاتُ وَاشِجَةٍ بِمَفْهُومِ العَلَاقَاتِ الرَّأْسِيَّةِ، لَكِنَّهَا تَتَّصِلُ بِمَفْهُومِ العَلَاقَاتِ الرَّأْسِيَّةِ كَما أَرَادَهُ عُلَمَاءُ اللغَةِ (مِحْوَرُ الاختِيَارِ أَوْ الاسْتِبْدَالِ)، وَلَيْسَ كَمَا أَرَادَهُ **د. حَمَاسَةُ** (التَّمَاسُكُ النصِّيُّ)، يَقُولُ **د. شُكْرِي عَيَّاد:** "فَالْبَحْثُ عَنِ (الْحقُولِ الدِّلَالِيّةِ) – وَهُوَ بَحْثٌ كَمِّيٌّ أَسَاسًا – لَا يَكْشِفُ عَنْ صِفَاتٍ جَوْهرِيَّةٍ فِي النصِّ الأَدَبِيِّ، وَلَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُسَمَّى تَحْلِيلًا أُسْلُوبِيًّا لِأَنَّهُ لَا يَزِيدُ عَلَى أَنْ يُؤَكّدَ بَعْضَ الْمَقُولَاتِ النقْدِيَّةِ الشَّدِيدَةِ العُمُومِ... وَفِكْرَةُ (الحقُولِ الدِّلَالِيَّةِ) عِنْدَ عُلمَاءِ اللُّغَةِ تَعْنِي أَكْثَرَ مِنْ حَصْرِ الْمُفْرَدَاتِ التِي تَتَعَلَّقُ بِمَوضُوعٍ مُعَيَّنٍ، فَهِيَ مُحَاوَلَةٌ لِضَبْطِ مَعَانِي الْمُفْرَدَاتِ عَنْ طَرِيقِ نِسْبَةِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ طِبْقًا لِمَا أَوْضَحَهُ سُوسِير عَنِ العَلَاقَاتِ الرَّأْسِيَّةِ بَيْنَ مُفْرَدَاتِ اللّغَةِ"(١).

وَزِدْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ تَقْسِيمَ **د. حَمَاسَةَ** القَصِيدَةَ إِلَى جُمَلٍ لَا يَطَّرِدُ حَتَّى نِهَايَةِ القَصِيدَةِ؛ إِذْ يَتخَلَّى النَّاقِدُ عَنْ مَفْهُومِ الْجُمْلَةِ، وَيَسْتَبدِلُ بِهِ مَفهُومَ الصُّورَةِ أَوِ اللَّوْحَةِ، فَيتَحَدَّثُ عَنْ صُوَرِ: النَّاقَةِ وَالظَّلِيمِ، وَالبيْضِ وَرِعَايتِه، وَأَرْبَعِ صُوَرٍ **لِسُمَيَّةَ** تَتشَابَهُ تَرَاكِيبُهَا، لَكِنْ تَظَلُّ إِشَارَاتُ النّاقِدِ إِلَى اتِّصَالِ هَذِهِ الصُّوَرِ بَعضِهَا بِبَعْضٍ مُرْسَلَةً دُونَ دَلِيلٍ لُغَوِيٍّ جَلِيٍّ يُؤَكِّدُ هَذَا الاتِّصَالَ.

وَلَا يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ كَلَامَ **د. حَمَاسَةَ** خَلَا تَمَامًا مِنَ الإِشَارَةِ إِلَى التَّرَابُطِ فِي القَصِيدَةِ، وَإِنَّمَا تَظَلُّ إِشَارَاتُهُ إِلَى ذَلِكَ التَّرَابُطِ إِمَّا مُجْمَلَةً مُرْسَلَةً، أَوْ جُزْئِيَّةً، تُعنَى بِمَوْضِعٍ وَتُغْفِلُ مَوَاضِعَ، نَحْوَ قَوْلِهِ: "وَرُغْمَ تَوَارِي الظَّلِيمِ

(١) د. شكري عياد: **علم الأسلوب (مدخل ومبادئ) يليه اللغة والإبداع**، ص ١٥٢.

وَعَدَمِ نَعْتِهِ مُستَقِلًّا إِلَّا بِجُمِلَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ (يَبْرِي لِرَائِحَةٍ) فَإِنَّ الْجَارَّ وَالْمَجْرُورَ (لِرَائِحَةٍ) يَتَعَلَّقُ بِالفِعْلِ (يَبْرِي) وَكُلُّ النعُوتِ التِي وُصِفَتْ بِهَا النَّعَامَةُ الرَّائِحَةُ رَاجِعَةٌ إِلَى هَذَا الظَّلِيمِ، فَهوُ وَرَاءَ كُلِّ هَذِهِ النعُوتِ رُغْمَ بُرُوزِ النعَامَةِ دُونَهُ وَإِيهَامِ الاسْتِقْلَالِ بِهَذِهِ النعُوتِ"[1].

وَرُغْمَ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** أَخْفَقَ فِي تَجْلِيَةِ التَّرَابُطِ بَينَ أَجْزَاءِ هَذِهِ القَصِيدَةِ، فَلَيْسَ يَمْنَعُنِي ذَلِكَ أَنْ أُبْدِيَ إِعْجَابِي بِهَذِهِ القِرَاءَةِ عَلَى نَحْوٍ خَاصٍّ، وَلَوْ أَنَّهُ مَضَى عَلَى هَذَا النَّهْجِ فِي كُلِّ مَا قَرَأَهُ مِنْ قَصَائِدَ أَوْ دَوَاوِينَ لَكَسَبَ النقْدُ الأَدَبِيُّ، وَنَحْوُ النصِّ كَذَلِكَ خَيْرًا كَثِيرًا؛ ذَلِكَ أَنَّ وُقُوفَ النَّاقِدِ أَمَامَ كَثِيرٍ مِنَ الوَظَائِفِ النحْوِيَّةِ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ عَسِيٌّ بِالإِعْجَابِ وَالتقْدِيرِ، وَلَوْ أَنَّهُ اخْتَارَ قَصِيدَةً أُخْرَى تَسْتَجِيبُ لِهَذَا المدْخَلِ الخَاصِّ (شَبَكَةُ العَلَاقَاتِ فِي القَصِيدَةِ)، أَوْ جَعَلَ المدْخَلَ عَامًّا؛ لَكَانَ أَوْلَى.

وَلَنْ أَعْتَذِرَ عَنْ هَذِهِ القِرَاءَةِ بِأَكْثَرَ مِمَّا اعْتَذَرَ بِهِ **د. حَمَاسَةُ** نَفْسُهُ، حِينَ سَمَّاهَا مُحَاوَلَةً أَوْ تَجْرِبَةً أُولَى، فقَالَ: "وَأَخِيرًا .. أَعْتَقِدُ – كَمَا يَعتَقِدُ غَيْرِي – أَنَّ الكَلَامَ النَّظَرِيَّ قَدْ يَكُونُ سَهْلًا مَيْسُورًا؛ لِأَنَّ مَجَالَ القَوْلِ فِيهِ مُطْلَقٌ، وَلَكِنَّ المحَكَّ الَّذِي لَا يُخْطِئُ هُوَ التَّجْرِيبُ وَالْمُمَارَسَةُ، وَقَدْ حَاوَلْتُ قَبْلَ أَنْ أَكْتُبَ مَا كَتَبْتُ أَنْ أُطَبِّقَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ – التِي أُومِنُ بِهَا وَتَسْتَوْلِي عَلَيَّ – عَلَى قَصِيدَةٍ مِنْ مُخْتَارَاتِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ[2]، وَقَدْ لَا تَكُونُ التَّجْرِبَةُ الأُولَى وَافِيَةً تَمامًا، وَلَكِنَّهَا أَثْبَتَتْ لِي – أَوْ أَرْجُو ذَلِكَ – أَنَّهَا مُمْكِنَةُ التَّحْقِيقِ"[3].

وَأَمَّا **<u>غِيَابُ المدْخَلِ النحْوِيِّ أَوْ شُحُوبُهُ وَنُحُولُه</u>**، فَخَيْرُ مَا يُمثِّلُ ذَلِكَ المَلْحَظَ الفَصْلُ الثَّالِثُ مِنَ كِتَابِ الناقِدِ (اللغةُ وَبِنَاءُ الشِّعْرِ) بِمَا ضَمَّهُ مِنْ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ٦٠.

(٢) أشار د. حماسة إلى أنه عنى بهذه القصيدة قصيدة (ثعلبة بن صعير الخزاعي) تحديدًا.

(٣) السابق، ص ٤٠.

تَحْلِيلٍ نَصِّيٍّ لِثَلاثِ قَصَائِدَ مُعَاصِرَاتٍ، وَهِيَ قَصَائِدُ: الحبُّ وَالأَشْيَاءُ لِحَامِد طَاهِر، وَالآتُونَ مِنْ رَحِمِ الغَيْبِ لِسَمِير فَرّاج، أَصْوَاتٌ مِنْ تَارِيخٍ قَدِيمٍ لِفَارُوق شُوشَة؛ حَيْثُ يَتَفَاوَتُ حَظُّ هَذِهِ القِرَاءَاتِ الثَّلَاثِ مِنَ اتِّكَائِهَا عَلَى المدْخَلِ النَّحْوِيِّ؛ فَبينَما نَرَاهُ شَاحِبًا فِي وَاحِدَةٍ أَوِ اثْنَتَيْنِ، نَفتَقِدُهُ فِي الثَّالِثَةِ حَتَّى مَا نكَادُ نَرَاهُ.

وَإِذَا بَدَأْنَا **بِالقَصِيدَةِ الأُولَى (الحبُّ وَالأَشْيَاءُ لِحَامِد طَاهِر)** فَإِنَّنَا نَلْحَظُ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** قَدْ رَبَطَهَا بِالدِّيوَانِ الَّذِي وَرَدَتْ فِيهِ، وَقَدْ سَمَّاهُ الشَّاعِرُ (دِيوَانَ حَامِد طَاهِر) مُسْتَنِدًا فِي هَذِهِ التَّسْمِيَةِ إِلَى التُّرَاثِ الشِّعْرِيِّ فِي العُقُودِ الأُولَى. وَفِي هَذِهِ القِرَاءَةِ نَجِدُ **د. حَمَاسَةَ** يُحَدِّثُنَا عَمَّا فِي هَذَا العُنوَانِ مِنْ مُفَاجَأَةٍ؛ فَبَيْنَما كَانَ العُنوَانُ تَقْلِيديًّا جَاءَ الشِّعْرُ غَيْرَ تَقْلِيدِيٍّ، كَمَا يُحَدِّثُنَا عَنْ صَفَاءِ دِيوَانِ **حَامِد طَاهِر** وَبَرَاءَتِهِ مِنَ الغُمُوضِ وَالانْبِهَامِ، وَيُشِيرُ إِلَى الطَّابَعَيْنِ القَصَصِيِّ وَالْحِوَارِيِّ فِي الدِّيوَانِ(١)، لَكِنَّ العَجِيبَ أَنْ لَا يَستَدِلَّ الناقِدُ مِنْ دِيوَانِ شَاعِرِهِ وَلَوْ بِمِثَالٍ وَاحِدٍ يُؤَكِّدُ الطَّابَعَ القَصَصِيَّ فِيهِ، وَإِنَّمَا يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الأُسْلُوبَ القَصَصِيَّ قَدِيمٌ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، كَأَنَّهُ يُلْمِحُ إِلَى أَنَّ الشَّاعِرَ حَامِد طَاهِر لَمْ يَأْتِ بِجَدِيدٍ، ثُمَّ يُؤَكِّدُ كَلَامَهُ بِمَا قَالَهُ ابْنُ طَبَاطَبَا العَلَوِيُّ عَنِ اضْطِرَارِ الشَّاعِرِ إِلَى اقْتِصَاصِ خَبَرٍ فِي شِعْرٍ، كَمَا يَستَدِلُّ بِقَصِيدَةِ الأَعْشَى التِي ضَرَبَهَا ابْنُ طَبَاطَبَا مِثَالًا عَلَى الأُسْلُوبِ القَصَصِيِّ فِي الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، أَمَّا دِيوَانُ حَامِد طَاهِر الَّذِي آثَرَتْ كَثِيرٌ مِنْ قَصَائِدِهِ الطَّابَعَ القَصَصِيَّ(٢) كَمَا يَقُولُ **د. حَمَاسَةُ** نَفْسُهُ فَلَمْ يَذْكُرْ الناقِدُ مِنْ تِلْكَ القَصَائِدِ وَلَوْ مِثَالًا وَاحِدًا، وَقَدْ نَلْتَمِسُ العُذْرَ لِأُستَاذِنَا الدُّكْتُورِ **حَمَاسَةَ** بِأَنَّ القَصِيدَةَ

(١) انظر في هذه الملحوظات د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، من ص ١١٣ حتى ١١٦.

(٢) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١١٤.

التِي عُنِيَ بِقِرَاءَتِهَا مِنْ ذَلِكَ الدِّيوَانِ (الْحُبُّ وَالأَشْيَاءُ) هِيَ قِصَّةٌ قَصِيرَةٌ جِدًا وَفْقَ مَا يَقُولُهُ **د. حَمَاسَةُ** نَفْسُهُ(١).

وَالْحَقُّ أَنَّ الإِشَارَاتِ النحْوِيَّةَ فِي هَذِهِ القِرَاءَةِ كَثِيرَةٌ جِدًّا، لَكِنَّ **د. حَمَاسَةَ** قَدْ يُشِيرُ إِلَى مَلْمَحٍ نَحْوِيٍّ دُونَ أَنْ يُرَتِّبَ عَلَيْهِ دِلَالَةً فَنِيَّةً أَوْ قِيمَةً جَمَالِيَّةً، فَيبْقَى فِي حُكْمِ المعْدُومِ؛ كَأَنْ يَقُولَ: "وَكَمَا بَدَأَ الْمَقْطَعُ الأَوَّلُ فِي القَصِيدَةِ بِظَرْفٍ مَدْفُوعٍ إِلَى الصَّدَارَةِ بَدَأَ الْمَقْطَعُ الثَّانِي بِجَارٍّ وَمَجْرُورٍ مَدفُوعٍ إِلَى الصَّدْرِ، وَهُوَ **(وَعَلَى شَطِّ النِّيلِ الممْتَدّ/ كُنَّا نَمْشِي سَاعَاتٍ لَا نُجْهَدْ)**. وَاخْتِيَارُ الكَلِمَاتِ فِي القَصِيدَةِ لَا يَكُونُ عَشْوَائِيًّا، وَكَذَلِكَ اخْتِيَارُ الوَظَائِفِ النحْوِيَّةِ لَهَا لَا يَكُونُ عَبَثًا. وَلِذَلِكَ تَأْتِي كَلِمَاتُ (شَطِّ) وَ(النِّيلِ) وَنَعْتِهِ بِـ(الممْتَدِّ). وَالنِّيلُ هُوَ مَصْدَرُ الخصْبِ الذِي يَحْمِي الحيَاةُ، وَمِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ بِوَصْفِهِ مَاءً، وَهُمَا بَعْدُ لَمْ يَخُوضَا غِمَارَ الْحُبِّ وَلَمْ يَغرَقَا فِيهِ، بَلْ إِنَّهُما لَا يَزَالَانِ عَلَى (شَطِّ النيلِ). وَأَمَامَهُمَا شَوْطٌ طَوِيلٌ طَوِيلٌ وَلِذَلِكَ فَالشَّطُّ (مُمْتَدٌّ). وَالفِعْلُ (نَمْشِي) فِيهِ طَرَاوَةٌ وَلُيُونَةٌ وَلَيْسَ جِدًّا وَنَشَاطًا وَلِذَلِكَ جَاءَتْ (لَا نُجْهَد) وَلَوْن الفُستَانِ مَا يَزَالُ يُغَشِّي الرُّؤْيَا وَيُضَلِّلُ عَنِ الطَّرِيقِ، فَتَأْتِي جُمْلَةُ (وَنُحَاوِلُ أَنْ نَنْسَى لَوْنَ الفُستَانِ). وَالمعَادِلُ لَهُ هُوَ الكَلَامُ الْحُلْوُ عَنِ الغَدِ الْمَفْرُوشِ بِوَرْدٍ وَلَيْسَ العَمَلَ مِنْ أَجْلِهِ. وَأَمَّا جُمْلَةُ (وَكَثِيرًا مَا كُنْتِ تُغَنِّينَ قَصِيدَتِي الأُولَى تِلْكَ الكَلِمَات الخجْلَى عَنْ عَيْنَيْكِ وَأَشْوَاقِي وَلَيَالِي السُّهْدِ) فَهِيَ تَوَدُّدُ عَاتِبٍ يُرِيدُ مَعْرِفَةَ سَبَبِ التحَوُّلِ الذِي جَعَلَ (عَيْنَيْكِ) تَتَوَقَّفَانِ أَمَامَ الوَاجِهَةِ الْمَلْأَى. مَا الذِي جَرَى لِعَيْنَيكِ؟ وَلِمَاذَا تَحَوَّلَتَا عَنِّي إِلَى تِلْكَ الأَشْيَاءِ؟"(٢).

(١) السابق، ص ١١٨.

(٢) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٢٢.

وَلَقَدْ ذَكَرْتُ هَذِهِ الفِقْرَةَ مِنْ كَلَامِ **د. حَمَاسَةَ** عَلَى طُولِهَا لِأَضَعَ بَينَ يَدَيِ القَارِئِ نَمُوذَجًا مِنْ تَعَامُلِ النَّاقِدِ مَعَ النصِّ؛ حَيْثُ ذَكَرَ وَظَائِفَ نَحْوِيَّةً كَثِيرَةً، ثُمَّ أَوَّلَ بَعْضَهَا وَتَرَكَ بَعضَهَا دُونَمَا تَأْوِيلٍ مُكْتَفِيًا بِذِكْرِهَا أَوْ وَصْفِهَا، نَاهِيكَ بِأَنَّ بَعْضَ تَأْوِيلَاتِهِ يُمْكِنُ أَنْ تُوصَفَ بِأَنَّهَا ذَاتِيَّةٌ أَوِ انْطِبَاعِيَّةٌ وَلَيْسَتْ مَبنِيَّةً عَلَى وَظِيفَةٍ نَحْوِيَّةٍ، فَلَئِنْ سَأَلْتَ مَثَلًا: إِلَامَ اسْتَنَدَ **د. حَمَاسَةُ** حِينَ قَالَ بِأَنَّ الفِعْلَ (نَمْشِي) فِيهِ طَرَاوَةٌ وَلِيُونَةٌ؟ فَلَنْ تَجِدَ جَوَابًا غَيرَ أَنْ تَرُدَّ تِلْكَ الدِّلَالَةَ إِلَى رُؤْيَةٍ ذَاتِيَّةٍ انْطِبَاعِيَّةٍ، وَلَوْ رَجَعْنَا إِلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ نَفْسِهِ: "**وَعَلَى شَطِّ النيلِ الممتدّ/ كُنَّا نَمْشِي سَاعَاتٍ لَا نُجْهَد**"، لَعَلِمْنَا أَنَّ اللِّيُونَةَ وَانتِفَاءَ الإِجْهَادِ مَفهُومَانِ مِنَ اصْطِحَابِ الشَّاعِرِ مَحْبُوبَتَهُ أَثْنَاءَ المشْيِ، وَمِنْ قَوْلِهِ الصَّرِيحِ (لَا نُجْهَد)، وَلَيْسَا مَفهُومَيْنِ مِنَ الفِعْلِ (نَمْشِي)، بَلْ إِنَّ ذِكْرَ كَلِمَةِ (سَاعَات) فِي هَذَا السِّيَاقِ مُوحِيَةٌ بِالتعَبِ وَالإِجْهَادِ، لَكِنَّ اجتِمَاعَ الشَّاعِرِ بِمَنْ يُحِبُّ هَوَّنَ الإِجْهَادَ بَلْ نَفَاهُ.

وَلَيْسَ هَذَا مِثَالًا فَرِيدًا فَلَطَالَمَا أَشَارَ **د. حَمَاسَةُ** إِلَى الوَظَائِفِ النَّحْوِيَّةِ دُونَ تَأْوِيلٍ؛ مِثْلَمَا عَلَّقَ عَلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ: "**لَيْلَى/ كَمْ مِنْ صَيْفٍ وَلَّى**"، فَقَالَ فِي الْهَامِشِ: "تَصْلُحُ (كَمْ) هُنَا أَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً، وَأَنْ تَكُونَ اسْتِفْهَامِيَّةً. وَإِذَا كَانَتِ استِفْهَامِيَّةً فَهُوَ استِفْهَامٌ خَارِجٌ عَنْ دِلَالَتِهِ الأَصْلِيَّةِ. وَالتَّفْسِيرُ بِأَيِّهِمَا يُغْنِي دِلَالَةَ القَصِيدَةِ"(١).

فَالنَّاقِدُ يُشِيرُ إِلَى صَلَاحِيَّةِ (كَمْ) لِأَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً أَواسْتِفْهَامِيَّةً، وَأَنَّ أَيًّا مِنْ مَعْنَيَيْهَا يُغْنِي دِلَالَةَ القَصِيدَةِ، دُونَ أَنْ يُجَلِّيَ لِقَارِئِهِ هَذَا الغِنَى الدِّلَالِيَّ، وَتِلْكَ شِنْشِنَةٌ تَعْرِفُهَا مِنْ نُقَّادٍ كَثِيرِينَ حِينَ يُلْمِحُونَ إِلَى دِلَالَاتٍ كَثِيرَةٍ يَحْتَمِلُهَا النَّصُّ أَوِ التَّعْبِيرُ، ثُمَّ لَا يَشْفُونَ غُلَّةَ قَارِئِهِم بِذِكْرِ دِلَالَةٍ وَاحِدَةٍ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٢٣.

مِنْ تلكَ الدِّلَالَاتِ التِي يَحْتَمِلُهَا النصُّ، تُرَى مَنْ يَنْتَظِرُونَ كَيْ يُؤَدِّيَ دَوْرَهُمْ؟!

فَعَدِّ عَنْ ذَا، وَلَكِنْ أَتَصْلُحُ (كَمْ) فِي هَذَا السَّيَاقِ أَنْ تَكُونَ اسْتِفْهَامِيَّةً؟ لَقَدِ اشْتَرَطَ النحَاةُ لِكَيْ يُجَرَّ تَمْيِيزُ (كَمْ) الاسْتِفْهَامِيَّةِ بِمِنْ أَنْ تَكُونَ (كَمْ) مَجْرُورَةً بِحَرْفِ جَرٍّ ظَاهِرٍ؛ نَحْو: بِكَمْ طَبِيبٍ نُعَالِجُ الْمَرْضَى فِي القَرْيَةِ؟. صَحِيحٌ أَنَّ بَعْضَ النُّحَاةِ لَا يَشتَرِطُونَ ذَلِكَ مُستَدِلِّينَ بِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿**سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ**﴾[1]، لَكِنَّنَا إِنْ أَمْعَنَّا النظَرَ فِي الآيَةِ أَلْفَيْنَا أَنَّ الاسْتِفْهَامَ مَفهُومٌ مِنْ قَولِ الله تَعَالَى (سَلْ)، فَضْلًا عَنْ أَنَّ الفَصْلَ بَيْنَ (كَمْ) وَتَمْيِيزِهَا بِالفِعْلِ (آتَيْنَاهُم) قَدْ يُسَوِّغُ جَرَّ التمْيِيزِ بِمِنْ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ قَوْلَ **د. حَمَاسَةَ** بِأَنَّ (كَمْ) – فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ: "**لَيْلَى/ كَمْ مِنْ صَيْفٍ وَلَّى**" – تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً، وَأَنْ تَكُونَ اسْتِفْهَامِيَّةً؛ قَوْلٌ إِلَّا يَكُنْ خَاطِئًا فَهُوَ ضَعِيفٌ.

عَلَى أَنَّنَا لَا نُرِيدُ أَنْ نَبْخَسَ **د. حَمَاسَةَ** حَقَّهُ؛ فَإِنَّ لَهُ تَأْوِيلَاتٍ لِبَعْضِ الوَظَائِفِ النحْوِيَّةِ فِي القَصِيدَةِ عَسِيَّةً بِالتقْدِيرِ والإِعْجَابِ، مِنْ ذَلِكَ مَثَلًا تَأْوِيلُهُ ابْتِدَاءَ القَصِيدَةِ بِالوَاوِ العَاطِفَةِ[2]، وَتَعَدُّدِ النعُوتِ وَوَظَائِفِهَا الدِّلَالِيَّةِ فِي القَصِيدَةِ[3]، وَغَيْرِهَا.

هَذَا، وَلَا تَختَلِفُ قِرَاءَةُ **د. حَمَاسَةَ** القَصِيدَةَ الثانِيَةَ (الآتُونَ مِنْ رَحِمِ الغَضَبِ) لِلشَّاعِرِ سَمِير فَرَّاج كَثِيرًا عَنْ قِرَاءَةِ القَصِيدَةِ الأُولَى؛ ذَلِكَ أَنَّ النَّاقِدَ قَدْ جَعَلَ عُنوَانَ قِرَاءتِهِ لَهَا (شَبَكَةُ العَلاقَاتِ فِي القَصِيدَةِ)، وَرُغْمَ أَنَّ هَذَا العُنوَانَ مُوحٍ بِاهتِمَامِ النَّاقِدِ بِالعَلَاقَاتِ الرَّأْسِيَّةِ وَالأُفُقِيَّةِ فِي القَصِيدَةِ، فَإِنَّهُ قَدْ عُنِيَ كَذَلِكَ بِبِنْيَتَيْهَا السَّطْحِيَّةِ وَالعَمِيقَةِ؛ حَيثُ نَرَاهُ يُوَطِّئُ هَذِهِ القِرَاءَةَ

(١) انظر عباس حسن: **النحو الوافي**، ج ٤، ط١١، دار المعارف، القاهرة، ص ٥٧٠.
(٢) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١١٨.
(٣) انظر السابق، ص ١١٩.

بِتَأْكِيدِ ذَينِكَ المبْدَأَيْنِ؛ فَيجْعَلُ شَبكةَ العَلاقَاتِ الرَّأْسيَّةِ وَالأُفقِيَّةِ مِعْيَارًا لِجَوْدَةِ القَصِيدَةِ، وَمِنْ خِلَالِ هَذِهِ الشَّبكَةِ يَتدرَّجُ بِنَاؤُهَا، كَمَا أَنَّ المجَالَاتِ الدِّلَالِيَّةَ الْمُكوِّنَةَ لِلقَصِيدَةِ قَدْ تَتعَدَّدُ، لَكِنَّهَا تُصبِحُ دَوَالَّ مُتغيرَةً لِمَدْلُولٍ ثَابِتٍ، فَتُصْبِحُ بِذَلِكَ حَرَكةُ السَّطْحِ تَنْويعًا لِعُمْقٍ مُوَحَّدٍ، وَعَلَى القَارِئِ أَنْ يَستَكْشِفَ السِّلْكَ الرَّابِطَ الذِي يَنتَظِمُ هَذِهِ الْحَبَّاتِ التِي تَتَدَرَّجُ فِي حَجْمِهَا حَتَّى تُكَوِّنَ عِقْدًا لُغَوِيًّا فَرِيدًا(١).

أَمَّا القَصِيدَةُ ذَاتُهَا؛ فَقَدْ قَسَّمَهَا **د. حَمَاسَةُ** مَقَاطِعَ، ثُمَّ جَعَلَ يَتَتَبَّعُ هَذِهِ المقَاطِعَ خَاصًّا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِتَعْلِيقٍ رُبَّمَا يَتضَمَّنُ إِشَارَاتٍ نَحْوِيَّةً، وَرُبَّمَا يَخْلُو مِنْهَا فَيُصْبِحُ التعْلِيقُ شَرْحًا لِمَا قَالَهَ الشَّاعِرُ لَيْسَ إِلَّا، وَالْحَقُّ أَنَّ كَلامَنَا هَذَا مُرْسَلٌ لَا يَتَّضِحُ وَلَا يَسْتَبِينُ إِلَّا بِأَنْ نَنقلَ كَلَامَ النَّاقِدَ كُلَّهُ وَنُعَقِّبَ عَليهِ، وَذَلِكَ أَمْرٌ مُتعَذِّرٌ، وَمِنْ ثَمَّ نَكتَفِي بِتَنَاوُلِ مَقْطَعَينِ مِنْهَا فَحَسْبُ، آخِذِينَ فِي الحسْبَانِ أَنَّ القَصِيدَةَ – وَفْقَ كَلَامِ **د. حَمَاسَةَ** – تَتَكَوَّنُ مِنْ تِسْعَةَ عَشَرَ مَقْطعًا(٢)، وَقَدْ كَانَ لِطُولِ هَذِهِ القَصِيدَةِ أَثَرٌ فِي تَفَاوُتِ تَلَقِّي الناقِدِ مَقَاطِعَهَا؛ فَبَيْنَما يَقِفُ مَلِيًّا أَمَامَ مَقْطَعٍ، يَمُرُّ مُسْرِعًا بِمَقْطَعٍ آخَرَ، حَتَّى إِذَا أَجْهَدَهُ المسِيرُ، وَبَعُدَتْ عَلَيْهِ الشُّقَّةُ، أَخَذَ يَضُمُّ مَقطَعَيْنِ مِنْ مَقَاطِعِ القَصِيدَةِ، وَيُعَلِّقُ عَلَيْهِمَا تَعْلِيقًا مَضْمُونِيًّا لَا يُجَلِّي شَبَكَةَ العَلاقَاتِ فِيهِمَا أَوِ بِنْيَتَيْهِمَا السَّطحِيَّةَ أَوِ العَمِيقَةَ، وَقَدْ يَضُمُّ مَقطَعَيْنِ شِعْرِيِيْنِ فَيذْكُرُهُمَا، وَيَذَرُهُمَا دُونَمَا تَعْلِيقٍ(٣).

عَلَى أَنَّ مَا يُهِمُّنَا مِنْ قِرَاءَةِ تِلْكَ القَصِيدَةِ هُوَ ذَلِكَ السُّؤَالُ: إِلَى أَيِّ مَدًى أَسْهَمَ الْمَدْخَلُ النَّحْوِيُّ فِي بِنَاء مَعْنَى القَصِيدَةِ، وَتَشْكِيلِ دِلَالَاتِهَا؟

(١) انظر السابق، ص ١٢٧.

(٢) انظر السابق، ص ١٢٨.

(٣) انظر السابق، ص ١٣٦، ١٣٧.

وَلَيْسَ فِي اسْتَطَاعَتِنَا أَنْ نَنْفِي عَنْ هَذِهِ القِرَاءَةِ تَذَرُّعَهَا بِالمدْخَلِ النحْوِيِّ نَفْيًا تَامًّا. بَلْ إِنَّنَا نُؤَكِّدُ وُجُودَ إِشَارَاتٍ وَلَفَتَاتٍ نَحْوِيَّةٍ عَدِيدَةٍ فِي تِلْكَ القِرَاءَةِ، لَكِنَّهُ وُجُودٌ كَالعَدَمِ؛ فَلَئِنْ تَجَلَّى فِي قِرَاءَةِ بَعضِ مَقَاطِعِ القَصِيدَةِ فَلَقَدِ اخْتَفَى فِي قِرَاءَةِ أَكْثَرِهَا!

فَالدكْتُورُ **حَمَاسَةُ** مَثَلًا يَتَوَقَّفُ أَمَامَ الْمَقْطَعِ الافْتِتَاحِيِّ فَيَختَزِلُ بِنْيَةَ القَصِيدَةِ فِيهِ حِينَ يَرَاهَا مُتشَكِّلَةً مِنْ خِلَالِ هَذَا الْمَقْطَعِ[1]، ثُمَّ يَجْعَلُ كَلِمَةَ (الفَتْحِ) التِي ذُكِرَتْ فِي هَذَا الْمَقْطَعِ، المرْتَكزَ الضَّوْئِيَّ المشِعَّ الَّذِي سَارَتْ عَلَى هَدْيِهِ كُلُّ مَقَاطِعِ القَصِيدَةِ[2]، أَمَّا التَّحْلِيلُ النَّحْوِيُّ فَلَيْسَ هُنَالِكَ سِوَى ثَلَاثَةِ إِشَارَاتٍ نَحْوِيَّةٍ: **أُولَاهَا** – هَذِهِ الجمْلَةُ (مَدِينَتَنَا القَدِيمَة)، مِنْ قَوْلِ الشَّاعِرِ: (لِلنَّارِ رَائِحَةُ الرُّجُوعِ إِلَى **مَدِينَتِنَا القَدِيمَهْ**)؛ حَيْثُ أُضِيفَتِ المدِينَةِ إِلَى ضَمِيرِ المتكَلِّمِ لِإِثْبَاتِ مِلْكِيَّتِهَا المغْصُوبَةِ، وَوُصِفَتْ بِالقِدَمِ لِتَأْكِيدِ مِيرَاثِ هَذِهِ الْمِلْكِيَّةِ، وَ**ثَانِيَتُهَا**– كَثْرَةُ ضَمِيرِ الْجَمْعِ (مَدِينَتَنَا – مِعْرَاجُنَا – مَلَامِحنَا) لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ المدِينَةَ هِيَ الْهَدَفُ، وَالْمِعْرَاجَ هُوَ الوَسِيلَةُ، وَالْمَلَامِحُ هِيَ الْحَالَةُ الرَّاهِنَةُ التِي يُرَادُ تَغْيِيرُهَا إِلَى مَلَامِحَ تَخْلُو مِنْ تَجَاعِيدِ الْهَزِيمَةِ، وَ**ثَالِثَتُهَا**– أَنَّ جُمَلَ هَذَا الْمَقْطَعِ جُمَلٌ اسْمِيَّةٌ تُقَرِّرُ بِحَسْمٍ أَنَّ طَرِيقَ الفَتْحِ هُوَ الثَّوْرَةُ وَالنَّارُ الْمُطَهِّرَةُ[3].

ذَلِكَ حَظُّ هَذَا الْمَقْطَعِ مِنَ الْمَدْخَلِ النحْوِيِّ، وَهُوَ حَظٌّ ضَئِيلٌ، لَكِنَّنَا – رُغْمَ ذَلِكَ – نَقُولُ بِأَنَّ هَذَا الْمَقْطَعَ مَجْدُودٌ إِذَا مَا قُورِنَ بِمَقَاطِعَ أُخْرَى لَيْسَ لِلنَّحْوِ فِيهَا نَصِيبٌ، خُذْ مَثَلًا قَوْلَ **د. حَمَاسَةَ** – مَعَ الاعْتِذَارِ عَنْ طُولِ مَا اقْتَبَسْنَاهُ –: "وَيَستَمِرُّ الْمَقْطَعُ التَّالِي امْتِدَادًا لِسَابِقِهِ، وَإِنْ كَانَ يُثِيرُ إِحَالَاتٍ

(١) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٢٧.

(٢) انظر السابق، ص ١٢٨.

(٣) انظر السابق، الصفحة نفسها.

أُخْرَى جَدِيدَةٍ، مَعَ اسْتِمْرَارِ الامْتِيَاحِ مِنْ مَجَالِ (الكَلِمَةِ) كَذَلِكَ؛ إِذْ جَاءَ فِيهِ (أُرَتِّلُ) وَ(سُورَة) غَيْرَ أَنَّ التَّرْتِيلَ فِيهِ بِالدَّمِ:

بِـدَمِي أُرَتِّـلُ سُـورَةَ البِكْـرِ الَّتِـي حَمَلَـتْ بِجِيـلْ
فَأَجَاءَهَـا جَمْـرُ المَخَـاضِ إِلَـى جُـذُوعِ المسْـتَحِيلْ
فَأَتَـتْ بِـهِ فِـي كَفِّـهِ الأَحْجَـارُ وَالثَّـأْرُ النَّبِيـلْ
جِيلٌ سَيَمْسَحُ عَنْ عُيُونِ مَدِينَتِي اللَّيْلَ الطَّوِيلْ

إِنَّ البِكْرَ التِي حَمَلَتْ مُفَارَقَةٌ مُدهِشَةٌ ذَكَّرَتْ بِمَرْيَمَ عَليهَا السَّلَامُ، وَهِيَ بِكْرٌ حَمَلَتْ بِعِيسَى عَليهِ السَّلَامُ، وَهُوَ المخَلِّصُ/ فَاسْتَدْعَتِ التَّرْكِيبَ القُرْآنِيَّ الـذِي أَوْحَـى بِالصِّيَاغَةِ التَّالِيَـةِ لَـهُ (**فَأَجَاءَهَـا جَمْـرُ المَخَـاضِ إِلَـى جُـذُوعِ المسْـتَحِيلْ – فَأَتَـتْ بِـهِ...**) فَاسْـتَوْحَاهُ دُونَ أَنْ يَنقِـلَ نَصَّـهُ، وَكَسَـرَ فِيـهِ الْمَأْلُوفَ، وَأَخْلَفَ التوَقُّعَ فَجَعَلَ لِلمَخَاضِ جَمْرًا، وَتَجَسَّمَ المسْتَحِيلُ نَخْلًا، لَهُ جُذُوعٌ، وَأَتَتْ بِهِ (**فِي كَفِّهِ الأَحْجَارُ وَالثَّأْرُ النَّبِيلْ**). وَالْأَحْجَارُ مَقْرُونَةٌ بِدَافِعِ الثَّأْرِ النَّبِيلِ هِيَ التِي سَتَمْسَحُ اللَّيْلَ الطَّوِيلَ الْجَاسِمَ، وَالمحْمُولُ بِهِ هُنَا جِيلٌ بِأَكْمَلِهِ – سَوْفَ تَصْحُو المدِينَـةُ كُلُّهَا عَلَى وَقْعِ حِجَارَتِهِ التِي وُلِدَ بِهَا لِيَرُدَّ بِهَا ثَأْرَهُ عَلَى مَنْ ظَلَمَـهُ، فَكُلٌّ مِـنْهُمْ يَحْمِلُ قِطْعَـةً مِنْ (أَرْضِـهِ) يَرْمِـي بِهَا الغَاصِبِينَ لِيُشِيرَ إِلَى أَنَّ الأَرْضَ تَلْفِظُهُمْ"[1].

ذَلِكَ كَلَامُ النَّاقِدِ عَنْ هَذَا الْمَقْطَعِ تَامًّا فَتَأَمَّلْهُ، هَلْ تَجِدُ فِيهِ لِلنَّحْوِ مِنْ أَثَرٍ؟! بَلِ ارْجِعْ إِلَى قِرَاءَةِ **د. حَمَاسَـةَ** هَذِهِ القَصِيدَةَ كَامِلَـةً، ثُمَّ ابْحَثْ عَنْ شَبَكَةِ العَلاقَاتِ، أَوِ البِنْيَتَيْنِ السَّطْحِيَّةِ وَالعَمِيقَةِ فِيهَا فَلَنْ تَجِدَ غَيْرَ كَلَامٍ عَامٍّ مُجْمَلٍ لَا يَكَادُ يُبِينُ، كَأَنْ يُعْنَـى **د. حَمَاسَـةُ** بِتَغَيُّرِ نَوْعِ الضَّمَائِرِ مِنْ مَقْطَعٍ لِآخَـرَ، أَوْ تَـرَدُّدِ الأَلْفَـاظِ المتصِـلَةِ بِحَقْـلِ (الكَلِمَـةِ) الـدِّلَالِيِّ دَاخِـلَ مَقَـاطِعِ القَصِيدَةِ، وَلَا نَكَادُ نَجِدُ كَلامًا صَرِيحًا عَنْ تَرَابُطِ مَقَاطِعِ القَصِيدَةِ، وَتَمَاسُكِ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٣١.

نَصِّهَا غَيرَ قَوْلِ **د. حَمَاسَةَ:** "وَقَدِ انْتَهَتِ القَصِيدَةُ – كَذَلِكَ – كمَا بَدَأَتْ، انْتَهَتْ (بِالكَلِمَةِ) وَطَلَبِ قَوْلِهَا **(فَتَكَلَّمُوا، كَلِمَاتُكُم سَتكُونُ – إِنْ قِيلَتْ – وَطَنْ)**. وَبَيْنَ البِدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ تَدُورُ مَقَاطِعُ هَذِهِ القَصِيدَةِ التِّسْعَةَ عَشَرَ – وَهِيَ مَقَاطِعُ رُبَاعِيَّةٌ كُلُّهَا مَا عَدَا الْمَقْطَعَ الأَخِيرَ فَقَدْ جَاءَ مِنْ خَمْسَةِ أَبْيَاتٍ – عَلَى مَعْزُوفَاتِ (الكَلِمَةِ) التِي تُفَجِّرُ الغَضَبَ وَالثَّوْرَةَ، وَتَسْتَمِدُّ تَشْكِيلَهَا مِنْ مُعطَيَاتٍ تَارِيخِيَّةٍ، وَنِضَالِيةٍ مُعَاصِرَةٍ، وَتَسْتَخْدِمُ أَسَالِيبَ فَنِيَّةً فِي الإِشَارَةِ وَالإِحَالَةِ وَالْمَرْجِعِيَّةِ، وَتُؤَلِّفُ بَينَ المتنَاقِضَاتِ، وَتَصْنَعُ مِنْهَا نَسِيجًا مِنَ التَّقَابُلِ الموحِي بَيْنَ الْحَاضِرِ وَالْمَاضِي حَيثُ تُسْقِطُ المسَافَةَ وَالزَّمَنَ"[1].

وَمِثْلُ هَذِهِ الفِقْرَةِ لَا تَبُلُّ صَدًى أَوْ تَنْقَعُ غُلَّةً، وَإِنَّ مَثَلَ **د. حَمَاسَةَ** فِي دَعْوَتِهِ إِلَى المدْخَلِ النَّحْوِيِّ، وَمُخَالَفَتِهَا كَمَثَلِ نُقَّادٍ كَثِيرِينَ يَقُولُونَ شَيْئًا وَيَفْعَلُونَ شيئًا آخَرَ!

وَيَبْقَى مَا قَالَهُ **د. حَمَاسَةُ** عَنِ **<u>القَصِيدَةِ الثَّالِثَةِ</u>** قَصِيدَةِ الشَّاعِرِ الكَبِيرِ **<u>فَارُوق شُوشَة</u>** (<u>أَصْوَاتٌ مِنْ تَارِيخٍ قَدِيمٍ</u>)، وَفِي ذَرْعِنَا أَنْ نَزْعُمَ أَنَّ هَذِهِ القِرَاءَةِ فِيهَا أَيُّ شَيْءٍ إِلَّا الْمَدْخَلَ النَّحْوِيَّ؛ وَقَدْ سَمَّى الناقِدُ هَذِهِ القِرَاءَةَ (رُؤْيَةُ الْحَاضِرِ فِي الْمَاضِي)[2]، وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ أَنَّ هَذَا العُنوَانَ مُوحٍ بِأَنَّ المدْخَلَ النحْوِيَّ بَعِيدٌ عَنْ هَذِهِ القِرَاءَةِ – وَإِنَّهُ لَكَذَلِكَ – وَأَنَّ النّاقِدَ مَشْغُولٌ فِي تِلْكَ القِرَاءَةِ بِأُمُورٍ أُخْرَى غَيْرِ النَّحْوِ وَوَظَائِفِهِ وَمَعَانِيهِ.

وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ أَنَّ الشَّاعِرَ مُتَقَنِّعٌ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ بِأَصْوَاتٍ مِنَ الماضِي كَيْ يَدْمَغَ بِهَا الحاضِرَ، وَيُحَاوِلَ تَغْيِيرَهُ وَاسْتِنْهَاضَهُ، حَيْثُ كَتَبَ هَذِهَ القَصِيدَةَ وَنَشَرَهَا فِي مِجَلّةِ (الآدَابِ) بَعْدَ نَكْسَةِ يُونيُو ١٩٦٧م، وَمُؤَدَّى هَذَا التَّقَنُّعِ أَنَّ التِّقْنِيةَ المحْوَرِيَّةَ فِي القَصِيدَةِ هِيَ تِقْنِيةُ التنَاصِّ أَوْ تَوْظِيفِ

(١) السابق، ص ١٢٨.

(٢) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٤٠.

الشَّخْصِيَّاتِ التُّرَاثِيةِ. أَمَّا بِنَاءُ هَذِهِ القَصِيدَةِ فَيتَأَلفُ – وَفْقَ كَلَامِ النَّاقِدِ – مِنْ ثلَاثةِ أَصْوَاتٍ، الأَوَّلُ بِعُنوَانِ (سَيْفِ الدَّوْلَةِ) وَهُوَ بِمثَابَةِ نَفِيرِ الصَّحْوَةِ العَامِّ، ثُمَّ يَتْبَعُهُ صَوْتَانِ آخَرَانِ يُمَثِّلَانِ نَشِيدَ الأَلَمِ وَنَشِيجَ الحسْرَةِ وَالضَّيَاعِ، جَعَلَ الشَّاعِرُ عُنوَانَ أَحَدِهِمَا (أَبُو العَلَاءِ) وَالثَّانِي (عَنْتَرَةُ)[١].

عَلَى أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** يَرَى أَنَّ هَذِهِ الأَصْوَاتَ لَيْسَتْ فِي الحَقِيقَةِ إِلَّا صَوْتَ الشَّاعِرِ نَفْسِهِ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ قَدِيمَةً، وَإِنَّمَا هِيَ جَمِيعًا صَوْتُ الشَّاعِرِ المعَاصِرِ يَبْكِي عَصْرَهُ، وَيَسْتَنْهِضُ الأَصْوَاتَ الغَابِرَةَ مِنْ خِلَالِ القُرُونِ – وَهِيَ أَصْوَاتُ شُعرَاءَ أَيْضًا – لِيَخْلِطَ صَوْتَهُ بِأَصْوَاتِهِمْ حَتَّى يَرْتَفِعَ النِّدَاءُ وَيَقْوَى نَفِيرُ الصَّحْوَةِ فَيُوقِظَ النِّيَامَ، وَيَخِزَ الْمَوْتَى فَيُحْيِيهِمْ وَيُعِيدَ إِلَيْهِمُ الدَّمَ فِي العُرُوقِ[٢].

ثُمَّ يَشْرَعُ **د. حَمَاسَةُ** يَتَنَاوَلُ أَصْوَاتَ هَذِهِ القَصِيدَةِ صَوْتًا صَوْتًا، مُعَلِّقًا عَلَى بَعْضِ سُطُورِ القَصِيدَةِ بِمَا يَفْهَمُهُ مِنْهَا أَوْ تُوحِي هِيَ بِهِ دُونَ أَنْ يَبْنِيَ تَعلِيقَاتِهِ هَذِهِ عَلَى مُعطَيَاتِ النَّحْوِ وَوَظَائِفِهِ أَوْ مَعَانِيهِ، وَلَوْلَا خَشْيَةُ الإِطَالَةِ لَنقَلْتُ مِنْ كَلامِهِ مَا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ، لَكِنَّ مَا قَالَهُ **د. حَمَاسَةُ** مُتَاحٌ – عَلَى أَيَّةِ حَالٍ – لِمَنْ رَامَهُ.

فَقَدْ يُحَدِّثُكَ النَّاقِدُ خِلَالَ ذَلِكَ التنَاوُلِ عَمَّا يَتمَيَّزُ بِهِ كُلُّ صَوْتٍ مِنْ أَصْوَاتِ القَصِيدَةِ، وَقَدْ يُحَدِّثُكَ كَذَلِكَ عَنْ هُرُوبِ الشَّاعِرِ مِنَ الوَاقِعِ وَاسْتِغْرَاقِهِ فِي مَعَارِكِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ المنتَصِرَةِ، أَوِ التَّحَوُّلِ الْخَفِيِّ فِي بِنَاءِ القَصِيدَةِ، أَوْ لُجُوءِ بَعْضِ مَقَاطِعِهَا إِلَى المبَاشَرَةِ وَالتقْرِيرِيَّةِ السَّاخِرَةِ تَعْبِيرًا عَنِ الحسْرَةِ اللَّاذِعَةِ وَالشُّعُورِ بِخَيْبَةِ الأَمَلِ، بَلْ قَدْ يُحَدِّثُكَ عَنْ تَآزُرِ الموسِيقَى مَعَ أَصْوَاتِ القَصِيدَةِ، فَيَجِيءُ أَوَّلُهَا عَلَى وَزْنِ المتَدَارَكِ؛ لأَنَّهُ سَرِيعٌ لَاهِثٌ

(١) انظر السابق، ص ١٤٢.

(٢) انظر السابق، ص ١٤١.

مُتلَاحِقُ الوَقْعِ، فَيناسِبُهُ (المتدَارَكُ) الذِي يُشْبِهُ وَقْعَ الخيْلِ، وَيَجِيءُ الصَّوْتُ الثَّانِي (صَوْتُ أَبِي العَلَاءِ) عَلَى وَزْنِ الرَّجَزِ، حَيْثُ تُسَاعِدُ تَفْعِيلَتُهُ (مُسْتَفْعِلُنْ) بِكَثْرَةِ مَا يَحْدُثُ فِيهَا مِنْ تَغْيِيرَاتٍ عَلَى تَصْوِيرِ شَيْخِ المعَرَّةِ الضَّرِيرِ، وَهُوَ هُنَا رَمْزُ الحِكْمَةِ الضَّالَّةِ[1]. وَقَدْ سَكَتَ النَّاقِدُ عَنْ مُوسِيقَى الصَّوْتِ الثَّالِثِ (صَوْتِ عَنْتَرَةَ)!!

أَقُولُ: قَدْ يُحَدِّثُكَ النَّاقِدُ عَنْ هَذِهِ الأَشْيَاءِ وَغَيرِهَا مِمَّا لَمْ نَذْكرْهُ، أَمَّا الشَّيْءُ الذِي لَا يُحدِّثُكَ النَّاقِدُ عَنهُ فَهُوَ نَحْوُ النصِّ، أَوِ المعْنَى النَّحْوِيُّ الدِّلَالِيَّ، أَوِ المدْخَلُ النَّحْوِيَّ الذِي طَالَمَا وَعَدَ قَارِئَهُ وَمَنَّاهُ بِهِ، وَلَيْسَ فِي هَذِهِ القِرَاءَةِ شَيْءٌ يَتَّصِلَ بِنَحْوِ النَّصِّ اتِّصَالًا وَثِيقًا مَا خَلَا مَوْضِعَيْنِ:

أَوَّلُهُمَا – قَوْلُ النَّاقِدِ: "وَتَسْقُطُ الرَّوَابِطُ اللغَوِيَّةُ فِي القَصِيدَةِ فَنَسْمَعُ – أَوْ نَكَادُ – لُهَاثَ الخيْلِ فِي عَدْوِهَا المظَفَّرِ، وَتَجْتَمِعُ المتَقَابِلَاتُ دُونَ أَنْ نُحِسَّ هَذَا التعَارُضَ لِتَكْشِفَ عَنْ نَشْوَةِ الانتِصَارِ، فَلَا يُهِمُّ إِنْ كَانَ (طَلِيقًا أَوْ مَأْسُورًا) أَوْ (طَعِينًا أَوْ مَنْصُورًا) ... وَتَتَوَالَى الأَفْعَالُ المضَارِعَةُ فِي مُفْتَتَحِ القَصِيدَةِ (أَدْخُلُ .. أَغْزُو .. أَطْعَنُ أَهْتِكُ، أَجْمَعُ أَتَحَوَّلُ) وَتُخْتَمُ بِالفِعْلِ الأَخِيرِ (أَتَحَوَّلُ) لِيَكُونَ هَذَا التحَوُّلُ بِدَايَةَ التحَوُّلِ لِلوَاقِعِ الْمُرِّ الأَلِيمِ"[2].

ثَانِيهِمَا – إِشَارَةُ النَّاقِدِ إِلَى تَكْرَارِ الفِعْلِ (غَابَ) فِي خِتَامِ القَصِيدَةِ، حَيثُ يَقُولُ: "ثُمَّ تَنتَهِي القَصِيدَةُ بِهَذَا التعْلِيقِ الْخِتَامِيِّ الذِي تَتَرَدَّدُ فِي قَافِيَتِهِ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ الفِعْلُ (غَابَ) وَيَكْشِفُ الشَّاعِرُ عَنْ حَقِيقَةِ عَنترَةَ الفَارِسِ العَاشِقِ الذِي يَقْصِدُهُ، وَالذِي يُحَاوِلُ إِعَادَتَهُ مِنْ جَدِيدٍ:

عَنْتَرَةُ الفَارِسُ كَانَ هَا هُنَا وَغَاب

عَنْتَرَةُ العَاشِقُ عَاشَ هَا هُنَا وَغَاب

---

(١) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، صفحات: ١٤١، ١٤٢، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٨، ١٥٠.

(٢) السابق، ص ١٤٣.

عَنْتَرَةُ الإِنْسَانُ كَانَ وَاحِدًا مِنْكُم وَغَاب

وَلَعَلَّ اخْتِيَارَ الفِعْلِ (غَابَ) اسْتِمْرَارٌ لِلأَمَلِ الْخَفِيِّ السَّارِي فِي رُوحِ القَصِيدَةِ كُلِّهَا رُغْمَ مَا يَبْدُو فِيهَا مِنْ حَسْرَةٍ بَالِغَةٍ وَمَرَارَةٍ مُفْرِطَةٍ، فَقَدْ يَعُودُ هَذَا الفَارِسُ العَاشِقُ الإِنْسَانُ مِنْ غِيَابِهِ عَنْ طَرِيقِ البَحْثِ عَنْ ذَاتِنَا الغَائِبَةِ دَاخِلَ أَنْفُسِنَا"(١).

وَإِذَا عَلِمْنَا أَنَّ هَذِهِ القِرَاءَةَ قَدْ شَغَلَتْ مِنْ كِتَابِ النّاقِدِ مَا يُقَارِبُ عِشْرِينَ صَفْحَةً (مِنْ ص ١٤٠ حَتَّى ص ١٥٨)، وَلَمْ يَتَجَلَّ الْمَدْخَلُ النَّحْوِيَّ إِلَّا فِي هَذَيْنِ الْمَوْضِعَيْنِ – عَلَى ضَعْفٍ فِيهِمَا – مِنْ تِلْكَ الصَّفَحَاتِ؛ فَهَلْ كُنَّا مُغَالِينَ حِينَ زَعَمْنَا أَنَّ المدْخَلَ النَّحْوِيَّ غَائِبٌ عَنْ هَذِهِ القِرَاءَةِ؟؟

وَيَبْقَى أَنَّ مَا عُنِيَ بِهِ **د. حَمَاسَةُ** مِنَ العَنَاصِرِ النَّحْوِيَّةِ لَمْ يَتَجَاوَزْ مُستَوَى الوَصْفِ إِلَى مُسْتَوَى التَّأْوِيلِ، وَلَقَدْ أَلْمَحْنَا إِلَى بَعْضِ نَمَاذِجِهِ فِيمَا اسْتَدْلَلْنَا مِنْ كَلَامِ الناقِدِ خِلَالَ الْمَلْحَظَيْنِ السَّالِفَيْنِ، وَفِي ذَرْعِنَا أَنْ نَستَدِلَّ لِذَلِكَ بِنَمَاذِجَ أُخْرَى كَثِيرَةٍ مِنْ قِرَاءَاتِهِ المخْتَلِفَةِ، لَكِنَّ الكَلَامَ طَالَ، وَلَا دَاعِيَ لِمَزِيدٍ، وَبِخَاصَّةٍ أَنَّ مَا اكْتَفَى **د. حَمَاسَةُ** بِوَصْفِهِ مِنَ الوَظَائِفِ النَّحْوِيَّةِ مُتدَاخِلٌ – فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ – مَعَ مَا عُنِيَ بِتَأْوِيلِهِ.

وَلَيسَتْ هَذِهِ كُلَّ تَنَاقُضَاتِ **د. حَمَاسَةَ**، هَذِهِ تَنَاقُضَاتٌ عَامَّةٌ مَعَ مَبَادِئِهِ النظَرِيَّةِ، وَثَمَّةَ تَناقُضَاتٌ أُخْرَى دَاخِلِيَّةٌ وَقَعَ فِيهَا النّاقِدُ؛ أَعْنِي بِكَوْنِهَا دَاخِلِيَّةً أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** قَدْ يَتَبَنَّى مَبْدَأً فِي قِرَاءَةِ قَصِيدَةٍ، ثُمَّ تَحتَوِي القِرَاءَةُ ذَاتُهَا مَا يُنَاقِضُ ذَلِكَ الْمَبْدَأَ، وَمِثَالُ ذَلِكَ مَا فَعَلَهُ فِي قِرَاءَةِ قَصِيدَةِ المخبَّلِ السَّعْدِيِّ؛ إِذْ نَرَاهُ يَحْقِرُ المعْنَى المعجَمِيَّ وُيُهَوِّنُهُ فِي نَاظِرَي قَارِئِهِ، فَيقُولُ: "وَقَبْلَ تَحلِيلِ هَذِهِ القَصِيدَةِ عَلَى النَّحْوِ المقْبُولِ يَجِبُ أَنْ نَكُونَ عَلَى وَعْيٍ بِأَنَّ الكَلِمَةَ فِي الشِّعْرِ لَا تَحْمِلُ مَعْنَاهَا المعْجَمِيَّ فَحَسْبُ، بَلْ تَحْمِلُ مَعَهَا

(١) السابق، ص ١٥٨.

هَالَةً مِنَ المترَادِفَاتِ وَالمتَجَانِسَاتِ، وَلَا تَكْتَفِي الكَلِمَاتُ بِأَنْ يَكُونَ لَهَا مَعْنًى فَقَط، بَلْ تُثِيرُ مَعَانِيَ كَلِمَاتٍ تَتَّصِلُ بِهَا مِنْ حَيْثُ الصَّوْتُ أَوِ المعْنَى أَوْ الاشْتِقَاقِ، أَوْ حَتَّى كَلِمَاتٍ تُعارِضُهَا أَوْ تَنَفِيهَا، كَمَا يَقُولُ رِينِيه وِيلِك وَأُوسْتِن وَارِين"(١).

فَإِذَا تَرَكْنَا مَا قَالَهُ النَّاقِدُ عَنِ المعنَى المعْجَمِيِّ فِي كَلَامِهِ الآنِفِ، وَانتقَلْنَا إِلَى تَحْلِيلِهِ النصَّ وَجَدْنَاهُ لَا يَكَادُ يُجَاوِزُ المعْنَى المعْجَمِيَّ لِلأَبْيَاتِ، بَلْ إِنَّهُ يَذْكُرُهُ صَرَاحَةً فِي تَعليقِهِ عَلَى بَعْضِ أَبْيَاتِ القَصِيدَةِ، خُذْ مَثَلًا قَوْلَهُ عَنْ أَرْبَعَةِ الأَبْيَاتِ الآتِيةِ:

أَوْ بَيْضَةِ الدِّعْصِ التِي وَضَعَتْ ... فِي الأَرْضِ لَيْسَ لِمَسِّهَا حَجْمُ

سَبَقَتْ قَرَائِنَهَا وَأَدْفَأَهَا ... قَرِدُ الْجَنَاحِ كَأَنَّهُ هِدْمُ

وَيَضُمُّهَا دُونَ الْجَنَاحِ بِدَفِّهِ ... وَتَحُفُّهُنَّ قَوَادِمٌ قُتْمُ

لَمْ تَعْتَذِرْ مِنْهَا مَدَافِعُ ذِي ... ضَالٍ وَلَا عُقَبٌ وَلَا الزُّخْمُ

يَقُولُ **د. حَمَاسَةُ** مُعَقِّبًا عَلَى تِلْكَ الأَبْيَاتِ: "وَمَدَافِعُ ذِي ضَالٍ وَعُقَبٌ وَالزُّخْمُ أَمَاكِنُ، فَالبيضَةُ قَادِرَةٌ عَلَى الإِنْتَاجِ فِي أَيِّ مَكَانٍ مَا تَوَافَرَتْ لَهَا شَرَائِطُ الرِّعَايَةِ وَالدِّفْءِ وَالحنَانِ .. الدُّرَّةُ بَرَّاقَةٌ لَامِعَةٌ، وَالبَيْضَةُ بَيْضَاءُ نَاصِعَةٌ، وَهُمَا وَجْهَانِ مِنْ وُجُوهِ الحيَاةِ الكَثِيرَةِ المتعَدِّدَةِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا

(١) د. محمد حماسة: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٠٠، وَرُبَّمَا لَا يَكُونُ هَذَا النصُّ صَرِيحًا فِي غَضِّ النَّاقِدِ مِنَ المعنَى المعجَمِيِّ، لَكنَّهُ فِي مَوَاضِعَ أُخْرَى مِنْ كُتبِهِ يَكَادُ يُلغِي المعنَى المعْجَمِيِّ مِنْ أَجْلِ السِّيَاقِ، كَقَولِهِ: "يَقُولُ **جُون لِيونز**: (أَعْطِنِي السِّيَاقَ الّذِي وُضِعَتْ فِيهِ الكَلِمَاتُ وَسَوْفَ أُخْبِرُكَ بِمَعْنَاهَا) وَيُضِيفُ: (مِنَ المسْتَحِيلِ أَنْ تُعْطِيَ مَعْنَى كَلِمَةٍ بِدُونِ وَضْعِهَا فِي سِيَاقٍ، وَتَكُونُ المعَاجِمُ مُفِيدَةً بِقَدْرِ مَا تَذْكُرُهُ مِنْ عَدِّ سِيَاقَاتِ الكَلِمَاتِ وَتَنَوِّعِهَا). إِنَّ السِّيَاقَ هُوَ الَّذِي يُحَدِّدُ المعْنَى وَيَخْتَارُ أَنْمَاطَ التَّرَاكِيبِ التِي تُؤَدِّيهِ فَلَا بُدَّ مِنْ تَوَافُقِ التَّرَاكِيبِ مَعَ السِّيَاقِ". د. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور، دراسة نصية:** ص ١٣٩.

(كَالصَّحِيفَةِ لَا ظَمْآن مُخْتَلِجٌ وَلَا جَهْمُ) لَكِنْ هَلْ تَدُومُ الحيَاةُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ المشْرِقَةِ: إِنَّ هَذَا الوَجْـهَ الأَبْيَضَ النَّاصِـعَ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَتخَفَّى تَحْتَ الشَّعْرِ الأَسْوَدِ الجعْدِ الأَغَمِّ، يَقُولُ الشُّرَّاحُ: إِنَّ الأَغَمَّ هُوَ الشَّعْرُ الكَثِيرُ وَأَصْلُهُ الغَمَمُ (بِالتحْرِيكِ) وَهُوَ أَنْ يَسِيلَ الشَّعْرُ مِنْ كَثْرَتِهِ فِي الوَجْهِ وَالقَفَا، إِذَنْ هَذَا وَجْهٌ آخَرُ مِنْ وُجُوهِ الحيَاةِ الرَّبَابِ"(١).

ذَلِكَ كُلُّ مَا قَالَهُ **د. حَماسَـةُ** عَنْ تِلْكَ الأَبْيَاتِ. أَتُرَاهُ تَجَاوَزَ المعْنَى المعْجَمِيَّ فِي تَحْلِيلِهَا؟ بَلْ أَتُرَاهُ عُنِيَ بِشَيءٍ مِنْ بِنَائِهَا النَّحْوِيِّ؟ بَلْ أَتُرَاهُ أَضَاءَهَا بِالقَدْرِ الكَافِي لِقَارِئِهِ؟ وَهَلْ أَثَارَتْ كَلِمَاتُ الْأَبْيَاتِ مَعَانِيَ كَلِمَاتٍ تَتَّصِلُ بِهَا مِنْ حَيْثُ الصَّوْتُ أَوِ المعْنَى أَوْ الاشْتِقَاقِ، أَوْ حَتَّى كَلِمَاتٍ تُعارِضُهَا أَوْ تَنْفِيهَا؟!

وَقَدْ بَلَغَ تَقَيُّدُ **د. حَمَاسَةُ** بِالمعْنَى المعْجَمِيِّ مَدًى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي تَحلِيلِهِ قَصِيدَةَ سُحَيْمٍ عَبْدِ بَنِي الحَسْحَاسِ؛ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَذْكُرُ مَعْنَى الكَلِمَاتِ فِي الْمَتْنِ فَحَسْبُ، بَلْ يَذْكُرُهُ فِي الْهَامِشِ كَذَلِكَ، صَحِيحٌ أَنَّهُ قَدِ يَهْتَدِي إِلَى مَعْنًى وَرَاءَ الكَلِمَاتِ لَكِنَّ هَذَا المعْنَى أَوْ ذَلِكَ التَّأْوِيلَ الذِي اهْتَدَى إِلَيْهِ – وَإِنْ رَأَيْنَاهُ مُتكَلَّفًا – مَبْنِيٌّ عَلَى المعنَى المعجَمِيِّ؛ وَدَلِيلُ ذَلِكَ مَا قَالَهُ مُعقِّبًا عَلَى بَعْضِ أَبْيَاتِ القَصِيدَةِ: "النّابُ هِيَ النَّاقَةُ المسِنُّ، وَالنَّاقَةُ طَوِيلَةٌ، وَالتَّلِيلُ هُوَ العُنُقُ، وَعُنُقُ الناقَةِ طَوِيلٌ، وَالسَّنَامُ أَعْلَى ظَهْرِهَا وَهُوَ عَالٍ كَطُولِ عُنُقِهَا؟ هَلْ نَفْهَمُ أَنَّ هُنَا مُحَاوَلَةً لِلتَّشَبُّثِ بِأَقْصَى مَا فِي الحيَاةِ مِنْ مُتَعٍ حَتَّى لَوْ كَانَتْ بَعِيدَةً فَسَوْفَ يُحَاوِلُهَا (حَتَّى أُحَاوِلَ مِنْهَا سِدَافًا) وَكِلْتَا الْحَالتيْنِ ضَرْبٌ مِنَ التسَامِي وَالعُلُوِّ عَنِ الهَزِيمَةِ وَعَدَمِ الاسْتِسْلَامِ لَهَا"(٢).

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٠٧.

(٢) السابق، ص ٨٥.

المَبْحَثُ الثَّالِثُ: قِرَاءَةُ الدَّوَاوِينِ

لَمْ تَكُنْ قِرَاءَةُ **د. حَمَاسَةَ** بَعْضَ دَوَاوِينِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ المعَاصِرِ أَسْعَدَ حَالًا مِنْ قِرَاءَتِهِ القَصَائِدَ. بَلْ إِنَّنَا لَنَزْعُمُ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** رُبَّمَا كَانَ أَكْثَرَ ابْتِعَادًا عَنِ المدْخَلِ النَّحْوِيِّ فِي قِرَاءَةِ الدَّوَاوِينِ مِنْهُ فِي قِرَاءَةِ القَصَائِدِ، وَرُبَّمَا يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى طَبِيعَةِ الدَّوَاوِينِ ذَاتِهَا؛ ذَلِكَ أَنَّهَا تَحْوِي قَصَائِدَ عَدِيدَةً، وَقَدْ تُصَوِّرُ هَذِهِ القَصَائِدُ تَجَارِبَ مُتَنَاقِضَةً؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ طُولَ الدَّوَاوِينِ، وَاحْتِوَاءَهَا نُصُوصًا مُخْتَلِفَةً يَحُولُ دُونَ قِرَائَتِهَا قِرَاءَةً شَامِلَةً، وَيَحُولُ مِنْ بَابِ أَوْلَى دُونَ مَا دَعَا إِلَيْهِ **د. حَمَاسَةَ**، وَهُوَ ضَرُورَةُ الاهْتِمَامِ بِكُلِّ عُنْصُرٍ مِنْ عَنَاصِرِ النَّصِّ؛ وَإِذَا كَانَ **د. حَمَاسَةُ** لَمْ يَسْتَطِعْ تَطْبِيقَ ذَلِكَ المبْدَأِ فِي قِرَاءَةِ القَصَائِدِ فَأَنَّى يَستَطِيعُهُ فِي قِرَاءَةِ الدَّوَاوِينِ؟!

وَلَا غَرْوَ أَنْ نَرَى **د. حَمَاسَةَ** يَقَعُ فِيمَا وَقَعَ فِيهِ جُلُّ النقَّادِ الذِينَ حَاوَلُوا قِرَاءَةَ دَوَاوِينِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ المعَاصِرِ؛ ذَلِكَ أَنَّ نَهْجَ أُولَئِكَ النقَّادِ فِي قِرَاءةِ دَوَاوِينِ الشعْرِ العَرَبِيّ حَمَلَهم عَلَى أَنْ جَعَلُوهَا عِضِينَ، فَفَرَّقُوا أَوْصَالَهَا، وَقَدْ يَفْعَلُ بَعْضُهُم ذَلِكَ وَهُوَ يُحدِّثُ قَارِئَهُ عَنِ تَماسُكِ النَّصِّ، وَحَبكٍ وَسَبْكٍ لَا يَكونُ النصُّ نَصًّا بِدُونِهِمَا، إِنَّ هَذَا لَشَيءٌ عُجَابٌ!، وقد يَجْعَلُونَ الدوَاوينَ قَرَاطِيسَ يُبْدُونَ بَعضَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا مِنْهَا؛ فَيُقَارِبُونَهَا أَجْزَاءً وَتَفَارِيقَ؛ مِمَّا يَجعَلُنَا نَرتَابُ فِي أَيِّ قِرَاءَةٍ عَامَّةٍ لِأيِّ دِيوَانٍ؛ فَلَنْ تَخْلُوَ مِنْ تَسْطِيحٍ وَتَجزِيءٍ، وَخَيرٌ لِلنَّقْدِ وَالنَّصِّ مَعًا أَنْ يُعنَى النَّاقِدُ بِظاهِرَةٍ نَصيَّةٍ فِي الدِّيوَانِ يَتتبَّعُهَا وَيَستقْصِيهَا، وَأَحْسَبُ أَنْ مَنْ فَعلَ ذَلِكَ كَانَ أَقْوَمَ وَأَهْدَى سَبِيلًا، وَإِلَّا فَفِي تَنَاوُلِ كُلِّ قَصِيدَةٍ عَلَى حِدَةٍ مَندُوحَةٌ عَنْ ذَلِكُما التَّجْزِيءِ والتَّسْطِيحِ.

ذَلِكَ هوَ الْمَلْحَظُ العَامُّ عَلَى قِرَاءَةِ **د. حَمَاسَةَ** وَغَيْرِهِ دَوَاوِينَ الشِّعْرِ المعَاصِرِ، وَيَصْدُقُ هَذَا الْمَلْحَظُ عَلَى كُلِّ الدَّوَاوِينِ التِي قَرَأَهَا **د. حَمَاسَةُ**، وَقَدْ تَنْضَافُ إِلَيهِ مَلاحِظُ أُخْرَى، تَخُصُّ كُلَّ قِرَاءَةٍ لِوَحْدِهَا.

هَذَا، وَلَسَوْفَ نَخْتَارُ قِرَاءَتَيْنِ فَحَسْبُ مِنْ قِرَاءَاتِ **د. حَمَاسَةَ** دَوَاوِينَ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ المعَاصِرِ؛ كَيْ نُرَاجِعَهُما، وَنَقِفَ عَلَى أَهَمِّ مَا فِيهِمَا مِنْ

مَلَامِحِ مَنْهَجِهِ فِي قِرَاءَةِ الدَّوَاوِينِ؛ وَفِي هَاتَيْنِ القِرَاءَتَيْنِ مَغْنًى عَنْ تَتَبُّعِ كُلِّ قِرَاءَاتِ النَّاقِدِ، مَا دَامَتْ مُتشَابِهَةً، وَلَيْسَ بَينَهَا مِنْ مَلامِحِ الاخْتِلَافِ مَا يَسْتَدْعِي إِفْرَادَهَا بِالمرَاجَعَةِ والتقْوِيمِ، ثُمَّ إِنَّ الكَلَامَ عَنْ مَشْرُوعِ **د. حَمَاسَةَ** قَدْ طَالَ، وَأَخْشَى أَنْ يُفْضِيَ إِلَى الإِمْلَالِ جَرَّاءَ تَكْرَارِ بَعْضِ الأَفْكَارِ.

القِرَاءَةُ الأُولَى: دِيوَانُ (العُيونُ المحْتَرِقَةُ) لِلشَّاعِرِ فَارُوق شُوشَة[١]

يُشِيرُ **د. حَمَاسَةُ** فِي قِرَاءَةِ هَذَا الدِّيوَانِ إِلَى قَضْيتَيْنِ مِحْوَرِيتَيْنِ: أُولَاهُمَا – دَوْرُ الشَّاعِرِ فِي الحيَاةِ، وَثَانِيَتُهما – وَسِيلَتُهُ الفَنيَّةُ فِي تَحقِيقِ غَايتِهِ التِي يَتغَيَّاهَا مِنْ وُجُودِهِ بِصفَتِهِ شَاعِرًا[٢].

فَأَمَّا **القَضِيَّةُ الأُولَى** (دَوْرُ الشَّاعِرِ فِي الحيَاةِ)، فَصَفْوَةُ القَوْلِ فِيهَا أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** يَتنَاوَلُهَا تَنَاولًا مَضْمُونِيًّا فِكْرِيًّا؛ إِذْ نَرَاهُ يُحَدِّثُنَا عَنْ رُؤْيَةِ الشَّاعِرِ لِنفْسِهِ وَوَاقِعِهِ مُستَدِلًا عَلَى مَا يَقُولُ بِشَوَاهِدَ مِنَ الدِّيوَانِ تُؤَيِّدُ مَا يَقُولُ، فَالشَّاعِرُ هُوَ عَرَّافُ قَوْمِهِ، وَعَينُهُمُ الْحَادَّةُ التِي تَرَى لَهُمْ المستَقْبَلَ، وَحَادِيهِم إِلَى تَغْيِيرِ وَاقِعِهِم وَتَجْمِيلِ حَيَاتِهِم، كَمَا أَنَّ قُدْرَةَ الشَّاعِرِ عَلَى الانْفِرَادِ بِرُؤْيَةٍ خَاصَّةٍ تكشِفُ مَا لَا يَرَاهُ الآخَرُونَ هِيَ مَبْعَثُ إِحْسَاسِهِ بِالقَلَقِ وَالغُرْبَةِ وَالوَحْشَةِ فِي وَاقِعٍ مَرِيرٍ مَلِيءٍ بِالْكَذِبِ وَالزَّيْفِ وَالرِّيَاءِ، وَمِنْ ثَمَّ يَبْحَثُ الشَّاعِرُ عَمَّنْ يَثْقُبُ مَعهُ ظُلْمَةَ اللَّيْلِ الموحِشِ[٣]، "وَيَظَلَّ دَائِمًا:

يَتَلَمَّسُ فِي وَجْهِ المَوْتِ طَرِيقًا نَحْوَ الْغَدِ/ وَيُغَنِّي رُغْمَ الْآلَامِ

وَهُوَ نَفْسُهُ الفَاتِحُ الذِي يُعَبِّرُ كُلَّ السُّدُودِ حَتَّى سُورَ الصِّينِ مِنْ أَجْلِ أَنْ:

يَلْطِمُ وَجْهَ الظُّلُماتِ لِيُشْرِقَ وَجْهُ الإِنْسَانِ/ وَيُخَاطِبُ سَمْعَ الأَرْضِ بِأَجْرَاسِ الْمَلَإِ الأَعْلَى/ وَيَهُزُّ الأَصْنَامَ الوَسْنَى فِي أَعْمَاقِ القَلْبِ المذْعُور

---

(١) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٦١.

(٢) انظر السابق: الصفحة نفسها.

(٣) انظر السابق: ص ١٦١، ١٦٢، ١٦٣.

إِنَّ الشَّاعِرَ مُتوَحِّدٌ فِي رُؤيَتِهِ، وَلَكِنَّ عِشْقَهُ لِلكَوْنِ لَا يُحَدُّ، وَهُوَ مُنْعَزِلٌ فَوْقَ جَبَلٍ أَجْرَدَ فِي الصَّحْرَاءِ الْمُقْفِرَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ يُنَادِي النَّاسَ الأَصْحَابَ، الأَحْبَابَ الفُقَرَاءَ مِنَ الجبَلِ:

وَأَرَى الأَشْيَاءَ بِعَيْنٍ تَجْهَلُ مَعْنَى الذُّلّ/ وَأَذُوقُ الكَوْنَ بِوَجْدِ العَاشِقِ يَلْثُمُ وَجْهَ المعْشُوق/ وَأُنَادِي مِنْ فَوْقِ الجبَلِ الأَجْرَدِ فِي الصَّحْرَاء/ أَدْعُوكُم يَا أَصْحَابُ وَيَا أَحْبَابُ وَيَا فُقَرَاء/ مَنْ يَثْقُبُ ظُلْمَةَ هَذَا اللَّيْل!"[1].

بِمِثْلِ هَذَا النَّهْجِ يَتنَاوَلُ **د. حَمَاسَةُ** القَضِيَّةَ الأُولَى فِي الدِّيوَانِ، فَتَشْعُرُ أَنَّكَ أَمَامَ قِرَاءَةٍ مَضْمُونِيَّةٍ تُجَلِّي أَفْكَارَ الشَّاعِرِ، وَلَا تُجَلِّي شَاعِرِيَّتَهُ، وَقُدْرَتَهُ عَلَى إِنتَاجِ الدِّلَالَةِ الأَدبِيَّةِ، وَهَلْ يُمكِنُنَا أَنْ نُسَمِّيَ ذَلِكَ تَحْلِيلًا نَصِّيًّا أَوْ نَحْوِيًّا لِلشِّعْرِ؟!

وَزِدْ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ هَذَا المسْلَكَ قَدْ أَوْقَعَهُ فِي تَناقُضٍ جَلِيٍّ مَعَ مَا حَذَّرَ مِنْهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فَالدكتُورُ **حَمَاسَةُ** يُحذِّرُنَا فِي قِرَاءَتِهِ دِيوَانَ (حَصَادِ الرِّيحِ) لِلشَّاعِرِ الكُوَيْتِيِّ خَلِيفَةَ الوَقْيَان؛ مِنَ الْجَرْيِ وَرَاءَ الأَفْكَارِ، فَيَقُولُ: "وَقَدْ حَرِصْتُ أَلَّا أَقَعَ فِي مَحْذُورٍ آخَرَ هُوَ الْجَرْيُ وَرَاءَ (الأَفْكَارِ)، فَمِنْ آثَارِهِ الضَّارَّةِ أَنَّهُ يُدَمِّرُ البِنْيَةَ الشِّعْرِيَّةَ وَخَاصِّيَتَها الأَسَاسِيّةَ، وِهِيَ لَا تُبنَى إِلَّا بِالكَلِمَاتِ، وَالْكَلِمَاتُ وَالْجُمَلُ هِيَ التِي تُؤَدِّي إِلَى إِنْتَاجِ الدِّلَالَةِ. وَكَثِيرًا مَا تُنتهَكُ الخصَائِصُ الشِّعْرِيَّةُ تَحْتَ سَنَابِكِ خُيُولِ الأَفْكَارِ الْجَامِحَةِ"[2].

وَأَمَّا **<u>القَضِيَّةُ الثانِيَةُ</u>** (وَسَائِلُ الشَّاعِرِ الفَنِيَّةُ)، فَقَدْ تَوَقَّفَ النَّاقِدُ أَمَامَ ثَلَاثٍ مِنْهَا (المعْجَمِ الشِّعْرِيِّ، الرُّمُوزِ، الموسِيقَى)، وَاخْتَلَفَ تَنَاوُلُهُ إِيَّاهَا مَا بَينَ إِيجَازٍ وَإِطْنَابٍ؛ فَبَيْنَما يُوجِزُ فِي تَنَاوُلِ الوَسِيلَةِ الأُولَى فَيَصِفُهَا وَصْفًا مُجْمَلًا تَرَاهُ يُطْنِبُ فِي تَنَاوُلِ الوَسِيلتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ، فَهَذَا كُلُّ مَا قَالَهُ **د.**

(١) السابق: ص ١٦٢.

(٢) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **الإبداع الموازي**، ص ١٤١.

حَمَاسَةُ عَنِ المعْجَمِ الشِّعْرِيِّ: "وَالمعْجَمُ الشِّعْرِيُّ الذِي يَستَخْدِمُهُ فَارُوقُ شُوشَة مُعجَمٌ مُتمَيِّزٌ لِأَنَّهُ يَختَارُ كَلِمَتَهُ بِعِنَايَةٍ فَائِقَةٍ تَكْشِفُ عَنْ إِحْسَاسٍ مُدَرَّبٍ، وَذَوْقٍ خَبِيرٍ، وَتُوَجِّهُهُ فِي تَرْكِيبِ صُورَهِ تَجَارِبُهُ الغَنِيَّةُ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ مِنْ كَلِمَتِهِ فِي وَقْتِ الْخَطَرِ (طَلَقَةٌ بِحَجْمِ الثَّأْرِ وَالعَارِ)، وَأَنْ يَجْعَلَ مِنْهَا أَيْضًا (نِدَاءَ سَلَامٍ) وَ(دَاعِيَةَ حُبٍّ)"[(١)]، وَلَا يَخْفَى عَلَيْكَ مَا فِي هَذَا الكَلَامِ مِنْ تَعمِيمٍ لَا تُسَوِّغُهُ مِثْلُ هَذِهِ العِبَارَاتِ المقتَطَعَةِ مِنْ سِيَاقِهَا، نَاهِيكَ بِأَنَّهُ صَالِحٌ لِأَنْ يُقَالَ فِي حَقِّ شُعَرَاءَ كَثِيرِينَ، وَقَلَّ أَنْ تَجِدَ نَاقِدًا يَقْرَأُ دِيوَانًا فَيتَّهِمُ شَاعِرَهُ بِأَنَّ مُعْجَمَهُ غَيْرُ مُتمَيِّزٍ، أَوْ أَنَّ الشَّاعِرَ لَا يُحْسِنُ اخْتِيَارَ كَلِمَاتِهِ.

فَعَدِّ عَنْ ذَا، وَلْنَنْظُرْ كَيفَ تَناوَلَ **د. حَمَاسَةُ** الوَسِيلتَيْنِ الأُخْرَيَيْنِ:

فَأَمَّا **<u>رُموزُ الشَّاعِرِ</u>** فِي الدِّيوَانِ فَقَدِ استَوْقَفَ **د. حَمَاسَةَ** مِنْهَا مَلمَحَانِ: **<u>أَوَّلُهُمَا</u>** أَنَّ الشَّاعِرَ يَستَخْدِمُ بَعْضَ الأَعْلَامِ (أَشْخَاص – أَمَاكِن) ذَاتِ الدِّلَالَاتِ الأُسطُورِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ المعْرُوفَةِ، فَيُسْقِطُ رُؤيَتَهُ عَلَى العَصْرِ وَالأَشْيَاءِ مِنْ خِلَالِهَا، مِثْلَمَا فَعَلَ فِي قَصِيدَتِهِ (بِاسْمِ الكَلِمَةِ)، إِذْ يَستَخْدِمُ هَذِهِ الأَعلَامَ (سِنْدِبَاد – عَمُّورِيَّة – المعتَصِمَ – أَبَا تَمَّام – حِطِّين – صَلَاح الدِّين) وَيَجْعَلُ بَعْضَهَا رُمُوزًا لِتَبَدُّلِ القِيَمِ العَظِيمَةِ فِي عَصْرِنَا[(٢)]. وَلَمَّا كَانَتْ قَصِيدَةُ (أَصْوَاتٌ مِنْ تَارِيخٍ قَدِيمٍ) إِحْدَى قَصَائِدِ هَذَا الدِّيوَانِ فَقَدْ كَرَّرَ النَّاقِدُ بَعْضَ كَلَامِهِ عَنْهَا، وَعَنْ أَصْوَاتِهَا الثَّلَاثَةِ (سَيْف الدوْلَةِ – أَبُو العَلَاءِ – عَنْتَرَة) فِي قِرَاءَتِهِ الْخَاصَّةِ بِهَا[(٣)].

وَ**<u>الْمَلمَحُ الثَّانِي</u>** الذِي رَآهُ **د. حَمَاسَةُ** فِي رُمُوزِ دِيوَانِ (العُيُونُ المحْتَرِقَةُ)، هُوَ تَعَمُّقُ الرَّمْزِ حَتَّى يَشْمَلَ القَصِيدَةَ كُلَّهَا، بِحَيْثُ تُصْبِحُ

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٦٩.

(٢) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٧٠.

(٣) انظر السابق: ص ١٧٠، ١٧١.

القَصِيدَةُ كُلُّهَا مُعَادِلًا لُغَوِيًّا رَمْزِيًّا لَا يُسْلِمُ نَفْسَهُ لِلمُتَلَقِّي مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ[1]، وَقَدِ اتَّخَذَ النَّاقِدُ أَوَّلَ قَصِيدَةٍ فِي الدِّيوَانِ (العُرْيُ) نَموذَجًا لِهَذَا المسْلَكِ الرَّمْزِيِّ.

وَلِكَيْ لَا نَقَعَ فِي إِسْهَابٍ مُمِلٍّ، فَإِنَّنَا نُشِيرُ بِإِيجَازٍ إِلَى أَنَّ النَّاقِدَ يَرَى فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ تَرنِيمَةً صُوفِيَّةً عَالِيَةً، وَتَجْرِبَةً رُوحِيَّةً فَذَّةً فِي تَجْسِيدِ الْجَدَلِ بَينَ الشَّاعِرِ وَحَقِيقَةِ الكَوْنِ مِنْ حَوْلِهِ، وَلَا تُصَوِّرُ تَجْرِبَةً جِنْسِيّةً، كَمَا قَدْ يُوحِي التسَرُّعُ وَالعَجَلَةُ فِي قِرَاءَةِ عُنْوَانِهَا (العُرْيُ)[2].

وَقَدْ عَمَدَ النَّاقِدُ – حَتَّى يُجَلِّيَ حَقِيقَةَ التعْبِيرِ الرَّمْزِيِّ فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ – إِلَى تَقْسِيمِهَا أَجْزَاءً، وَتَدَخَّلَ بَينَ هَذِهِ الأَجْزَاءِ بِتَعْلِيقَاتٍ شَارِحَةٍ، لَكِنَّ هَذِهِ التعْلِيقَاتِ إِنْ دَلَّتْ عَلَى قُدرَةِ النَّاقِدِ عَلَى تَأْوِيلِ كَلِمَةِ (العُرْيِ) تَأْوِيلاتٍ تُبْعِدُهَا عَنْ مَعنَاهَا المعْجَمِيِّ، فَإِنَّ هَذِهِ التَّأْوِيلَاتِ بَعِيدَةٌ البُعْدَ كُلَّهُ عَنْ دَائِرَةِ الْمَدْخَلِ النحْوِيِّ الذِي وَعَدَ قَارِئَهُ بِهِ، وَهَذَا نَمُوذَجٌ مِمَا قَالَهُ النَّاقِدُ: "إِنَّ (العُرْيَ) فِي هَذِهِ القَصِيدَةِ عُرْيٌ فَنِّيٌّ شِعْرِيٌّ، إِنَّهُ مُعادِلٌ لِلتَّجَرُّدِ مِنْ أَجْلِ الحقِيقَةِ وَرَمْزٌ لِلانْسِلَاخِ مِنَ الوَاقِعِ بِكُلِّ كَذِبِهِ وَضَلَالِهِ، إِنَّهُ الرجُوعُ إِلَى الفِطْرَةِ الأُولَى:

فَالْعُرْيُ الكَامِلُ مَوْلِدُنَا وَحَقِيقَتُنُا وَتَلَاقِينَا

وَلِكَيْ يَصِلَ إِلَى هَذِهِ (الحقِيقَةِ) لَا بُدَّ أَنْ يُقَدِّمَ لَهَا القَرَابِينَ، وَيَنْسَلِخَ مِنْ كُلِّ الشَّوَائِبِ:

مِنْ أَجْلِكِ أَنْفُضُ هَذِي الكَلِمَات وَأَتَعَرَّى/ وَأَخْلَعُ عَنْ نَفْسِي أَقْنِعَةَ الكَذِبِ العَاهِرِ

فَالتَّعَرِّي هُوَ أَنْ يَخْلَعَ عَنْ (نَفْسِهِ) عَنْ رُوحِهِ لَا عَنْ جِسْمِهِ أَقْنِعَةَ الكَذِبِ التِي يَكتَسِبُهَا الإِنْسَانَ فِي حَيَاتِهِ مِنْ أَجْلِ التَّعَامُلِ مَعَ الوَاقِعِ الْمُؤْلِمِ"[3].

---

(١) انظر السابق: ص ١٧١.

(٢) انظر السابق: ص ١٧١، ١٧٢.

(٣) السابق: ص ١٧٢.

وَتَبْقَى **الوَسِيلَةُ الثَّالِثَةُ** التِي التَفَتَ إِلَيْها **د. حَمَاسَةُ** فِي هَذَا الدِّيوَانِ، وَهِيَ **الموسِيقَى**(١)، وَلَمَّا كَانَتْ كُلُّ قَصَائِدِ الدِّيوَانِ تَسِيرُ عَلَى نَمَطٍ إِيقَاعِيٍّ مُوَحَّدٍ، غَيْرَ قَصِيدَتَيْنِ مَزَجَ فِيهِمَا الشَّاعِرُ بَيْنَ وَزْنَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ؛ فَقَدْ عُنِيَ النَّاقِدُ بِهَذَيْنِ القَصِيدَتَيْنِ تَحْدِيدًا.

وَالقَصِيدَتَانِ اللَّتَانِ خَالَفَ فِيهِمَا الشَّاعِرُ النمَطَ الإِيقَاعِيَّ الموَحَّدَ هُمَا: (تَنْوِيعَاتٌ عَلَى لَحْنٍ أَسَاسِيٍّ)، وَ(أَصْوَاتٌ مِنْ تَارِيخٍ قَدِيمٍ). وَلَمَّا كَانَ النَّاقِدُ يُؤْمِنُ بِأَنَّ الشَّاعِرَ يُخَالِفُ عَنْ قَصْدٍ، وَأَنَّ مُخَالفَتَهُ فِي الإِيقَاعِ يَتَطَلَّبُهَا الموْقِفُ وَتَحكُمُهَا التَّجْرِبَةُ(٢)؛ فَقَدْ رَاحَ يُسَوِّغُ لِشَاعِرِهِ مَزْجَهُ بَينَ الأَبْحُرِ فِي القَصِيدَتَيْنِ، فَأَمَّا القَصِيدَةُ الأُولَى (تَنْوِيعَاتٌ عَلَى لَحْنٍ أَسَاسِيٍّ)، فَقَدْ جَاءَ المَقطَعُ الأَوَّلُ وَالثَّالِثُ مِنْهَا عَلَى وَزْنِ المتَدَارَكِ (فَاعِلُنْ)، فِي حِينَ جَاءَ مَقْطَعُهَا الثَّانِي عَلَى وَزْنِ المتقَارِبِ (فَعُولُنْ).

وَيُعَلِّلُ النَّاقِدُ ذَلِكَ بِأَنَّ الْمَقْطَعَيْنِ (الأَوَّلَ والثَّالِثَ) فِيهِمَا تَوَاثُبٌ وَخِفَّةٌ وَقَلَقٌ وسُرْعَةٌ تُوائِمُهَا تَفْعِيلَةُ المتَدَارَكُ (فَاعِلُنْ)، أَمَّا المقْطَعُ الثَّانِي فَيُحِسُّ النّاقِدُ إِحْسَاسًا شَخْصِيًّا بِأَنَّ الموْقِفَ فِيهِ يَحتَاجُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ الرَّيْثِ وَالأَنَاةِ وَالهدُوءِ، فَنَاسَبَتْهُ وَحْدَةُ إِيقَاعِ المتقَارِبِ (فَعُولُنْ)، وَقَدْ مَزَجَ الشَّاعِرُ بَينَ التفْعِيلَتيْنِ مَزْجًا نَاعِمًا لَا يَكَادُ يُدْرَكُ لِصِدْقِ الإِحْسَاسِ، وَقُوَّةِ فَيضَانِ العَطَاءِ الشِّعْرِيِّ(٣).

---

(١) مما نعجب له في هذه القراءة وصف د. حماسة موسيقى الديوان بأنها: "**ناعمة سلسة تتآزر مع تجاربه تآزرًا متناغمًا**". المصدر السابق: ١٧٧.

(٢) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٧٧.

(٣) السابق، ص ١٧٨.

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجِيبٌ أَنْ تَرَى النَّاقِدَ يَقُولُ عَقِيبَ تَسْوِيغِهِ هَذَا الْمَزْجَ: "إِنَّ رَبْطَ البَحْرِ بِنَوْعِ التَّجْرِبَةِ مَا يَزَالُ تَقْدِرًا شَخْصِيًّا لَا يُمْكِنُ تَعْمِيمُهُ، وَلَكِنِّي أَسْتَشْعِرُ ثَمَّةَ رَبْطًا بَيْنَ نَوْعِ الإِيقَاعِ وَالتعْبِيرِ فِي القَصِيدَةِ المعَيَنَةِ"[1].

وَمَبْعَثُ العَجَبِ فِي هَذَا الكَلَامِ، أَنَّهُ بِمَثَابَةِ اعْتِرَافٍ مِنَ النّاقِدِ بِأَنَّ رَبْطَهُ الوَزْنَ بِمَعْنًى مُعَيَّنٍ إِنَّمَا هوَ رَبْطٌ ذَاتِيٌّ انْطِبَاعِيٌّ، وَلَيْسَ لَهُ سَنَدٌ عِلْمِيٌّ.

عَلَى أَنَّ مِدَادَ كَلِمَاتِ النّاقِدِ السَّالِفَةِ مَا كَادَ يَجِفُّ حَتَّى رَأَيْنَاهُ يَعُودُ كَرَّةً أُخْرَى إِلَى رَبْطِ الإِيقَاعِ بِالمعْنَى فِي القَصِيدَةِ الثَّانِيَةِ (أَصْوَاتٌ مِنْ تَارِيخٍ قَدِيمٍ)، وَقَدْ مَرَّ بِنَا فِي قِرَاءَةِ **د. حَمَاسَةَ** هَذِهِ القَصِيدَةِ أَنَّهَا تَتَكَوَّنُ مِنْ ثَلَاثَةِ أَصْوَاتٍ: الأَوَّلُ بِعُنوَانِ (سَيْفُ الدَّوْلَةِ)، وَقَدْ آثَرَ لَهُ الشَّاعِرُ وَزْنَ المتَدَارِكِ لِيتَنَاسَبَ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ كَرٍّ وَفَرٍّ وَطِعَانٍ وَضَرْبٍ، وَالثّانِي عُنْوَانُهُ (أَبُو العَلَاءِ) وَهُوَ شَيْخُ المعَرَّةِ الحكِيمُ الْهَادِئُ الرَّزِينُ الثَّابِتُ، فَاختَارَ لَهُ الشَّاعِرُ وَزْنَ الرجَزِ وَوَحْدَتَهُ (مُسْتَفْعِلُنْ) حَتَّى تُوحِيَ بِصُوَرِهَا المخْتَلِفَةِ (مُتَعِلُنْ – مُفْتَعِلُنْ – مُتَفْعِلُنْ) بِمَا يُشْبِهُ العَثْرَةَ وَالنُّهُوضَ، وَيَتَنَاوَلُ الشَّاعِرُ فِي الصَّوْتِ الثَّالِثِ (عَنْتَرَةَ) بَعْدِ جَنْدَلَتِهِ وَحِيدًا فِي العَرَاءِ وَلِذَلِكَ يَختَارُ إِيقَاعًا هَادِئًا يُلائِمَ الأَسَى وَالضَّيَاعَ[2].

وَلَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى هَذَا المقْطَعِ الثّالِثِ، فَوَجَدْتُهُ عَلَى وَزْنِ الرَّجَزِ مِثْل سَالِفِهِ (أَبُو العَلَاءِ)، وَقَدْ تَنَوَّعَتْ فِيهِ كَذَلِكَ صُوَرُ (مُسْتَفْعِلُنْ)، فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَجْعَلُ النَّاقِدُ الرَّجَزَ فِي المقْطَعِ الثّانِي (أَبُو العَلَاءِ) مُنَاسِبًا للرَّزَانَةِ وَالحِكْمَةِ وَالهدُوءِ وَالثَّبَاتِ، ثُمَّ يَجْعَلُ الرَّجَزَ نَفْسَهُ فِي المقْطَعِ الثّالِثِ (عَنْتَرَةَ) مُنَاسِبًا

(١) السابق، ص ١٧٩.

(٢) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٧٩.

لِلأَسَى وَالضَّيَاعِ؟! أَلَا يُؤَكِّدُ ذَلِكَ ذَاتِيَّةَ الرَّبْطِ بَينَ الوَزْنِ وَالمعْنَى؟ وَأَنَّ الوَزْنَ الوَاحِدَ صَالِحٌ لِكَيْ يَحْمِلَ مَعَانِيَ مُخْتَلِفَةً، وَرُبَّمَا مُتَنَاقِضَةً؟!

وَمَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ فَذَلِكَ كُلُّ مَا لَفَتَ **د. حَمَاسَةَ** – بِإِيجَازٍ – فِي دِيوَانِ (العُيونُ المحترِقَةُ) لِلشَّاعِرِ فَارُوق شُوشَة، وَلَنَا عَلَى هَذِهِ القِرَاءَةِ مَلْحَظَانِ مُهِمَّانِ:

أَوَّلُهُمَا – غِيَابُ التحْلِيلِ النَّحْوِيِّ عَنْ هَذِهِ القِرَاءَةِ غِيَابًا يَكَادُ يَكُونُ تَامًّا، فَقَدْ تَوَقَّفْنَا أَمَامَ مَا عُنِيَ بِهِ الناقِدُ فِي قِرَاءَةِ ذَلِكَ الدِّيوَانِ فَلَمْ نَجِدْ مَا يَشِجُهَا بِالْمَدْخَلِ النحْوِيِّ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ، وَلَئِنْ وُجِدَتْ بَعْضُ اللفتَاتِ اللُّغَوِيَّةِ أَوِ النَّحْوِيَّةِ فِي هَذِهِ القِرَاءَةِ فِهِيَ قَلِيلَةٌ بَلْ نَادِرَةٌ، وَلَا حُكْمَ لِلنَّادِرِ، كَأَنْ يَقُولَ **د. حَمَاسَةُ** تَعْقِيبًا عَلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ – **(وَنَظَلُّ نَدُور/ وَنَظَلُّ نَدُور)**: "وَأَرْجُو أَنْ تُلاحِظَ مَعِي هُنَا التَّكْرَارَ وَالفِعْلَ الدَّالَّ عَلَى الاسْتِمْرَارِ، وَهُوَ صِيغَةُ المضَارِعِ، وَكَذَلِكَ الفِعْلَ (نَدُور) وَهُوَ أَيْضًا بِصِيغَةِ المضَارِعِ"(١).

أَوْ يَقُولَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: "... وَهُوَ يُحَاوِلُ ذَلِكَ وَيُكَرِّرُهُ مَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ يَنفضُهَا وَمَعَ كُلِّ قِنَاعٍ مِنْ تِلْكَ (الأَقْنِعَةِ) التِي يَخْلَعُهَا وَاحِدًا وَرَاءَ الآخَرِ، **وَلِذَلِكَ آثَرَ التعْبِيرَ بِالفِعْلِ المضَارِعِ (أَنْفُضُ، أَتَعَرَّى، أَخْلَعُ)** وَظَلَّ يَفْعَلُ ذَلِكَ حَتَّى اقْتَرَبَ مِنْ (حَقِيقَتِهِ) المنشُودَةِ أَوْ كَادَ.."(٢).

وَهَذِهِ اللفتَاتُ النَّحْوِيَّةُ وَغَيْرُهَا أَشْبَهُ بِالوَمضَاتِ تَظْهَرُ ثُمَّ تَخْبُو، وَلَا تَدُلُّ عَلَى مَنْهَجٍ مُتكَامِلٍ أَوْ رُؤْيَةٍ شَامِلَةٍ فِي قِرَاءَةِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ، وَمِنْ ثَمَّ يُصْبِحُ وُجُودُهَا أَشْبَهَ مَا يَكُونُ بِالعَدَمِ.

ثَانِيهِمَا – الظُّلْمُ البَيِّنُ لِبَعْضِ قَصَائِدِ الدِّيوَانِ؛ فَقَدْ رَجَعْتُ إِلَى الدِّيوَانِ ذَاتِهِ فَوَجَدْتُهُ يَتضَمَّنُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ قَصِيدَةً، ثُمَّ تَتَبَّعْتُ القَصَائِدَ التِي أَشَارَ

(١) السابق، ص ١٦٧، وَلَاحِظْ أَنَّ **د. حَمَاسَةَ** لَمْ يَذْكُرْ لِلتَّكْرَارِ دِلَالةً فِي هَذَا المَوْضِعِ، وَمَا ذَكَرَهُ مِنْ دِلَالةِ المضَارِعِ عَلَى الاسْتِمْرَارِ لَا جَدِيدَ فِيهِ.

(٢) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٧٢.

إِلَيْهَا **د. حَمَاسَةُ** فِي قِرَاءَتِهِ، أَوْ نَقَلَ بَعْضَ أَسْطُرِهَا دُونَمَا إِشَارَةٍ إِلَى عَنَاوِينِهَا، فَوَجَدْتُهَا تِسْعَ قَصَائِدَ، هِيَ: (العُرْيُ – الغُرْبَةُ – الرَّحِيلُ – سُقُوطُ الوَهْمِ – تَنوِيعَاتٌ عَلَى لَحْنٍ أَسَاسِيٍّ – العُيُونُ المحتَرِقَةُ – بِاسْمِ الكَلِمَةِ – نِدَاءُ سَلَامٍ – أَصْوَاتٌ مِنْ تَارِيخٍ قَدِيمٍ)، وَإِذَا أَغْضَيْنَا الطَّرْفَ عَنْ تَفَاوُتِ حَظِّ هَذِهِ القَصَائِدِ مِنَ اهْتِمَامِ الشَّاعِرِ؛ حَيْثُ كَانَ حَظُّ بَعْضِهَا الاسْتِدْلَالَ بِأَسْطُرٍ قَلِيلَةٍ مِنْهَا؛ إِذَا أَغْضَيْنَا الطَّرْفَ عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّ هُنَالِكَ تِسْعَ قَصَائِدَ أُخْرَيَاتٍ لَمْ يُشِرْ إِلَيْهَا **د. حَمَاسَةُ** مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ، وَهِيَ قَصَائِدُ: (وَيَجِيءُ شِتَاءٌ – مَرْثِيَّةُ شَاعِرَةٍ عَاشِقَةٍ – الزِّيَارَةُ – هَدِيَّةُ الأَيَّامِ – كَانَ حَيَاتِي – كَلِمَةُ حُزْنٍ – لِأَنَّكَ إِنْسَانٌ – أَحْزَانُ الفُقَرَاءِ – تَحْتَ ظِلَالِ الزَّيْزَفُونِ) [1].

وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ نِصْفَ هَذَا الدِّيوَانِ عَلَى الْأَقَلِّ – وَبِلُغَةِ الأَرْقَامِ – لَمْ يَحْظَ مِنْ عِنَايَةِ الشَّاعِرِ بِشَيْءٍ، فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ نَعُدَّ مِثْلَ هَذِهِ القِرَاءَةِ تَحْلِيلًا وَافِيًا يَقِفُ القَارِئَ عَلَى خَصَائِصِ هَذَا الدِّيوَانِ وَمَلَامِحِهِ رُؤْيَةً وَفَنًّا، مَضْمُونًا وَتَشْكِيلًا؟!

القِرَاءَةُ الثَّانِيةُ: دِيوَانُ (العَطَشُ الأَكْبَرُ) لِلشَّاعِرِ أَحْمَد سُوَيْلِم[2]

لَا تَخْتَلِفُ هَذِهِ القِرَاءَةُ كثيرًا عَنْ سَالِفَتِهَا، بَلْ لَا تَخْتَلِفُ عَنْ بَقِيَّةِ قِرَاءَاتِ **د. حَمَاسَةَ** دَوَاوِينَ الشِّعْرِ العرَبِيِّ المعَاصِرِ؛ وَلِذَا اكتَفَيْنَا بِهَاتَيْنِ القِرَاءتَيْنِ عَنْ تَتَبُّعِ القِرَاءَاتِ الأُخَرِ؛ لِأَنَّ الدُّكتُورَ **حَمَاسَةَ** مَشْغُولٌ فِي هَذِهِ القِرَاءَاتِ بِأَفكَارٍ وَوَسَائِلَ لَيْسَ المعْنَى النحْوِيُّ وَاحِدَهَا، وَفِي نِيَّتِنَا أَنْ نُوجِزَ مَا اسْتَطَعْنَا إِلَى الإِيجَازِ سَبِيلًا فِي تَقْوِيمِ تِلْكَ القِرَاءَةِ، وَمِنْ ثَمَّ فَسَتَكُونُ أَكْثَرُ مُلاحَظَاتِنَا إِحَالَاتٍ عَلَى كَلَامِ النّاقِدِ، وَلَنْ نَقْتَبِسَ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا.

---

(١) انظر في قصائد هذا الديوان فاروق شوشة: **الأعمال الشعرية**، مج ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م، من ص ١٣٥، حتى ص ٢٣٠.

(٢) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٨١.

وَيَحْسُنُ أَنْ نَبْدَأَ تَقْوِيمَنَا هَذِهِ القِرَاءَةَ بِبَعْضِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ **د. حَمَاسَةُ** فِيهَا؛ فَمِمَّا قَالَهُ فِي نِهَايَةِ هَذِهِ القِرَاءَةِ: "لَقَدْ تَشَابَهَتْ قَصَائِدُ هَذَا الدِّيوَانِ فِي **مُعَجَمِهَا الشِّعْرِيِّ** وَفِي **صُوَرِهَا الشِّعْرِيَّةِ** بِحَيْثُ يُمكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الدِّيوَانُ كُلُّهُ قَصِيدَةً طَوِيلَةً مُقسَّمَةً إِلَى سِتَّ عَشْرَةَ قَصِيدَةً فَرْعِيَّةً، وَسَاعَدَ عَلَى هَذَا أَيْضًا أَنَّ جَمِيعَ القَصَائِدِ جَاءَتْ مِنْ بَحْرٍ عَروضِيٍّ وَاحِدٍ هُوَ (المتَدَارَكُ) مَا عَدَا قَصِيدَةً وَاحِدَةً..."[(١)].

إِنَّ **د. حَمَاسَةَ** يَضَعُ يَدَنَا بِقَوْلِهِ السَّالِفِ عَلَى أَهَمِّ قَضِيتَيْنِ عُنِيَ بِهِمَا فِي قِرَاءَةِ دِيوَانِ (العَطَشُ الأَكْبَرُ)، وَهُمَا: مُعجَمُهُ الشِّعْرِيُّ، وَصُوَرُهُ وَرُمُوزُهُ، فَأَمَّا **المعْجَمُ الشِّعْرِيُّ**، فَقَدْ تَنَاوَلَهُ مِنْ خِلَالِ نَظَرِيَّةِ (المجَالَاتِ أَوِ الحقُولِ الدِّلَالِيَّةِ)؛ حَيْثُ لَحِظَ **د. حَمَاسَةُ** أَنَّ كَثِيرًا مِنْ كَلِمَاتِ الدِّيوَانِ تَدُورُ حَوْلَ المجَالَاتِ الدِّلَالِيَّةِ لِعُنْوَانِهِ (العَطَشُ الأَكْبَرُ)، كَالماءِ وَالرِّيِّ وَالبَحْرِ وَالطُّوفَانِ وَالنَّهْرِ وَالأَمْوَاجِ وَالغَرَقِ وَغَيْرِهَا، وَلَمْ يَكُنْ غَرِيبًا أَنْ يُقَسِّمَ الشَّاعِرُ قَصَائِدَ الدِّيوَانِ إِلَى ثَلَاثِ جَرْعَاتٍ: جَاءَتِ الأُولَى فِي أَرْبَعِ قَصَائِدَ، وَالثَّانِيَةُ فِي سَبْعِ قَصَائِدَ، وَالثَّالِثَةُ فِي خَمْسِ قَصَائِدَ.. وَقَدْ أَحْصَى **د. حَمَاسَةُ** مِائَةً وَسَبْعِينَ مُفْرَدَةً مِنَ المجَالِ الدِّلَالِيِّ لِعُنوَانِ الدِّيوَانِ مُوَزَّعَةً عَلَى قَصَائِدِهِ كُلِّهَا.. بَلْ إِنَّ سَبْعًا مِنْ قَصَائِدِ الدِّيوَانِ حَمَلَتْ عَنَاوِينُهَا كَلِمَات البَحْرِ والطُّوفَانِ وَالْمَاءِ وَالنهْرِ، وَمِنْهَا: فَاتِحَةٌ لِلبَحْرِ، وَالجنُونُ وَالبَحْرُ، وَيُولَدُ البَحْرُ، وَحِينَ امْتَدَّ الطُّوفَانُ، والعَطَشُ الأَكْبَرُ... وَغَيرهَا، مِمَّا جَعَلَ الإِلحاحَ عَلَى دالِّ (البَحْرِ) وَمَا يَدُورُ فِي إِطَارِهِ مَلْمَحًا أُسْلُوبِيًّا مِنْ مَلَامِحِ الدِّيوَانِ[(٢)].

وَيَنْقُلُنَا هَذَا الملْحَظُ إِلَى **القَضِيَّةِ الثَّانِيَةِ (صُوَرُ الدِّيوَانِ وَرُمُوزُهُ)**؛ ذَلِكَ أَنَّ إِلْحَاحَ الشَّاعِرِ عَلَى تِيمَةِ البَحْرِ وَمَا يَدُورُ فِي إِطَارِهِ الدِّلَالِيِّ قَدْ حَوَّلَ

(١) انظر السابق، ص ١٩٤.

(٢) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٨١، ١٨٢.

البَحْرَ إِلَى رَمْزٍ كَبيرٍ تَدُورُ فِي إِطَارِهِ كَثِيرٌ مِنَ الصُّوَرِ الشِّعْرِيَّةِ فِي الدِّيوَانِ؛ فَالشَّاعِرُ يَرَى البَحْرَ مُعَلِّمًا مُلهِمًا، وحُلُمًا وَنُبُوءَةً، وَيَرَاهُ كَذَلِكَ الوَطَنَ، وَالشِّعْرَ، وَحُلْمَ المستَقْبَلِ، وَالْحُبَّ، وَالتطَهُّرَ، وَالثَّوْرَةَ عَلَى الحيَاةِ الرَّاكِدَةِ .. وَلَمْ يَتَخَلَّ الشَّاعِرُ عَلَى امْتِدَادِ قَصَائِدِ الدِّيوَانِ عَنِ الصُّوَرِ النَّابِعَةِ مِنْ مَجَالِ البَحْرِ(١).

وَفِي الدِّيوَانِ صُورَةٌ أُخْرَى كَبِيرَةٌ تُشَارِكُ صُورَةَ البَحْرِ؛ وَهِيَ صُورَةُ (الارْتِحَالِ الدَّائِمِ) أَوِ (الرِّحْلَةِ)، وَيَحْسُنُ أَنْ نُمثِّلَ بِمَا قَالهُ النّاقِدُ عَنْ هَذِهِ الصُّورَةِ: "(الرِّحْلةُ) مِنَ الصُّوَرِ الْمُلِحَّةِ فِي هَذَا الدِّيوَانِ كَذَلِكَ، **وَلِذَلِكَ يَكْثُرُ الفِعْلُ (أَرْحَلُ) بِضَمِيرِ المتكَلِّمِ، وَمَا يُصَاغُ مِنْ مَادَّتِهِ**(٢)، وَهِيَ دَائِمًا رِحْلَةٌ فِيهَا مُعَانَاةٌ وَأَلَمٌ وَإِحْسَاسٌ بِالغُربَةِ وَالوَحْشَةِ، وَإِحْسَاسٌ بِأَنَّ الارْتِحَالَ قَدَرٌ مَقْدُورٌ لَا يَمْلِكُ سِوَاهُ:

أَرْحَلُ الآنَ تَلْفَحُ وَجْهِي الرِّمَال/ أَرْحَلُ الآنَ مِثْلَ الطُّيُورِ الطَّرِيدَه/ أَرْحَلُ قَافِلَةً لَا تَكُفُّ عَنِ السَّيْرْ.

وَيَقُولُ أَيْضًا:

رُحْتُ وَحِيدًا أُبْحِرْ/ أَجْرَيْتُ سَفِينَةَ إِبْحَارِي/ مُنْقَسِمًا أُبْحِرُ فِي صَمْتٍ تَرْصُدُنِي أَحْزَانُ الأَعْيُنِ فَوْقَ الشَّاطِئ/ وَتُنَاوِشُنِي خَمْرُ المجْهُول/ رُحْتُ وَحِيدًا أَسْأَلُ مِلْحَ البَحْرِ وَأَسْمَاكَ البَحْر

وَنَجِدُهُ يَقُولُ:

لَا أَمْلِكُ إِلَّا أَنْ أُبْحِرَ مُنْقَسِمًا/ أَنْ أَصْرُخَ، أَنْ أَشْكُوَ الْجُوعَ، العَطَشَ الأَكْبَرَ، أَشْكُوَ حُزْنَ الأَعْيُن

---

(١) انظر السابق، ص ١٨٢ – ١٨٤.

(٢) هَذِهِ الجمْلَةُ إِحْدَى إِشَارَاتِ **د. حَمَاسَةَ** النَّحْوِيَّةِ القَلِيلَةِ جِدًّا فِي قِرَاءَتِهِ هَذَا الدِّيوَانَ، مِمَّا يُؤَكِّدُ أَنَّ النحْوَ آخِرُ مَا يَهْتَمُّ بِهِ **د. حَمَاسَةُ** فِي قِرَاءَةِ دَوَاوِينِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ المعَاصِرِ!.

فَهُنَاكَ أَعْيُنٌ حَزِينَةٌ فَوْقَ الشَّاطِئِ، وَالشَّاعِرُ هُوَ الَّذِي يَشْكُو حُزْنَهَا وَجُوعَهَا وَعَطَشَهَا وَهُوَ فِي رِحْلَتِهِ هَذِهِ مُنْقَسِمٌ بَينَ الرَّغْبَةِ فِي البَقَاءِ وَالرَّغْبَةِ فِي الارْتِحَالِ، وَلَكِنَّ (خَمْرَ المجْهُولِ) دَائِمًا تُنَاوِشُهُ، وَتَدْعُوهُ لِلْمُغَامَرَةِ"[١].

لَقَدْ نَقَلْتُ كَلَامَ النَّاقِدِ كَامِلًا عَنْ صُورَةِ (الرِّحْلَةِ) فِي الدِّيوَانِ؛ كَيْ أُؤَكِّدَ أَنَّهُ يُحْسِنُ وَصْفَ النَّصِّ وَلَا يُحْسِنُ قِرَاءَتَهُ وَتَأْوِيلَهُ، أَوِ اسْتِخْرَاجَ نَفَائِسِهِ الْجَمالِيَّةِ.

وَبَعْدُ، فَذَانِكَ المحْوَرَانِ (المعْجَمُ – الصُّورَةُ) هُمَا أَهَمُّ مَا عُنِيَ بِهِ الناقِدُ فِي قِرَاءَةِ هَذَا الدِّيوَانِ، وَصَحِيحٌ أَنَّ هُنالِكَ مَحَاوِرَ أُخْرَى فَرعِيَّةً التَفَتَ إِلَيْهَا النّاقِدُ، لَكِنَّهَا لَمْ تَحْظَ بِمِثْلِ عِنَايَتِهِ بَذَيْنَكَ المحْوَرَيْنِ، مِنْ ذَلِكَ مَثَلًا أَنَّ مُعظَمَ قَصَائِدِ الدِّيوَانِ مُتعَدِّدَةُ الأَصْوَاتِ، وَلَيْسَتْ أُحَادِيَّةُ الصَّوْتِ مِمَّا يَنْفِي عَنْهَا الغِنَائِيَّةَ **(وَيْكَأَنَّ الغِنَائِيَّةَ جَرِيرَةٌ، وَالدِّرَامِيَّةَ فَضِيلَةٌ!!)** فَهِيَ قَصَائِدُ دِرَامِيَّةٌ مَلِيئَةٌ بِالْحَرَكَةِ وَالحيَوِيَّةِ[٢]، وَمِنْهَا كَذَلِكَ أَنَّ قَصَائِدَ الدِّيوَانِ حَقَّقَتْ جَوْهَرَ الشِّعْرِ حِينَ كَسَرَتِ المَأْلُوفَ، وَيَحْسُنُ كَذَلِكَ أَنْ نَسْتَدِلَّ بِمَا قَالَهُ الناقِدُ عَن هَذِهِ الفِكْرَةِ؛ لِأَنَّهَا أَهَمُّ مَا يَتَّصِلُ بِالمدْخَلِ النحْوِيِّ فِي قِرَاءَةِ النَّاقِدِ هَذَا الدِّيوَانَ، يَقُولُ **د. حَمَاسَةُ:** "وَلَمَّا كَانَ الشِّعْرُ فِي جَوْهَرِهِ كَسْرًا لِلمَأْلُوفِ فَإِنَّ قَصَائِدَ (العَطَشُ الأَكْبَرُ) تُوحِي بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فِي عِدَّةِ أَسَالِيبَ، مِنْهَا بَدْءُ القَصَائِدِ نَفْسِهِ، إِذْ تَبْدَأُ القَصِيدَةُ بِمَا يُشْعِرُ أَنَّ هُنَاكَ كَسْرًا لِلمَأْلُوفِ المعتَادِ، كَأَنْ تَبْدَأَ فِي القَصِيدَةِ مَثَلًا بِحَرْفِ عَطْفٍ كَمَا نَرَاهُ فِي قَصِيدَةِ (غِيَابُ الفَارِسِ) هَكَذَا:

وَتَرَجَّلَ ثُمَّ تَهَاوَى/ زَلْزَلَ أَعْمَاقَ الأَرْضِ الحجَرِيَّة

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٨٥، ١٨٦.

(٢) السابق، ص ١٨٩.

وَكَأَنَّهَا تَقُصُّ عَلَيْنَا قِصَّةَ هَذَا الفَارِسِ الَّذِي غَابَ فَجْأَةً، لَقَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ كَذَا وَكَذَا، وَتَرَجَّلَ ثُمَّ تَهَاوَى، وَالفِعْلُ مُسْنَدٌ إِلَى ضَمِيرِ الغَائِبِ، وَالقَصِيدَةِ عَنْ غِيَابِ الفَارِسِ. أَمَّا قَصِيدَةُ (مِنْ تَرَاتِيلِ النَّهْرِ القَدِيمِ) فَإِنَّهَا لَا تَبْدَأُ هَكَذَا:

وَتُحَدِّثُنِي حَتَّى يَخْفُتَ صَوْتُكَ وَيَلُفَّ حَدِيثَكَ صَمْتٌ
مَذْبُوحٌ وَيُغَطِّيهِ الزَّهْرُ/ يُرَتِّلُ غُرْبَتَهُ العُشَّاق

وَالفِعْلُ المعْطُوفُ فِي أَوَّلِهَا مُسْنَدٌ إِلَى ضَمِيرِ المخَاطَبِ، فَالنَّهْرُ القَدِيمُ مَاثِلٌ قَائِمٌ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ الحدِيثُ وَلَكِنَّ صَوْتَهُ خَافِتٌ وَاهِنٌ ضَعِيفٌ بِمَا يَتلَائَمُ مَعَ القِدَمِ وَكِبَرِ السِّنِّ. وَأَحْيَانًا تَبْدَأُ القَصِيدَةُ بِجُمْلَةٍ فِيهَا تَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ، فَتَدْفَعُ الجمْلةُ عُنْصرًا مِنْ عَناصِرِهَا فِي الْمُقَدِّمَةِ يُوحِي بِلَفْتِ الانْتِبَاهِ وَإِثَارَةِ الدَّهْشَةِ، فَفِي قَصِيدَةِ (الجنُونُ والبَحْرُ) نَجِدُهَا تَبْدَأُ هَكَذَا:

سَاكِنٌ فِي ضُلُوعِي اشْتِهَاؤُكَ يَا بَحْر

وَقَصِيدَةُ (العَطَشِ الأَكْبَرِ) تَبْدَأُ هَكذَا:

مُنْقَسِمًا أُبْحِرُ فِي صَمْتٍ تَرْصُدُنِي أَحْزَانُ الأَعْيُن
عَبَثًا يَتَخَفَّى فِي وَرَقِ الشَّجَرِ وَبَيْنَ تِلَالِ العُشْبِ..."[1]

هَذَا حَظُّ النحْوِ وَمَعَانِيهِ فِي قِرَاءَةِ **د. حَمَاسَةَ** دِيوَانَ (العَطَشُ الأَكْبَرُ)، وَقَدِ اكتَفَيْنَا بِبَعْضِ كَلامِهِ حَتَّى لَا يَطُولَ الاقْتِبَاسُ، غَيْرَ أَنَّنَا نُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ قَدْ تَكَلَّمَ عَنْ مَلْمَحٍ آخَرَ مِنْ مَلَامِحِ الابْتِدَاءِ فِي قَصَائِدِ الدِّيوَانِ، وَهُوَ مُجَارَاةُ النمَطِ القُرْآنِي فِي البَدْءِ بِالقَسَمِ مِثْلَمَا فِي قَصِيدَةِ (العَوْدَةُ مِنْ جَوْفِ المَاءِ)، وَالبَدْءِ كَذَلِكَ بِحُرُوفٍ مُقطَّعَةٍ مِثْلَما فِي قَصِيدَةِ (أ.ب)؛ دُونَ تَأْوِيلٍ لِهَذَا البَدْءِ غَيْرَ أَنَّهُ يُوحِي بِالنمَطِ القُرْآنِيِّ[2].

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٨٧، ١٨٨.
(٢) انظر السابق: ص ١٨٨، ١٩٨.

وَلَيْسَ يَخْفَى أَنَّ حَظَّ النحْوِ فِي هَذِهِ القِرَاءَةِ شَاحِبٌ هَزِيلٌ؛ إِذْ يُعنَى النّاقِدُ بِظَواهِرَ جُزئِيَّةٍ وَرَدَتْ فِي بِدَايَاتِ قَصَائِدَ مُخْتَلِفَةٍ، وَيُغْفِلُ كَثِيرًا مِنْ وَظَائِفِ النَّحْوِ وَمَعَانِيهِ فِي قَصَائِدِ الدِّيوَانِ، مِمَّا يَعْنِي أَنَّ النَّحْوَ وَوَظَائِفَهُ آخِرُ مَا يُهِمُّ الناقِدَ فِي قِرَاءَةِ الدِّيوَانِ، أَذَلِكَ مَا كُنَّا نَنتَظِرُ مِنْ نَاقِدٍ حَتَّمَ الدُّخُولَ إِلَى قِرَاءَةِ النَّصِّ الشِّعْرِيِّ مِنْ بَابَةِ اللُّغَةِ أَوِ النَّحْوِ لَا غَيْرُ؟! بَلْ مَا زَالَ يُوصِينَا بِالمدْخَلِ النَّحْوِيِّ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ؟!!

أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ ثُغْرَةً أُخْرَى فِي مَسْلَكِ **د. حَمَاسَة** فِي قِرَاءَةِ هَذِهِ الظَّوَاهِرِ الجزْئِيَّةِ؛ حَيْثُ أَوْقَعَهُ اقْتِطَاعُ بِدَايَاتِ قَصَائِدَ مُختَلِفَةٍ لِيُؤَكِّدَ بِهَا تِلْكَ الظَّوَاهِرَ الجزْئِيَّةَ؛ فِي تَنَاقُضٍ جَلِيٍّ مَعَ مَا حَذَّرَنَا مِنْهُ فِي قِرَاءَةٍ أُخْرَى؛ إِذْ رَفَضَ **د. حَمَاسَةُ** رَفْضًا بَاتًّا اقْتِطَاعَ أَجْزَاءٍ مِنْ قَصَائِدِ الدِّيوَانِ الّذِي يَقْرَؤُهُ، مَعَ التعْلِيقِ عَلَيهَا؛ وَرُغْمَ أَنَّهُ أَشَارَ إِلَى هَذَا المَبْدَأِ خِلَالَ قِرَاءَتِهِ دِيوَانَ (حَصَادُ الرِّيحِ) لِلشَّاعِرِ الكُوَيْتِيِّ خَلِيفَةَ الوَقْيَان، فَإِنَّهُ قَدْ صَاغَ كَلَامَهُ صِيَاغَةً عَامَّةً تَصْدُقُ عَلَى دَوَاوِينِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ المعَاصِرِ كُلِّهَا. انْظُرْ مَا يَقُولُهُ النّاقِدُ، ثُمَّ اعْجَبْ لَهُ؛ إِذْ يَنْهَى عَنْ خُلُقٍ وَيَأْتِي مِثْلَهُ! يَقُولُ **د. حَمَاسَةُ**: "إِنَّ دِيوَانَ الشِّعْرِ المعَاصِرِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَحْيَانِ – يُعَدُّ لَدَى الشُّعَرَاءِ النّاضِجِينَ دَائِرَةً شِعْرِيَّةً دِلَالِيَّةً كُبْرَى، وَلَكِنَّ كُلَّ قَصِيدَةٍ فِي دَاخِلِهِ تُعَدُّ دَائِرَةً شِعْرِيَّةً مُستَقِلَّةً، قَدْ تَتَمَاسُّ هَذِهِ الدَّوَائِرُ الصُّغْرَى، أَوْ تَتَدَاخَلُ، أَوْ تَتَجَاوَرُ وَلَا تَتَمَاسُّ، وَتُصْبِحُ نِقَاطُ التَّمَاسِّ هَذِهِ هِيَ وُجُوهَ الشِّرْكَةِ الَّتِي تُكَوِّنُ مَلَامِحَ الدَّائِرَةِ الكُبْرَى، **غَيْرَ أَنَّ هَذَا – فِي نَظَرِي – لَا يُسَوِّغُ بِحَالٍ اقْتِطَاعَ أَجْزَاءٍ من هَذِهِ القصَائِدِ لِلحَدِيثِ عَنْها مُنْفَصِلَةً عَن القَصِيدَةِ نَفْسِهَا، فَإِنَّ هَذِهِ الأَجْزَاءَ لَا تَكُونُ إِلَّا (شَوَاهِدَ) عَلَى فِكْرَةٍ فِي ذِهْنِ النَّاقِدِ نَفْسِهِ، وَتَظَلُّ هَذِهِ الشَّوَاهِدُ دَائِمًا أَشْلَاءً تَبْحَثُ عَنْ بَقِيَّةِ أَوْصَالِ جَسَدِهَا حَتَّى تَكْتَمِلَ بِنْيَةُ القَصِيدَةِ، لِأَنَّ أَجْزَاءً مِنْ قَصَائِدَ مُخْتَلِفَةٍ – وَلَوْ كَانَتْ لِشَاعِرٍ وَاحِدٍ – لَا تُكَوِّنُ مَهْمَا بَلَغَ تَحلِيلُهَا مِنَ العُمْقِ بِنْيَةً مُكتَمِلَةً لِعَمَلٍ فَنِّيٍّ**. وَقَدْ كُنْتُ عَلَى وَعْيٍ، مَعَ تَنَاوُلِي لِدِيوَانٍ وَاحِدٍ لِشَاعِرٍ وَاحِدٍ، أَنْ أَقَعَ فِي هَذَا الشَّرَكِ الْخَادِعِ الّذِي قَضَى

عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الأَعْمَالِ النقْدِيَّةِ وَأَفْقَدَهَا جَدْوَاهَا. وَقَدْ حَرصِتُ دَائِمًا عَلَى تَنَاوُلِ القَصِيدَةِ مُكتَمِلَةً مَعَ أَنَّهَا – كَما أَشَرْتُ – دَائِرَةٌ صُغْرَى فِي إِطَارِ دَائِرَةٍ أَكْبَرَ مِنْهَا"[1].

وَمِمَّا نَأْخُذُهُ عَلَى هَذِهِ القِرَاءَةِ كَذَلِكَ دَعْوَةُ **د. حَمَاسَةَ** إِلَى تَهْمِيشِ المعْنَى، مُسْتَدِلًّا بِمَا قَالَهُ **الْجَاحِظُ**، حَيْثُ يَقُولُ **د. حَمَاسَةُ:** "وَمِنْ هُنَا فَإِنَّ قَضِيَّةَ البَحْثِ عَنِ المضَامِينِ الشِّعْرِيَّةِ قَضِيَّةٌ لَيْسَتْ ذَاتَ مَعْنًى، فَالشِّعْرُ ضَرْبٌ مِنَ الصِّيَاغَةِ وَجِنْسٌ مِنَ التصْوِيرِ"[2].

وَمَا إِخَالُ الْجَاحِظَ أَرَادَ بِقَولَتِهِ (فَالشِّعْرُ ضَرْبٌ مِنَ الصِّيَاغَةِ وَجِنْسٌ مِنَ التصْوِيرِ) تَهْمِيشَ المعْنَى أَوْ إِقْصَاءَهُ، بِقَدْرِ مَا أَرَادَ تِبْيَانَ مَا يَتَفَرَّدُ بِهِ الشِّعْرُ عَنْ لُغَةِ الكَلَامِ العَادِيِّ، وَهَبْنَا وَافَقْنَا **د. حَمَاسَةَ** فِي ضَرُورَةِ العِنَايَةِ بِالتصْوِيرِ الشِّعْرِيِّ أَكْثَرَ مِنَ المعْنَى، فَقَدْ نَقَلْنَا مَا قَالَهُ عَن صُورَةِ (الرِّحْلَةِ) فِي دِيوَانِ (العَطَشُ الأَكْبَرُ)، أَفَتُرَاهُ بِمَا قَالَ عَنْ هَذِهِ الصُّورَةِ قَدْ جَاوَزَ المعْنَى إِلَى تَجْلِيَّةِ الصِّيَاغَةِ وَالتصْوِيرِ؟! بَلْ إِنَّ جُلَّ دِرَاسَاتِ **د. حَمَاسَةَ** التَّطبيقِيَّةَ لَا تَكَادُ تُجَاوِزُ إِطَارَ المَضْمُونِ!

(١) د. محمد حماسة عبد اللطيف: **الإبداع الموازي**، ص ١٤٠، ١٤١.

(٢) انظر د. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ص ١٩٤.

خَاتِمَةٌ

لَقَدْ حَاوَلْتُ خِلَالَ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ أَنْ أَقِفَ أَمَامَ إِشْكَالِيَّةٍ مِنْ إِشْكَالِيَّاتِ النقْدِ الأَدَبِيِّ الحدِيثِ، وَهِيَ إِشْكَالِيَّةُ الْخُلْفِ بَينَ التنْظِيرِ وَالتطْبِيقِ، تِلْكَ الإِشْكَالِيَّةُ الَّتِي يُدْرِكُهَا النقَّادُ أَكْثَرَ مِنِّي؛ ذَلِكَ أَنَّهَا إِحْدَى أَزْمَاتِ نَقْدِنَا الأَدَبِي الحدِيثِ؛ فَقَلَّمَا يَنْجُو مِنْهَا نَاقِدٌ يَجْمَعُ خِطَابُهُ النقْدِيُّ بَينَ التنْظِيرِ وَالتَّطْبِيقِ، وَإِنَّمَا يَقَعُ التفَاوُتُ فِي مِقْدَارِ الْخُلْفِ بينَ المسْتَوَيينِ وَحَجْمِهِ، وَمَرَدُّ هَذِهِ الأَزْمَةِ فِيمَا أَرَى إِلَى عَامِلَيْنِ:

أَوَّلُهُما – المنهَجُ المعْكُوسُ؛ وَأَعْنِي بِهِ أَنَّنَا نَبْدَأُ بِالتنْظِيرِ قَبْلَ التَّطْبيقِ، إِذْ نُقَارِبُ نُصُوصَنَا الأَدَبِيَّةَ بِوَسَاطَةِ مَبَادِئَ وَمَقُولَاتٍ نَقْدِيَّةٍ جَاهِزَةٍ أَوْ مُعَدَّةٍ سَلَفًا، ثُمَّ نَقْسِرُ نُصُوصَنَا عَلَيْهَا، أَوْ نَقْسِرَهَا هِيَ عَلَى تَحْلِيلِ نُصُوصِنَا، فَكُنَّا بِذَلِكَ كَمَنْ يَضَعُ العَرَبَةَ أَمَامَ الحِصَانِ!، وَلَوْ أَنَّ تِلْكَ المبَادِئَ وَالمقُولَاتِ تَكَوَّنَتْ نَتِيجَةَ تَأَمُّلٍ وَوَعْيٍ وَجُهْدٍ مُثَابِرٍ وَئِيدٍ فِي قِرَاءَةِ النَّصِّ الأَدَبِيِّ لَكَانَ نَهْجُنَا أَقْوَمَ وَأَهْدَى سَبِيلًا؛ أَعْنِي أَنَّنَا لَوْ عَكَسْنَا تَعَامُلَنَا مَعَ النَّصِّ الأَدَبِيِّ، فَاكتَشَفْنَا قَوَانِينَهُ، وَمَبَادِئَهُ بَدَلًا مِنْ مُقَارَبَتِهِ بِمَبَادِئَ وَمَقُولَاتٍ مُعَدَّةٍ جَاهِزَةٍ؛ فَلَرُبَّمَا تَغَيَّرَتْ مَلَامِحُ خِطَابِنَا النقْدِيِّ وَوَاقِعُهُ.

ثَانِيهِمَا – النَّقْلُ المفْتُونُ؛ وَأَعْنِي بِهِ فِتْنَتَنَا بِمَبَادِئِ النقْدِ الغَرْبِيِّ، وَمَقُولَاتِهِ، نَنْقُلُهَا دُونَما تُؤَدَةٍ أَوْ وَنَاةٍ،، لَقَدْ رَأَيْنَاهَا جَاهِزَةً مَطْرُوحَةً فِي الطَّرِيقِ، لَا مَشَقَّةَ فِيهَا سِوَى تَرْجَمَتِهَا، وَرُبَّمَا وَجَدَهَا بَعْضُنَا مُتَرْجَمَةً فَاسْتَسْهَلَ أَخْذَهَا وَقِرَاءَةَ النَّصِّ العَرَبِيِّ بِوَاسِطَتِهَا، وَنَسِيَ كَثِيرٌ مِنْ نُقَّادِنَا أَنَّ مَقُولَاتِ النقْدِ الغَرْبِيِّ لَيْسَتْ سِوَى مُوضَاتٍ مَوْسِمِيَّةٍ، تَنْسَخُ كُلُّ مُوضَةٍ مِنْهَا سَالِفَتَهَا، نَاهِيكَ بِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ هَذِهِ الْمَقُولَاتِ الغَرْبِيَّةُ مَرْكُوزٌ فِي تُرَاثِنَا العَرَبِيِّ يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يَسْتَخْرِجُهُ، لَكِنَّ بَعْضَ نُقَّادِنَا يَجِدُونَ التَّجْدِيدَ فِيمَا قَالَهُ النقْدُ الغَرْبِيُّ، فَيَحْلُو لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: قَالَ دُو سُوسِير، أَوْ رُولَان بَارْت، أَوْ مِيشِيل فُوكُو، وَلَا يَحْلُو لَهُم أَنْ يَقُولُوا: قَالَ سِيبَوَيْهِ أَوِ ابْنُ جِنِّي أَوْ الْجُرجَانِيِّ!

لَقَدْ أَحْسَنَ **د. حَمَاسَةُ** حِينَ آثَرَ المَدْخَلَ النَّحْوِيَّ إِلَى قِرَاءَةِ النصِّ الشِّعْرِيِّ؛ فَالنَّحْوُ أَهَمُّ مُكوِّنَاتِ المدْخَلِ اللغَوِيِّ الَّذِي يُلائِمُ النَّصَّ الأَدَبِيَّ

بِوَصْفِهِ بِنَاءً لُغَوِيًّا. لَكِنَّهُ أَضَاعَ إِحْسَانَهُ حِينَ شَغَلَ نَفْسَهُ بِمَقُولَاتِ النقْدِ الجدِيدِ، أَوِ البِنيويَّةِ أَوِ التَّولِيديَّةِ التّحوِيليَّةِ؛ كَاستِقْلَالِ النصِّ، وَالعلاقَاتِ الرأْسِيَّةِ وَالأُفقِيَّةِ، وَالبِنيتَيْنِ السَّطْحِيَّةِ وَالعَمِيقَةِ، وِمِنْ ثَمَّ بَقِيَ المدْخَلُ النَّحْوِيُّ وَحَتْمِيتُهُ مُجرَّدَ رُؤْيَةٍ نَظَرِيةٍ، لَا تَجِدُ لَهَا سَنَدًا مِنْ جُهُودِ النَّاقِدِ التَّطْبِيقيَّةِ.

وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ بَعْضَ قُرَّاءِ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ سَوفَ يُسِيئُ الظَّنَّ بِهَا، ويَرَاهَا مُحَاوَلَةً لِهَدْمِ مَشْرُوعِ **د. حَمَاسَةَ** النَّقْدِيِّ، وَمَا أَرَدْتُ الْهَدْمَ بِقَدْرِ مَا أَرَدْتُ لَفْتَ الأَنْظَارِ إِلَى تِلْكَ الإِشْكَالِيّةِ، وَلَنْ تَظْهَرَ تِلْكَ الإِشْكَالِيّةُ إِلَّا بِنَمُوذَجٍ نَسْتَبِينُ مِنْ خِلَالِهِ اتِّسَاعَ المسَافَةِ بَينَ التَّنظِيرِ وَالتطْبِيقِ، وَلَيْسَ يَعْنِي اتِّخَاذِي الدُّكتُورَ **مُحمَّد حَمَاسَةَ** رَحِمَهُ الله نَمُوذَجًا لِهَذِهِ الإِشْكَالِيّةِ أَنَّهُ تَفَرَّدُ بِهَا، وَبَرِئَ مِنْهَا بَقِيَّةُ النقَّادِ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ نُقَّادِنَا يَقُولُونَ شَيْئًا وَيَفْعَلُونَ شَيْئًا آخَرَ، أَوْ يَنْهَوْنَ عَنْ شَيْءٍ وَيَأْتُونَ مِثْلَهُ!

وَإِنَّ أَوَّلَ خُطْوَةٍ فِي تَرْشِيدِ خِطَابِنَا النقْدِيِّ أَنْ نَعْرِفَ عِلَلَهُ وَأَدْوَاءَهُ، حَتَّى نَبْدَأَ عِلَاجَهَا وَفْقَ رُؤْيَةٍ وَوَعْيٍ تُكَوِّنُهُما جُهودٌ نَقْدِيَّةٌ مُتكَامِلَةٌ مُتآزِرَةٌ، فَلَيْسَ يُغنِي الجهْدُ الفَرْدِيُّ فِي عِلَاجِ أَزْمَةٍ كَبِيرَةٍ كَهَذِي، وَقَدْ تَكُونُ أُولَى خُطوَاتِ ذَلِكَ العِلَاجِ أَنْ نُعدِّلَ رُؤيَتَنَا لِعَلَاقَةِ الجهْدِ النظَرِيِّ بِالجهْدِ التَّطبِيقِيِّ، فَيكُونُ الجهْدُ النظَرِيُّ تَابِعًا وَلَيْسَ مَتْبُوعًا؛ بِأَنْ يَسْتَخْلِصَ نُقَّادُنَا مَبَادِئَهُمُ النظَرِيَّةَ عَلَى هَدْيِ قِرَاءَاتِهُمُ التطْبِيقِيَّةِ، وَأَنْ تَكُونَ هَذِهِ المبَادِئُ عَلَى هَدْيِ مَا فَتَحَ الله عَلَيْهِمْ مِنْ دِلَالَاتٍ، وَتَأْوِيلَاتٍ فِي قِرَاءَةِ النصِّ الأَدَبِيِّ؛ ذَلِكَ أَنَّ عُقْبَى التَّنْظِيرِ قَبْلَ التَّطْبِيقِ هِيَ الْخُلْفُ فِي كَثِيرٍ مِنْ خِطَابَاتِنَا النقْدِيَّةِ.

وَيَحْسُنُ كَذَلِكَ أَنْ نُكْثِرَ التَّطْبِيقَ وَنُكَفْكِفَ مِنْ غُلوَاءِ التَّنْظِيرِ؛ فَإِنَّ خِطابَنَا النقْدِيَّ المعَاصِرَ قَدْ أُتْخِمَ بِمَقُولَاتٍ نَظَرِيَّةٍ، يَهْدِمُ بَعضُهَا بَعْضًا، وَيَنْقُضُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَقَدْ يُسْعِفُنَا فِي أَنْ يُعْنَى نُقَّادُنَا بِتُرَاثِ أَسْلَافِهِمْ بِقَدْرِ مَا اهْتَمُّوا بِالنقْلِ عَنِ النقْدِ الغَرْبِيِّ، تَحْتَ دَعَاوَى الحدَاثَةِ وَالتجْدِيدِ وَالانْفِتَاحِ، وَالقَطِيعَةِ مَعَ الْمَاضِي، وَغيْرِهَا مِنَ الْمَفَاهِيمِ التِي فُتِنُ بِهَا خِطَابُنَا النقْدِيُّ المعَاصِرُ فَأَوْرَثَتْهُ انْحِرَافًا وَوَحْشَةً وَتَنَاقُضًا، عَلَى نَحْوِ مَا يَقُولُ النّاقِدُ الكَبِيرُ

الدكتورُ **مُصْطَفَى نَاصِف** فِي لُغَةٍ أَبْلَغَ وَأَبْينَ مِمَّا أَقُولُ، وَلِهَذَا النَّاقِدِ القَدِيرِ مَقُولَاتٌ كَثِيرَةٌ لَا يَعْلَمُهَا النقَّادُ إِلَّا أَمَانِيَّ، وَلَا يَقِفُونَ أَمَامَهَا مُتدَبِّرِينَ، أَتُرَانَا وَقَفْنَا مَلِيًّا أَمَامَ شُعُورِهِ بِالتنَاقُضِ وَالوَحْشَةِ وَالاسْتِعْبَادِ جَرَّاءَ فِتْنَتِنَا بِالنقْدِ الغَرْبِيِّ حِينَ قَالَ: "**إِنَّنِي أَشْعُرُ أَحْيَانًا أَنَّ قِرَاءَةَ النقْدِ الغَرْبِيِّ قَدْ أَدَّتْ إِلَى نَتَائِجَ مُتنَاقِضَةٍ، أَدَّتْ أَحْيَانًا إِلَى مَا يُشْبِهُ الانْحِرَافَ وَالوَحْشَةَ**، يُحَاوِلُ صَاحِبُهَا النَّجَاةَ مِنْ خِلَالِ التَّشَبُّثِ (بِغَيْرِهِ) وَلَكِنَّ هَذِهِ القِرَاءَةَ أَدَّتْ فِي أَحْيَانٍ أُخْرَى أَقَلَّ ظُهُورًا إِلَى أَنْ يَكُونَ القَارِئُ العَرَبِيُّ هُوَ نَفْسَهُ، يُجَرِّبُ تَجْرِبَتَهُ إِنْ صَحَّ هَذَا التَّعْبِيرُ.. **وَلَكِنَّنَا نَسْعَى بِعِبَارَةٍ بَسِيطَةٍ إِلَى أَنْ نَتَحَرَّرَ، وَالتحَرُّرُ هُوَ الشُّعُورُ بِالمسَافَةِ بَينِي وَبَيْنَ الآخَرِينَ.** وَإِذَا حَلَا لِبَعْضِ النَّاسِ أَنْ يُرَدِّدُوا أَنَّ بَينَنَا وَبَينَ الأَجْدَادِ مَسَافَةً فَقَدْ أُحِبُّ أَنْ أُذَكِّرَهُمْ بِأَنَّ المسَافَةَ بَينَنَا وَبَيْنَ بَعْضِ التيَّارَاتِ التِي تَهُبُّ عَلَيْنَا أَوْسَعُ. وَالتوَاصُلُ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَيْسَ يَعْنِي أَنْ نَفْنَى فِي شَيْءٍ. لَا أَحَدَ يُشَجِّعُ عَلَى ضِيقِ الأُفُقِ وَالغُرُورِ، وَلَكِنَّنَا نُشَجِّعُ عَلَى أَلَّا نَضِيعَ فِي الزِّحَامِ"[(١)]؟!

لَقَدِ اسْتَدْلَلْتُ بِمَا قَالَ النَّاقِدُ القَدِيرُ **د. مُصطَفَى نَاصِف**، أَبْتَغِي أَنْ يَجِدَ كَلَامُهُ– إِنْ لَمْ يَجِدْ

كَلَامِي – أُذُنًا وَاعِيَةً؛ حَتَّى لَا نَضِيعَ فِي الزِّحَامِ.

وَرُغْمَ طُولِ هَذِهِ الدِّرَاسَةِ، فَإِنِّي قَدْ سَكَتُّ عَنْ كَثِيرٍ مِمَا كَتَبَهُ **د. حَمَاسَةُ**، وَلِي فِيهِ مَقَالٌ وَرَأْيٌ؛ عَمَلًا بِمَا قَالَتِ العَرَبُ: **يَكْفِي مِنَ القِلَادَةِ مَا أَحَاطَ بِالعُنُقِ**، وَلَعَلَّ فِيمَا ذَكَرْتُ مِنْ مَلَامِحَ وَنَمَاذِجَ وَمَلَاحِظَ مَا يُغْنِي عَنِ الإِطَالَةِ وَالتَّفْصِيلِ.

وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يِهْدِي السَّبِيلَ

---

(١) د. مصطفى ناصف: **خصام مع النقاد، النادي الأدبي الثقافي بجدة ١٤١١هـ – ١٩٩١م، ص٢٣.**

قَائِمَةُ المَرَاجِعِ

١. أحمد يوسف: **القراءة النسقية – سلطة البنية ووهم المحايثة**، ط ١، الدار العربية للعلوم – ناشرون، لبنان ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧م.

٢. الألوسي (شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي – المتوفى: ١٢٧٠هـ): **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق علي عبد الباري عطية، ج ١٠، ط ١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٥هـ.

٣. تمام حسان: **مقالات فِي اللغة والأدب**، ج١، ط١، عالم الكتب، القاهرة ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٥م.

٤. سعد عبد العزيز مصلوح: **في اللسانيات والنقد أوراق بينية**، ط١، عالم الأدب، القاهرة، ٢٠١٧م.

٥. عبد القاهر الجرجاني: **دلائل الإعجاز**، قرأه وعلق عليه أبو فهر/ محمود محمد شاكر، ط ٣، مطبعة المدني بمصر،١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

٦. فاروق شوشة: **الأعمال الشعرية**، مج ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨م.

٧. محمد حماسة عبد اللطيف: **الإبداع الموازي (التحليل النصي للشعر)**، ط١، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.

٨. محمد حماسة عبد اللطيف: **البناء العروضي للقصيدة العربية**، ط١، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م.

٩. محمد حماسة عبد اللطيف: **شعر صلاح عبد الصبور – دراسة نصية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٤م.

١٠. محمد حماسة عبد اللطيف: **اللغة وبناء الشعر**، ط١، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠١م.

١١. محمد حماسة عبد اللطيف: **لغة الشعر – دراسة فِي الضرورة الشعرية**، ط١، دار الشروق، القاهرة ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م.
١٢. محمد حماسة عبد اللطيف: **فتنة النص – بحوث ودراسات نصية**، ط١، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٧م.
١٣. محمد حماسة عبد اللطيف: **النحو والدلالة – مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي**، ط١، مطبعة المدينة، القاهرة ١٩٨٣م.
١٤. محمد الناصر العجيمي: **النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية**، ج١، ط١، كلية الآداب – سوسة، ١٩٩٨م.
١٥. المرادي (الحسن بن قاسم): **الجنى الداني في حروف المعاني**، تحقيق د. فخر الدين قباوة، والأستاذ محمد نديم فاضل، دار الآفاق الجديدة – بيروت، بدون تاريخ.
١٦. مصطفى ناصف: **خصام مع النقاد**، النادي الأدبي الثقافي بجدة ١٤١١هـ – ١٩٩١م.
١٧. يمنى العيد: فِي **معرفة النص**، ط٣، مشورات دار الآفاق الجديدة، لبنان ١٩٨٥م.